صلاة تسليم الذات

أبتِ، إني أسلّمُ لك ذاتي، فافعل بي ما تشاء.
ومهما فعلت بي، فانا شاكر لك.
إني مستعد لكلّ شيء، وأرتضي بكلّ شيء.
ليس لي رغبة أخرى يا إلهي، سوى أن
تكمُل إرادتك فيّ وفي جميعِ خلائقك.
إني استودع روحي بين يديك، وأهبها لك يا إلهي،
بكلّ ما في قلبي من الحبّ، لأنّي أحبّك،
ولأن الحبّ يتطلب مني أن أهب نفسي،
أن أودعها بين يديك، من دون ما قياس،
وبثقة لا حدّ لها... لأنك أبي.

الاخ شارل يسوع

مطبعة رسام -هاتف:٨١٨٣٣١٩ - ٨١٨٥٥٨٠

ܟܬܒܐ ܕܚܝ ܟܬܒ ܚܝ

Biographies: Qashishe

Beth Mardutho Library

شارل دي فوكو

الطريق إلى تامنراست

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ
بيت مردوثا
Ex Libris
Beth Mardutho Library

انطوان شاتلار

شارل دي فوكو

الطريق إلى تامنراست

ترجمة

الأب ألبير أبونا

منشورات دار " **نجم المشرق** " (١٠)

بغداد - ٢٠٠٥

العنوان بالفرنسية

ANTOINE CHATELARD

Charles de Foucauld

Le chemin vers Tamanrasset

PARIS - 2002

" كان راهبًا. أو بالأحرى ناسكًا، بـــكل غرائزه العميقـــة. وهكذا وُلد. انما أمضى بعض الوقت لكي يجد طريقه. فان غرائز الناســـك العميقـــة تظهر منذ ان كان مستكشفاً ".

ي. ف. غوتييه

" انه واحد من هؤلاء الرجال العظام الذين تصعب الكتابة عنهم بدون انفعال او اندهاش، وبكلمة بدون حماس. فانه كبير جدًا وانسان جدًا. انه يتجاوزنا، واحياناً يحيّرنا، ويواضعنا ويشجعنا، ويثيرنا. نحـــب ان نعرف انه انساني، وانساني جدًا، ولكننا نتألم اذ نجده انســـانًا إلى حـــد كبـــير احياناً، في حين انه قديس إلى حدّ كبير في ظروف أخرى. فهل حـــقّق مجموعة هذه المتناقضات، وهل يمكننا ان نعمل ذلك ؟ ولن يتوقف الأمر على فضح أَسرارِ التاريخ...، بل على محـــاولة التعرّف فيه إلى العظمة الحقيقية التي بفضلها صار ويبقى دليلاً ".

دون جان لكلير

العناوين الكاملة للحواشي

(بازان) : رينيه بازان، مستكشف في مراكش، ناسك الصحراء، ط. ٢ باريس ١٩٥٩.

(غوري) : جورج غوري، الصداقات الصحراوية للأب دي فوكو، باريس ١٩٤٦، ج ١.

(الموضع الاخير) : شارل دي فوكو، الموضع الأخير، باريس ١٩٧٤.

(رسائل) : شارل دي فوكو، رسائل إلى صديق في الثانوية، باريس ١٩٨٢.

(لسورد) : بول –، شخصية الأب دي فوكو الحقة، باريس ١٩٣٣.

(أن أصرخ الانجيل) : شارل دي فوكو، باريس ١٩٨٢.

(دي كاستري) : رسائل إلى هنري دي كاستري.

(استطلاع) : شارل دي فوكو، استطلاع في مراكش، باريس ١٨٨٨.

(الاقتداء) : شارل دي فوكو، الاقتداء بالحبيب، مونروج ١٩٧٧.

(من يستطيع) : شارل دي فوكو، من يستطيع ان يقاوم الله ؟، باريس ١٩٨٠.

(الموضع الأخير الحبيب) : رسائل إلى اصدقائي في دير السكوتيين، باريس ١٩٩١.

(سيكس) : فرانسوا سيكس، المسيرة الروحية لشارل دي فوكو، باريس ١٩٥٨.

(مسافر) : شارل دي فوكو، مسافر في الليل، باريس ١٩٧٩.

(روح يسوع) : شارل دي فوكو، روح يسوع، باريس ١٩٧٨.

(الكتابات الروحية) : رينيه بازان، الكتابات الروحية لشارل دي فوكو، باريس ١٩٥١.

(قوانين ومحضر) : شارل دي فوكو، قوانين ومحضر، مونروج ١٩٩٥.

(اعتبارات) : شارل دي فوكو، اعتبارات في أعياد السنة، باريس ١٩٨٧.

(جودة الله) : شارل دي فوكو، جودة الله، مونروج ١٩٩٦.

(وحيد مع الله) : شارل دي فوكو، وحيد مع الله، باريس ١٩٧٥.

(المراسلات الصحراوية) : شارل دي فوكو، المراسلات الصحراوية، باريس ١٩٩٨.

مقدمة المترجم

رأيتُ كتاب " الطريق إلى تامنراست " عند اخوات يسوع الصغيرات في الدورة (بغداد). وإذ كنتُ على أهبة السفر إلى السويد لزيارة الأقارب والأصدقاء، وضعتُ الكتاب في حقيبتي، وقلتُ لعلّي أجد المجال لمطالعته هناك. ولقد أتاحت لي إقامتي القصيرة في ستوكهولم المجال ليس لقراءة الكتاب فحسب، بل لترجمته إلى العربية ايضًا. فكنتُ انتهز فرصة انشغال اهل البيتُ بالعمل او بالمدارس، فانعزل تارة في كافيتريا تقع في موضع رائع مشرف على بحيرة جميلة، وهناك أمضي ساعات الصباح في الترجمة، وطوراً كنت أجد مواضع أخرى تتيح لي شيئًا من الصمت والهدوء، فاعكف على هوايتي المفضّلة... وهكذا توصلت إلى ترجمة هذا الكتاب، واتمنى ان يساعد القرّاء ليزدادوا تعرّفا إلى الأب شارل دي فوكو وإلى روحانيته.

اما مؤلف الكتاب، انطوان شاتلار، فهو من اخوة يسوع الصغار. ومنذ سنة ١٩٥٤، يعيش في ضيعة تامنراست الواقعة جنوبي الجزائر، وهو الموضع الذي أمضى فيه الأب شارل دي فوكو السنوات الأخيرة من حياته، وهناك قُتل في ١ كانون الاول ١٩١٦. حاول المؤلف ان يسلّط الأضواء على جوانب جديدة من حياة دي فوكو، وان يبيّن آنيّة رسالته، ويرمي إلى إشراكنا في استقامة النظرة التي يلقيها على حياة هذا الشخص الذي اعترفت الكنيسة مؤخرًا ببطولة فضائله، وكلنا أمل بأن تعلنه قريبًا طوباويًا، ثم قديسًا، إن شاءَ الله !

لم يشأ المؤلف ان يقدّم لنا سيرة تقليدية للأب دي فوكو، بل توخّى إبراز أحداث معيَّنة من حياته، والكشف عن جوانب مهمة جدًا تطلعنا على مطاوي هذه النفس العظيمة، وعلى الرغبة العارمة التي كانت تتأجج في أعماق هذا

الرجل المتعطش إلى المطلق، وتدفعه إلى حياة المغامرة في مجاهل الصحـــراء الجزائرية في سبيل المســـيح الذي أحبه حتى الجنون وارادَ ان يقتـــدي بهِ في الفقر والصمت والإختلاء والعطاء المجاني المتواضع.

ويعرض المؤلف لتأملنا مسيرة رجل آمن بالحكمة القـــائلة : لا يولد المرءُ قديسًا، بل يصبح قديسًا ! ويدعونا لنقتفـــي آثار هذا الرجل في ســـفره الداخلي وفي حياة مليئة بالمتناقضات، ولكنه عرف ان يوفّق فيها بين الطاعة والمبادرة، وبين النسك ونداء المحبة، وفي كل شيء بحثَ عن الكمال، ومضى حيثما دفعه الروح، وعاش روحانية الناصرة التي يمكن عيشها في جميع الأحوال.

واني اقدّم هذه الترجمة العربيـــة ليس إلى أخوة يســـوع الصغـــــار وإلى اخوات يسوع الصغيرات فحسب، بل إلى جميع المتعطشين إلى القيم الروحيـــة ويبحثون عن عيشها وتجسيدها في حياتهم اليومية. وادعو الجميع لينظروا إلى حياة هذا الرجل العظيم، وان يقرأوا من خلالها محبة الله التي تقود كل انسان في الطريق المناسب لتفتّح دعوته والبلوغ إلى ملء قامته الأنسانية والمسيحية. وعسى ان يسهم هذا الكتاب في تسليط الأضواء على حياته وحياتنا، ويحـــدونا إلى اكتشاف أحد الطرق المؤدية إلى الملكوت.

بغداد في ٢٠٠٤/١٠/٢٠

الأب ألبير أبونا

مقدمة المؤلف

كان الأصل في وضع هذا الكتاب اجتماعًا عُقد في مدينة ليون الفرنسية من ٢٦ تموز إلى ٢ آب، ضم أخوّة شارل دي فوكو... ولكن ماذا تجلب لنا هذه النظرة الجديدة إلى شارل دي فوكو، لكي تبرّر وضع كتاب إضافي عن رجل كُتب عنه الكثير ؟ فالجديد في هذا الشأن ناتج عن احتكاك بحياة شارل دي فوكو وبكتاباته. ولكني اريد ان اقتصر على أزمنة معيَّنة من هذه الحياة. وان اضع الظروف في تفاصيل الأحداث مع احترام تسلسلها الزمني، لكي نقف على الدوافع الحقيقية. ولقد اقتضى الأمر مني ان اقاوم تجربة الذين كانوا يودّون ان اقدّم لهم نظرة شاملة وكانوا يريدون ان يطّلعوا حالاً على نهاية المطاف. الا ان هذا البحث كان يقود بالعكس، بسبل لا تُطرق كثيرًا، في غابة قد نتعرض فيها للضياع، ولكن حيث نكتشف ايضًا زوايا خفية مدهشة !

ان هذا البحث يلقى اليوم اهتمامًا، وكان الناس يتمنّونه منذ سنة ١٩٢١، بعد قراءة كتاب رينيه بازان. وقد عبَّر احد الصحفيين عن ذلك بقوله :

" بودّي ان اعرف كيف قادت النعمة هذه النفس. يعرضون لي نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، ولكنهم لا يقولون لي ابدًا ما جرى في الطريق. ولكان هذا الأمر من الأهمية بمكان ! لذا يجب ان يُعاد النظر في قصة حياة الأب دي فوكو. علينا ان نفتّش بكل جرأة، في مطاوي هذه النفس ولكن بأمل الوصول إلى غلّة عجيبة ! "[1]

وهناك معاصر لاحظ جيدا ناسك تامنراست، وهو الدكتور دوتفيل، الذي

---

(١) ورد في الطبعة الثانية من كتاب رينيه بازان، شارل دي فوكو مستكشف في مراكش، ناسك الصحراء، باريس ١٩٥٩، ص٧ (بازان).

عاش ستة اشهر في تامنراست في صحبة شارل دي فوكو الحميمة، وقد كتب بهذا المعنى أيضًا :

" رأيتهُ وعرفتهُ انسانيًا جدًا ومهتمًا بالأحداث الأرضية اكثر مما قاله السيد بازان في كتابهِ، حيث يجعله قديسًا مهيأً للتطويب "[٢].

وبعد مرور نصف قرن، في حين كانت هالة من التقدير والاحترام تحيط بهذا الشخص (غير المطوَّب) وتقدمه مثل انموذج يُقتدى به، يبدو الأمر غير ملائم للاحترام، ان ننبش مطاوي هذه النفس، ليس في كتاباته الروحية فحسب، بل في تفاصيل حياته، وان ننظر عن كثب إلى تصرفات شخص عظيم وإلى بعض جوانبها الصغيرة...

لكن هذا البحث، الذي اقوم به بدون اي ادّعاء، كان يتيحُ لي بالعكس ان أكتشف في كل مرحلة بُعدًا جديدًا من الانسانية ومن القداسة. وهذا القرب الطويل كان ينضمُّ إلى الخبرة القصيرة التي قام بها الدكتور " هيريسّون " الذي كان قد كتبَ إلى رينيه بازان في خاتمة ذكرياته : " كان الأب دي فوكو، على النقيض مما يُقال عن الاشخاص الشهيرين، يكبر بدون مقياس، حينما كان المرءُ يراه كل الايام وعن قرب "[٣].

في هذا الكتاب، اقتصرنا على ذكر اوقات من هذه الحياة، دون ان نخفي التطورات والتغييرات في التوجّه. ان هذه التغييرات تتأصل دومًا في " حركة داخلية " او " اندفاع عميق " يثير " رغبة شديدة " تصبح " واجبًا ". وهذه الكلمات التي سنجدها في كتابات شارل دي فوكو، وبتواتر اكثر في بطاقات

---

(٢) جورج غوري، الصداقات الصحراوية للأب دي فوكو، باريس ١٩٤٦ جـ١، ص٢٧٢ (غوري).
(٣) بازان، طـ١ باريس ١٩٢١، ص٣٨٧.

الأب هوفلان الذي منه كان يطلب النصائح والتوجيهات. وهي تدعونا إلى اكتشاف ما يشرح مسيرته وما يكّون وحدتها، من خلال الاختبارات العديدة، حتى وصوله إلى تامنراست. وهذه " القوة التي تدفعه " تبقى سرية. فهي ليست قوة ارادة خارقة فحسب، ولذلك فهي لا تفتأ تطرح اسئلة على الذين يهمهم هذه الشخصية الجذابة جدًا التي تحبط البعض وتسحر الآخرين.

(أحداث حياة شارل دي فوكو)

١٨٥٨	ستراسبورغ	ميلاده في ١٥ ايلول	
١٨٥٩	فيسنبورغ		
١٨٦٠	=		
١٨٦١	=	ميلاد اخته ماري	
١٨٦٢	=		
١٨٦٣	ستراسبورغ		
١٨٦٤	=	وفاة والديه	٦ سنوات
١٨٦٥	=		
١٨٦٦	=		
١٨٦٧	=		
١٨٦٨	=		
١٨٦٩	=		
١٨٧٠	سويسرة	الحرب	١٢ سنة
١٨٧١	نانسي		
١٨٧٢	=	التناول الأول	١٤ سنة
١٨٧٣			
١٨٧٤	نانسي		
١٨٧٥	باريس	كلية القديسة جنفياف	
١٨٧٦	باريس – نانسي	الطرد من المدرسة في آذار (الاستعداد لمدرسة سان سير)	
١٨٧٧	سان – سير		
١٨٧٨	=	وفاة جده في ٣ شباط	

١٨٧٩	سومور		
١٨٨٠	بونت موسون / بون		
١٨٨١	سيتيف - افيان / مسكرا		
١٨٨٢	الجزائر	الاستقالة من الجيش	
١٨٨٣	مراكش	رحلة استكشاف في مراكش (حزيـــران ٨٣ - آيار ٨٤)	٢٥ سنة
١٨٨٤	الجزائر		
١٨٨٥	الجزائر- الصحراء	مشروع زواج	
١٨٨٦	باريس	الاهتداء في نهاية تشرين ١	٢٨ سنة
١٨٨٧	باريس		
١٨٨٨	الأرض المقدسة	حجّ	
١٨٨٩	=		
١٨٩٠	سيدة الثلوج	(أقبس) الذهاب إلى دير السكوتيين	٣٢ سنة
١٨٩١	أقبس		
١٨٩٢	=		
١٨٩٣	=		
١٨٩٤	=		
١٨٩٥	=		
١٨٩٦	أقبس - الجزائر - روما	يترك دير السكوتيين	
١٨٩٧	الناصرة	ناسك في الناصرة	
١٨٩٨	=		
١٨٩٩	=		

١٩٠٠	الناصرة / سيدة الثلوج	الاستعداد للكهنوت	
١٩٠١	سيدة الثلوج / الجزائر	العودة إلى الجزائر	٤٣ سنة
١٩٠٢	بني عباس		
١٩٠٣	=		
١٩٠٤	رحلة إلى الجنوب		
١٩٠٥	بني عباس – هجار / تامنراست	الاستقرار في تامنراست في آب	
١٩٠٦	تامنراست/ سفر إلى الجزائر	الذهاب إلى الجزائر والعودة عن طريق بني عباس	
١٩٠٧	عين صلاح / ادرار / تامنراست	جولة في الجنوب	
١٩٠٨	تامنراست	المـــرض	٥٠ سنة
١٩٠٩	=	(أول سفر إلى فرنسا – ٥ أشهر)	
١٩١٠	=		
١٩١١	الاسكرم	(الســـفر الثاني إلـــى فرنســـا – ٥ أشهر)	
١٩١٢	=		
١٩١٣	=	(الســـفر الثالـــث إلى فرنســـا – ٧ أشهر)	
١٩١٤	=	الحـــرب	
١٩١٥	=	بناية المعقل (château)	
١٩١٦	=	الوفاة في ١ كانون الاول	٥٨ سنة

- ١ -

زمن الطفولة المبارك

كانت السنوات الخمس عشرة الاولى من حياته، كما يراها شارل دي فوكو نفسه، تمضي في حـــضن عائلة مؤمنة وملتزمة. ويُنظر إلى هذه الفترة عامةً مثل فترة طفولة تعسة. إلا ان هذه ليست الذكرى التي احتفظ بها، بل كانت له فترة سعادة. ولكنه لم يكد ان يبلغ الخامسة من سنه حتى انقـــضّ الموت على والديه خلال اشـــهر قليلة : فتوفيت والدته اولاً، ثم والده الذي لم يعرفـــه في الواقع، لأن المرض كان قد اضطره إلى العيش بعيدًا عن أسرته. واذا لا يتكلم شارل عنه إلا قليلاً، فانه بالعكس يحتفظ بصورة حيّة عن والدته التي يعتبرها قديسة. ويحـــتفظ بـــذكرى خاصة عن جده، الكولونيل دي مورليه، الذي اخذه عنده مع اخته الصغيرة ماري. ولكي نتأكد من ذلك، سنقرأ في موضع لاحـــق ما كتبه لدى موت هذا الجد. وبدون هذه التربية التي اعتبرها البعض تربـــية متراخية، هل كان شارل سيصبح هذا الانسان الحـــر الذي انتزع إعجاب جيل برمته ؟

ولقد طُبعت طفولته ايضًا بحرب سنة ١٨٧٠. وشأن العديد من الفرنسيين، ولا سيما الذين كانوا يسكنون منطقتي الالزاس واللورين، كانت الفترة متســـمة بالترحيل والنفي. واضطرت العائلة إلى مغادرة ستراسبـــورغ واللجوء مدةً إلى غربي فرنسا، ثم إلى سويسرة. وكان شارل إذ ذاك في الثانية عشرة من سنه. وتُظهر الرسائل التي وجهها في هذه الفترة إلى أحد ابـــناء عمه ما كان يمثّله هذا وقت الحرب والانسحاق لطفل مثله. وتجدر الاشارة إلى هذا الحدث، وإن لم يكن من الأهمية الاولى لحياته التي ستنتهي خلال حرب أخرى.

١- زمن الطفولة المبارك .....

وبين الأيام السعيدة، لنذكر ايضًا يوم الاحتفال بعيد الميلاد التاسع عشر لابنة عمته العزيزة. وكان هو إذ ذاك في الحادية عشرة من سنه. وهو من الآن يعتبرها أمينة سره ومثل ام ثانية له. فهو واخته يذهبان لقضاء عطلتهما في مقاطعة نورماندیا بالقرب من عائلة " مواتسيية " حيث يلتقي ماري وكاترين ابنتي عمته، وفي هذا العمر ابتدأت المراسلة بين شارل وماري.

ونحتفظ من هذه الفترة ايضًا، كما يفعل هو ذاته، بذكرى تناوله الأول. وبهذه المناسبة تأتي ابنة عمته، ماري مواتسييه، من باريس إلى نانسي لحضور هذا الاحتفال، وتقدّم له هدية هي كتاب بوسويت الذي عنوانه " التأملات في الأسرار ". انها تأملات في الانجيل، وفي القطع الصغير الشبيه بكتاب القداس، وكان يُقدَّم للمتناولين الأولين.

ولن يكون هذا الكتاب بغير تأثير في بقية حياة شارل.

وبعد ذلك، سيقول إنه فقد الايمان وهو في الخامسة عشرة من سنه، وينسب هذا الأمر المؤسف إلى قراءاته في ذلك الوقت وإلى قلة تثقيفه الفلسفي. ويمكننا ان نشير هنا إلى ان زواج ماري مواتسييه من اوليفيه دي بوندي قد جرى في هذا الزمان. فتلك التي كان يعتبرها أقرب شخص اليه تزوجت، وبذلك انفصلت عنه نوعًا ما. ولكنه لم يشر ابدًا إلى ما اعتبره البعض غالبًا بمثابة تحطيم لقلبه.

شارل مع والدته وهو بعمر ٣ سنوات

شارل بعمر ٥ سنوات

والد شارل دي فوكو

جد شارل دي فوكو (والد امه)

شارل في سن العشرين

شارل في سن الخامسة والعشرين

شارل في سن الثانية والثلاثين

الأب هوفلان (مرشد الأب شارل)

مصلى بني عباس

الصريفة التي كان يسكنها شارل في الناصرة (١٨٩٧-١٩٠٠)

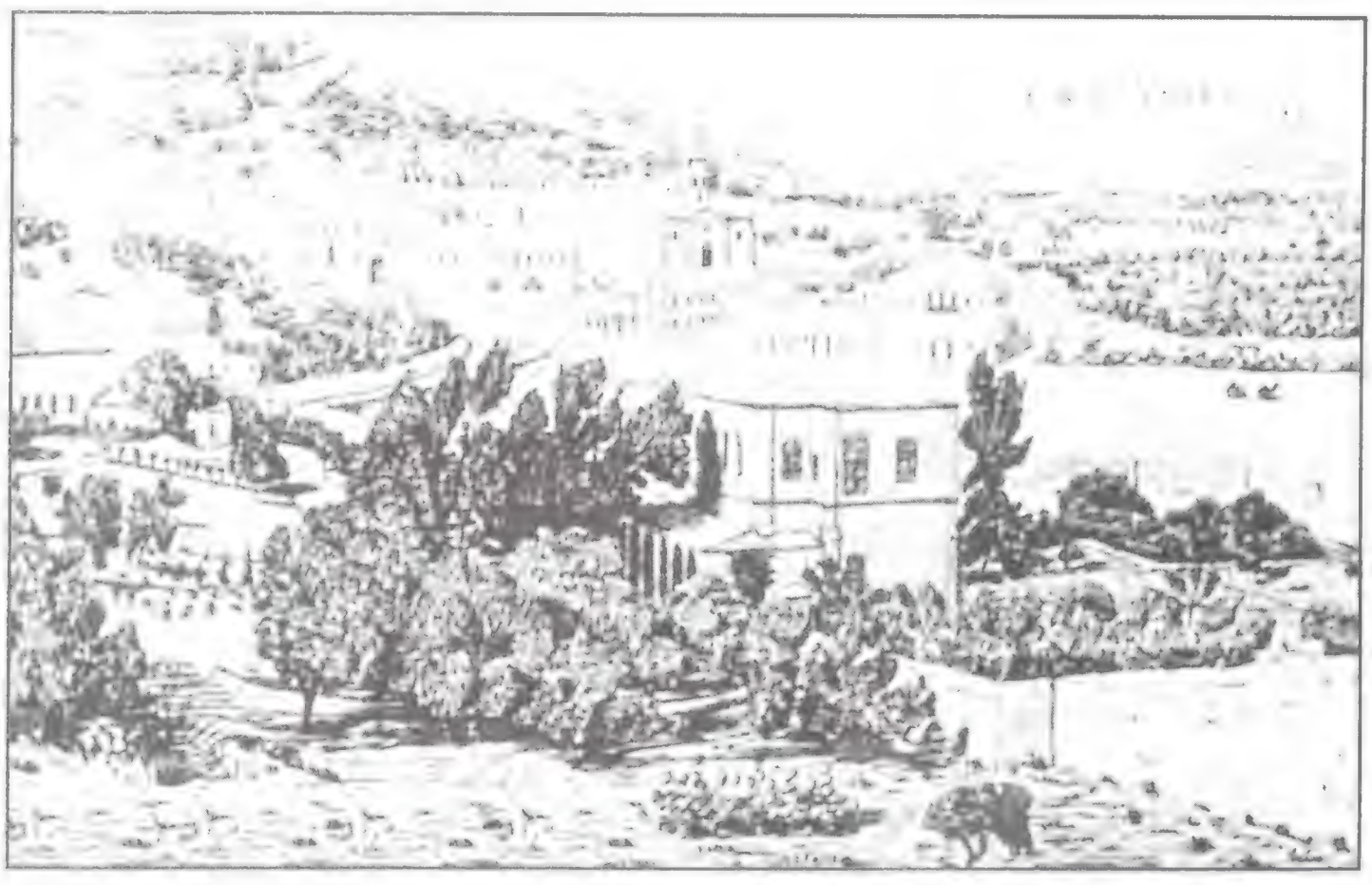

الناصرة حسب رسم شارل دي فوكو سنة ١٩٠٠

أمام أخوّة بني عباس سنة ١٩٠٣

البناء الداخلي لبرج الأب دي فوكو في تامنراست حيث قُتل سنة ١٩١٦

- ٢ -

شباب طائش

ان الفترة الثانية من حياة شـــارل، وهي فترة عدم الايمان، تمتد إلى ثلاث عشرة سنة. وهو يصفها مثل " انحدار نحـــو الموت ". فقـــد ترك الممارســـة وجميع الالتزامات الدينية. تخلّى عن الصلاة، واصبحت حياته بـــلا معنى. فما الذي يبحث عنه ؛ وسيتحقق بعد ذلك انه كان إذ ذاك على منحدر يؤدي بـــه إلى الموت ويغرقه في لجج الشر. فهو يقول : " ان حياتي شـــرعت تصبـــح موتًا "[1]. وحنان جدّه وحدَه كان يمنعه من السقـــوط في الدركات الأخيرة. انه وقت الاستعداد للمدارس الكبيرة في باريس، عند اليســـوعيين. ولكنه طُرد منها لأجل قلّة اجتهاده ولسوء سلوكه.

في هذه الفترة، تتّسم مسيرته بقطيعة حقيقية. فقـــد توفي جده في ٣ شبـــاط ١٨٧٨ بينما كان هو في نحو العشرين من سنه، وفي السنة الثانية من مدرسة الضباط في ســـان - ســـير. وسيتحـــدث دومًا عن الألم العميق الذي ما يزال شديدًا حتى بعد ١٤ سنة من ذلك. وكان ألمًا أشدَّ وقعًا من ذلك الذي شعر بهِ لدى موت والديه. ومن الآن اصبحت لذة الحياة وسعادتها والافراح العائلية من الماضي. وتطلعنا الرسائل التي كتبها إلى غبريال تورد، صديقـــه من الطفولة، والذي سيراسله حتـــى موته، على الكثيـــر من المعلومات عن شبابـــه. فيكتب شارل إلى هذا الصديق في ٥ شباط ١٨٧٨، اي بعد وفاة جده بقليل :

" استطيع ان اكلمك بدون تفكير. فاننا معًا نقدر ان نقول كل ما يجول في

---

(١) شارل دي فوكو، الموضع الأخير، باريس ١٩٧٤، ص١٠١.

٢- شباب طائش .....

خاطرنا : وما اطيب الأمر ! وبـــالاضافة إلى ذلك، فاني حـــينما اكتب اليك، تذكّرني بفترة من حـــياتي مضت الآن ولكنها خلَّفت فيَّ ذكرًا عذبًا جدًا : هذه الحيـــاة الهادئة العائلية والداخلية، هـــذه الاوقات الطيبـــة التي أمضيناها معـــاً، وقراءاتنا الاولى، والسعادة والهدوء اللذين كانا يحيطان بي بالقـــرب من جدي. هذا كله يخطر ببالي حينما أكاتبك، ولهذه الذكريات عندي عذوبـــة لا متناهية. أجدني في ذلك الوقت الذي فيه كنا نبدأ بالتفكير وبأن نصبـــح رجالاً، إذ كنتُ أتنزّه معك في المزرعة في الربيع ونحن نتجاذب اطراف الحديث ونقرأ. لقـــد كنا سعداء وهادئين ومطمئنين إلى حدّ كبير. وكنا واثقين من المستقبل إلى حد كبير. ولكنك انت ما تزال سعيدًا، فتتنزه في المزرعة عند صفاء الجو. ولكن الأمر ليس كما كان : فأنت لا تذهب اليها وحدَك معي في الســـاعات الهادئة في الممرات المنعزلـــة. انك تذهـــب اليها مع فرق من الرفاق والنســـاء، وفي الممرات الكبيرة، وفي ســـاعات الموسيقى، وسط الضجة والبهجـــة. انت ايضًا دخلتَ في فترة جديدة من حياتك : وأعدك بأنك انت الخاسر إلا ان لك سعادة واحدة : حينما تملُّ من العبث، ستجد ذاتك، مثل السابـــق، في وســـط عائلتك، وسيتسنى لك ان تحيا مثل السابق سعيدًا وهادئًا مع اقاربـــك وكتبـــك. اما انا فالأمر يختلف عندي : إذ يُنتزَع مني بدفعة واحدة عائلتي وبيتي وهدوئي وهذه الطمأنينة التي كانت لذيذة إلى الغاية. ولن أجد هذا كله إلى الأبد. إلى الابد لن اكون سعيدًا وهادئًا مثلما كنتُ في نانسي، في هذا الوقـــت اللذيذ الذي كنا فيه معًا. ليس لي سوى تعزية واحدة. اني منذ ذلك الوقت فهمتُ سعادتي واستفدتُ منها. حاول ان تفعل كذلك "[٢].

وهناك رسالة اخرى غير مؤرخة وسابقـــة لموت جده، وهي تطلعنا على ما كانت عليه في ذلك الوقت مشاعر شاب في العشرين من سنه :

---

(٢) شارل دي فوكو، رسائل إلى صديق في الثانوية، باريس ١٩٨٢، ص٧٢-٧٣.

" آه لو تسنى لي ان يكون لي عشر سنوات اكثر : لما كنتُ بالأحرى في الخدمة من بعد، ولبدأت حياة ولد كبير، فأعيش في الريف في منزل صغير. انه لمن اللذيذ ان يكون الانسان حرًا وهادئًا. ولكنه لأمر صعب ان يكون الانسان وحدَه. ومع ذلك فان مصيري هكذا، حتمًا. وخلال هذا الوقت، ستكون انت سعيدًا وهادئًا في عائلتك. اما انا فلست هكذا، ومن المحتمل ألا اكون هكذا قط. ولكن، من يعلم ؟ ربما سيكون لي اوقات لذيذة : ومهما يكن من امر، احسب انه لن تكون لي اوقات ألذّ من تلك التي سأُمضيها بقربك "[٣].

ان هذه الجملة الأخيرة تردّد نبرة العديد من الرسائل الموجهة إلى غبريال تورد، وهي تكشف عن غريزة التملّك، ونوع من المطلق في الصداقة. فهو يريده كله له طوال عطلته، ويضع منهاجًا مسبقًا لما سيقومان به كل يوم. انه من الآن المنظِم الذي سنجده طوال حياته. كل شيء، وحالاً، وكل حين !

ان هذه الرسائل قوية جدًا لتطلعنا على " حالة الضجر " التي يعيشها. وكل ما سيفعله يهدف إلى طرد هذا الضجر، وإلى التلهية والاستئناس. وفي اول وهلة، يسعنا ان نصف هذه الفترة بكلمتين مألوفتين لا تخلوان من معنى : " الطعام " و" الكتاب ". اما الكتاب، فلن يتوقف الأمر على محتواه فحسب، فقد قرأ وسيقرأ الكثير، بل على الحاوي ايضًا، على التجليد. فهو يجد نفسه مع آلاف الكتب التي ورثها عن جدّه، وعليه ان يرتّبها. ونلاحظ من الآن تعلّقه بالكتب، وكذلك بكل ما يمكن امتلاكه. لنتوقف قليلاً عند مشترياته، فقد تظهر من الآن علاقته بالمال. فهو يظن ان عليه ان يشتري ما ليس عند الآخرين حتى الآن، وما لم يلبسه أحد. ولقد وُجدت فاتورات بائعي الأحذية والخياطين ...الخ، انها ذات مغزى كبير !

---

(٣) الموضع عينه، ص٧٠-٧١.

٢- شباب طائش .....

" كل خير، وكل شعور حسن. وكل مظهر حسن، تبدو وكأنها قد اختفت تمامًا من نفسي، ولم يبق سوى الانانية، والشبق، والكبرياء وما يرافقها من الرذائل. [...] ان المحبة لعائلتي كانت ما تزال شديدة جدًا وقوية جدًا، وإن بدأت بالانحدار : انها كانت فناري ونوري الأخير في وسط هذه الظلمة الدامسة [...]، إلا ان هذا النور ايضًا بدأ يتضاءل كثيرًا. ومن ثمة فأنا في الليل، ولم يبقَ لي شيء، لا اعود ارى الله ولا البشر. لم يبقَ سواي، وانا يعني الأنانية المطلقة في الظلام والحمأة [...]. فالناس الدنيويون، واصدقائي، لم يكونوا يولوني اعتباراً : كنت لهم موضع الضجر بل موضع الاشمئزاز. كنت خنزيرًا اكثر مني انسانًا. هوذا، يا إلهي، الوحل الذي كنتُ أتمرّغ فيه "(٤).

في نهاية التدريب العسكري في سان - سير، دخل شارل مدرسة الفروسية في سومور. ومع كونه لا يشتغل، فإنه سيُفلح بالرغم من كل شيء في التخرج من هذه المدرسة برتبته، ولكنه الاخير في صفه. وعندما نقرأ ما كتبه إلى غبريال تورد، يبدو ان التمرّن على ركوب الخيل يكفي لملء أيامه، في حين كانوا يعتبرونه فارسًا رديئًا. وقد يكون سبب ذلك سمنته المفرطة (ولدى وصوله إلى سان - سير لم يجدوا بزّة تناسب قامته). وفي سبيل إبعاد العزلة والضجر عن نفسه، شرع ينظّم حفلات ويصرف المال بسخاء كبير، لأن في حوزته ثروة طائلة ورثها عن جدّه، ولكنه أخذ يسيء التصرف بهذه الاموال.

ولدى تخرجه من الفروسية، عُين في الفصيل الرابع من الخيالة، في ثكنة في بلدة " بونت -أ- موسون ". وهناك اخذ يعيش حياة البهجة واللهو، وقد وجد هناك رفاقا يشاطرونه طيشه.

إلا ان حياة اللهو هذه لم تفلح سوى في اثارة فراغ مؤلم :

---

(٤) الموضع الاخير، ص٩٣-٩٤.

" انه حزن لم يشعر بهِ إلا في ذلك الحـــين... وكان يعاودني كل مســـاء حينما أجد ذاتي وحيدًا في مسكني... وكـــان يجعلني اخـــرس ومرهقًا خـــلال ما نسميه بالأعياد، انا الذي كنت انظّم هذه الأعياد، ولكني، حينما تجري، كنت أمضيها في نوع لا حدَّ له من الخَرس والاشمئزاز والضجر... [...] واني لم اشعر قط بمثل هذا الحزن وعدم الارتياح والقلق، إلا في ذلك الوقت "[٥].

هل هو الفراغ الذي يزداد عمقًا حقًا ويمكنه ان يُهيئ شيئًا آخر ؟ وهل كان في وسع حب حقيقي ان يشبعه وان يضع حدًا لعزلة القلب هذه ؟ هناك أمرأة نجهل عنها كل شـــيء لعبت دورًا في حياته طوال بضعـــة اشهر، انما نعرفها باســـم (ميمي)، ومعاشـــرتها تعرّضهُ للعقوبـــات. ويظن الناس ان كل شـــيء سيترتب، بما ان فرقتـــه يجب ان تذهـــب إلى الجزائر. ولكن عنـــد الانطلاق، حينما لاحظ الرؤســـاء كمية الامتعة التي ترافق الضابـــط دي فوكو، أصدروا الاوامر بانزال عقوبات فورية به اذا رافقته تلك المرأة. وهكذا، فبـــعد وصوله إلى " بون " بوقت وجيز، وجدَ نفسه عرضة للعقوبات. وتفاقمت العقوبة، حتى انه من تشرين الثاني سنة ١٨٨٠ حتى كانون الثاني سنة ١٨٨١، أمضى معظم وقته في السجن. ولدى خروجه من السجن، ذهبت ســـرّيته إلى " ســـيتيف "، وهناك أصدر اليه ضابطه الأمر بالانفصال عن تلك المرأة. ولكنه احتجَّ بقـــوله ان خدمته لا تُعاق بشيء، وان الأمر يتعلق بحـــياته الخاصة. وجاءَت عقوبـــة اخرى أُعلِمَ بها المعني في ٢٥ آذار : لقد مُنع من النشاط بتجريده من وظيفته بسبب " عدم الانضباط بالاضافة إلى سوء سلوك خطير ".

---

(٥) الموضع نفسه، ص١٠١.

-٣-

لـــذّة العمـــل

حينئذ ذهب شـــارل مع ميمي إلى " إفيان ". ولكنـــه، ما إن اســـتقر هناك اسبوعًا او اسبوعين، حتى تلقى رســـالة من " سيتيف " ستغيّر مجرى حياته. وهو سيوجز قصته لغبريال تورد، في رسالة كتبها اليه في ٢ تشـــرين الأول ١٨٨١، جاءَ فيها :

" كان عليَّ ان ازيدك اطلاعًا على جميع تجوّلاتي. كما تعلم، لقـــد تركت الفرقة الرابعة في شهر نيسان (قضية امرأة). وانا الذي كنتُ قد سببـــتُ منعي من النشاط. وكانت " سيتيف " ثكنة رديئة، تسبب لي الضجر. لذا فقـــد عدت بفرح كبير إلى فرنسا، واخذت الاحتياطات لكي اظل اطول مدة ممكنة في هذه الحالة الطيبة. ولهذا الغرض سكنتُ بالقرب من إفيان، هذا البلد المدهش الذي تعرفه. وما كدت ان اتذوّق لذة هذه السكنى، حتى جاءَتني رسالة من ســـيتيف تعلمني أن قسمًا من ســـريتي كانت على وشـــك الذهاب إلى تونس. وبالطبـــع طلبتُ الالتحاق بها. فان حملة من هذا النوع لذة نادرة جدًا، لا ينبـــغي تركها تعبر بدون التلذّذ بها "[1].

وعلى الفور كتب يطلب تجديد انخراطه في الجيش، ولو بغير رتبة، وبأي شروط كانت، ويعد بألا يعود ويرى هذه المرأة من جديد. ويمكننا ان نقول انه مستعد لكل شيء ويرضى بكل شيء، على ان يرسلوه إلى حيث الحركة، لأنه

---

(١) رسائل، ص١١٦.

٣- لذّة العمل .....

لا يريد الحياة في ثكنة. وهذه اللذة النادرة انما هي رد فعل الابيقــوري. وفي الاشهر التالية كان كتابه المفضل هو " اريستوفان ".

وربما كانت دوافعه اكثر تعقيدًا مما يقوله. ولكن هل يسعنا ان نجد سببًا أعمق من ذلك الذي يعطيه هو نفســه ؟ ولم يتردد مؤرخو حــياته في تخيّل اسباب اخرى اكثر وجاهة ونبلا. فافترضوا كل شيء، الملل والضجر، الاحباط او عدم اشباع الحب، الحسرة، الحنين إلى حياة أفضل ؛ طفرة فروسية، الحس الوطني، الاندفاع الاستعماري، الوعي العسكري او التضامن مع رفاقه، الشعور بالشــرف... إلى غير ذلك من الافتراضات. ولم يفكر احــد في اللذّة. وهكذا انتهى ما دعاه بكلمتين " قضية امرأة " !

وإذ لم يتسنَّ له الالتحاق بوحدته من جراء العقوبات التي أُنزلت بهِ، أُرسل إلى الفرقة الرابعة صياد افريقيا (وليس كما نقرأ غالبًا إلى الفرقة الرابــعة من الفرسان التي تكون قــد غيَّرت اســمها). فابحــر إلى وهران، ثم وصل إلى مسكرا، وانضمَّ إلى الحملة ضد ثورة الشــيخ " ابــو عمامة ". انه الآن رجل يختلف كل الاختلاف عن ذاك الذي كان في سان - سير، وفي سومور، وفي بونت -أ- موسون او في سيتيف. ولكن من الصعب ان نرى بالضبط ما هو عليه الآن، حسب ذكريات الذين كتبوا عنه في وقت متأخر من الذين عرفوه في هذه الفترة، او الذين، مثل لابرين (Laperrine)، ســمعوا الحــديث عنه. وكان " فيتس - جيمس " (Fitz-James) قد التقاه قبل ذلك بقليل، بعد اجتيازه بمنطقة وهران الجنوبية. وهو يكتب بعد ذلك بوقت طويل :

" سرعان ما لوحظ واصبح محبــوبًا في فرقــته الجديدة، واظهر دي فوكو جلدا كبيرا أزاء الأتعاب والحرمان، مثلما كان تجــاه اللذّة. فمزاجه جيــد كل حين، وهو يحتمل ببشاشة الجوع وبخاصة العطش. وما كان اطيبه لفرســانه !

فهو لا يفكر الا في تحسين حالهم ويقاسمهم كل شيء. كان الماء مقــنّناً، وهو يترك لهم حصته من الماء. وكان يعطي دومًا مثل الإقدام والشــجاعة والذكاء والقوة "[٢].

ولدينا من " لابرّين " هذه السطور المعروفة :

" في وسط الاخطار والحــياة القاســية التي كانت لدى المســتعمرين الذين يقومون بحملات عسكرية، أظهر هذا الرجل المثقف والمعتاد على المباهج. انه جندي ورئيس، فكان يحتمل ببشاشة أصعب المحــن، ويبــذل ذاته دومًا، ويهتم اهتمامًا كبيرًا برجاله. فلم يبقَ من دي فوكو الذي كان في سومور وفي مونت -أ- موسون سوى طبعة لكتاب اريستوفان الذي لم يكن يفارقه. وبقية قليلة من التعاظم الذي هداه إلى ترك التدخين في اليوم الذي تعذّر عليه الحــصول على السيكار من النوع الذي كــان يفضّــله... وكــان العــرب قد اثروا فيه تأثيرًا عميقًا "[٣].

ان القليل الذي رويناه عن هذه الاوقات القصيرة من حياته يؤشــر مع ذلك إلى اهمية القرار الذي اتّخذه في إيفيان وقاده هذا القرار إلى تغيير في الحــياة لحملة حربية. هل هي اللؤلؤة النادرة التي في سبيلها يترك كل ما بــدأ يكوّن سعادته ؟

وحينما تواصل قراءة رسالته التي كتبها في ٢ تشرين الاول إلى غبــريال تورد، نطّلع على ما يكوّن سعادته في ذلك الوقت :

" لقد وضعوني في افريقيا، حسب طلبي، ولكن ليس تمامًا في الفصيل الذي

---

(٢) بول نورد : شخصية الأب دي فوكو الحقة، باريس ١٩٣٣، ص٦٢.

(٣) مجلة الفروسية، تشرين الأول ١٩١٣، العدد ٨ ص١٤٣.

٣- لذّة العمل .....

كنت أريده : وعوض فصيلـــي، كنت أودّ في الأقـــل ان اعـــود إلى منطقـــة قسنطينة. وفي نهاية الأمر، اني لم أفقد شـــيئًا في مجيئي إلى ههنا، لأني منذ ثلاثة اشهر ونصف الشهر من وجودي في الفرقة الرابعة من صيادي افريقيا، لم أَنم ليلتين في منـــزل. فأنا من ســـريّة تعمل في الهضاب العالية، جنوبـــي صعيدا (Saida). إنه لأمـــر مؤنـــس، فالحيـــاة في المخيَّم تعجبني بقـــدر مـــا تضجرني الحياة في الثكنة. وهذا ليس بالامر القليل. آمل ان تطول مدة السرية كثيرًا، وحينما تكون قد انتهت، سأحاول الذهاب إلى موضع آخر حـــيث توجد الحـــركة. واذا لم اتمكن من ذلك، فلا أدري ماذا ســـأفعل. ولكني مهما كلف الأمر لا اريد من بعد ان امضي الحياة في ثكنة "[٤].

وانتهت الحملة ســـريعًا، في نحـــو ٢٠ كانون الثاني ١٨٨٢، وكانت فكرة عودته إلى الثكنة في مسكرا لا تُطاق. فطلب الذهاب إلى موضع آخر، واخيرًا قدّم استقالته من الجيش. فانتهت خبرته العسكرية في الجزائر، وقد دامت أقـــل من ١٨ شهرًا. وقد شرحَ أسباب استقالته في رسالة وجّهها إلى صديقه غبريال تورد في ١٨ شباط ١٨٨٢ :

" إني اكره الحياة في الثكنة، وأجد ان هذه المهنة مزعجة في وقت السلام، وهي حالتنا الاعتيادية [...]. لذا كنت عازمًا منذ وقت طويل على ترك الخدمة العسكرية يومًا ما. ومع هذه الاستعدادات فضَّلت الذهاب حـــالاً. فما الفائدة من ان امضي بضع سنوات اخرى، دون اي هدف، حـــياةً لا اجد فيها اي فائدة. افضل كثيرًا ان استفيد من شبابي بالسفر. فبهذه الطريق، في الاقل سأتعلم ولن أضيع وقتي "[٥].

---

(٤) رسائل، ص١١٦-١١٧.

(٥) الموضوع نفسه، ص١١٨.

لنشر ههنا إلى كلمة " حالاً " التي وردت في هذه الرسالة.

وتظهر دوافع اخرى : الرغبة في السفر وفي عدم إضاعة الوقت. وبعد عشر سنين، فى الرسالة التي كتبها في ٢١ شباط سنة ١٨٩٢ إلى صديقه هنري دوفرييه، يوجز لنا ما جرى في هذه الفترة :

" أمضيتُ سبعة اشهر، او ثمانية تحت الخيمة في الصحراء الوهرانية، وهذا أولاني ذوقًا شديدًا جدًا للأسفار التي كنت منجذبًا اليها دومًا. فقدَّمتُ استقالتي سنة ١٨٨٢ لكي ألبّي بحرية هذه الرغبة في المغامرات ".

فنلاحظ ان مفردات اللذّة والتنعم أخلت الموضع لكلمة الذوق والرغبة والانجذاب، للتعبير عن الحقيقة نفسها. وهذه الكلمات نفسها سيستخدمها طوال حياته للتحدّث عن دعوته. فلو سُئل في ذلك الوقت من حياته عن سبب تركه الجيش، لتسنى له ان يجيب بما سيقوله عن دير السكوتيين في وقت لاحق :

" تركتُه لأني دخلتُ اليه - للدوافع نفسها - ليس لعدم الثبات، بل للثبات في البحث عن مثل أعلى كنت أرجو وجوده فيه، ولم أجده " (٦).

ان الرسائل التي كتبها إلى غبريال تورد تزودنا ببعض شروح حول مشاريع سفره إلى الشرق، اي من خلال افريقيا الشمالية كلها، والعربية السعودية، وربما إلى اورشليم، إذ انه كان قد نوى الذهاب اليها واللقاء فيها بالدكتور بلتازار، وهو الطبيب الذي التقاه في وهران الجنوبية. ويكشف عن تفاصيل هذا المشروع لغبريال تورد، في رسالته المؤرخة في ١٨ شباط سنة ١٨٨٢ :

" اجتاز الآن إلى الخدمة التي يجب ان تؤديها لي : نفهم انه ليكون من

(٦) شارل دي فوكو، ان أصرخ الانجيل، باريس ١٩٨٢ ص١٤٥.

٣- لذّة العمل .....

المؤسف القيام بمثل هذه الاسفار الجميلة، ولكن بنوع سخيف وكمجرد سائح : اريد القيام بـــها بـــنوع رصين [...] وعليك ان تبحـــث عن جميع الكتب التي ستلزمني لهذا الغرض [...]. وبما اني لا اعرف سواك من هو رصين بحيث يستطيع ان يؤدي لي هذه الخدمة، ومن له من الصداقة بحيث يشـــاء ان يؤدي هذه الخدمة. لذلك فإني اتوجه اليك "[٧].

فهو لا يريد ان يسافر بنوع " سخيف "، بل بنوع مفيد وذكي، لذلك يرسل إلى صديقه بلائحة الكتب التي يترتب عليه ان يجدها له.

وعلى حين غرّة، تغيرت الامور. فلا يدور الكلام من بعد عن هذا الســـفر نحو الشرق، بل عن مشروع يقوده نحو الغرب، اي نحـــو المغرب (مراكش)، اي نحو الغرب الاقصى بالنسبة إلى العالم العربي. انه اول تغيير في التوجيه. ولماذا يرغب في السفر إلى مراكش ؟ هل لان هذه البلاد تبدو له مثل البـــلاد الوحيدة التي لم يتم استكشافها حقا ؟ وهنا نتعرّف إلى رغبته في ان يعمل ما لم يقم بهِ الآخرون او ما لم يستطيعوا القيام بهِ.

انه في الجزائر في شهر حزيران سنة ١٨٨٢. ولدينا آثار ملموسة لإقـــامته في هذه المدينة. ففي المكتبة الوطنية، وُجدت لائحة جميع الكتب التي استعارها ثم أعادَها، ثم عادَ فاستعارها خلال الوقت التي كان فيه يُعدّ رحلته الاستكشافية، مع خيرة شخصيات ذلك العهد : ماك كارني، ومونوار، ودوفيرييه المستكشـــف الكبير الذي سيصبح فيما بعد صديقه الحميم. وكان دوفيرييه قد نشر كتابه عن " الطوارق "، بعد ان قام بالحملة الاولى في منطقة الطوارق.

---

(٧) رسائل إلى صديق في الثانوية، باريس ١٩٨٢، ص١١٩.

وما هو إذ ذاك منهاج عمله ؟ في رسالة وجهها شارل إلى صديقه غبريال تورد في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٨٢ يقول، بعد ان يعتذر عن عدم الكتابة :

" لكنك تعرفني : تعرف اني لا اكتب كثيرًا، ولكني لا انسى اصدقائي بالرغم من ذلك لا سيما انت الذي لست لي صديقًا، بل الصديق. - في هذا الوقت، انا اقل استعدادًا للكتابة من اي وقت اخر. وسبب ذلك هو ان العادة الوحيدة التي احتفظتُ بها من مهنتي القديمة هي عادة جداول العمل. وانت تعرف ما اقول. فما ان عدت الى ههنا، حتى نظَّمتُ واحدًا، ولكني حمَّلته المزيد من المواد. فهو يشير إلى بدءِ العمل في الساعة السابعة صباحًا، وإلى نهايته في منتصف الليل، مع توقفين قصيرين لتناول الطعام، كل منهما نصف ساعة. وكل شيء آخر مقسوم إلى اوقات قصيرة : فللعربية ساعاتها، وكذلك للتاريخ وللجغرافية، ...الخ. أما المراسلة [...] فقد أجّلتها إلى ما بعد منتصف الليل، حين يكون العمل قد انتهى. ولكني حينما اصل إلى تلك الساعات، يستحوذ عليّ النوم [...]، وهذا ما يجعل مراستي تعاني كثيرًا "[٨].

اننا لنتعجب حينما نعلم انه في تامنراست كان يخصّص ١٠ ساعات و٤٥ دقيقة في النهار لاعماله اللغوية. ولكننا حينما نراه في السن الرابعة والعشرين يشتغل كل يوم ١٦ ساعة، يقلّ عجبنا !

لن نُلحَّ على الأهمية التي تمثلها لشارل دي فوكو هذه سنة السفر إلى مراكش. ولكن هل ستكفي هذه المغامرة لكي تملأ الفراغ الذي كان يتعمق في داخله ؟ لقد وجد نوعًا من المِلء في الخطر، وربما اغواه العمل في وسط الاخطار، كما في النجاح. ويبدو لي في كامل قوة مزاجه وشجاعته واستمراره

---

(٨) الموضع نفسه، ص١٢٥.

حتى النهاية. وكان شعار عائلة دي فوكو : " ابـدًا إلى الخلف ! " وفي نهاية كانـون الثاني سـنة ١٨٨٤ كتب إلى اخته التي كانت قلقة عليه وتناشده بأن يعود : " حينما يذهب المرءُ وهو يقول انه سيعمل شـيئًا، عليه الا يعود دون ان يكون قد حققه "[٩]. وسيقول ايضًا لاحدى بنات عمه : " مهما كلف الامر، لا اريد العودة بدون ان اكون قد رأيت ما قلتْ اني سأراه، وبـدون ان اكون حيثما قلت اني سأكون ".

ولدى عودته، قـدَّمه " دوفيريه " إلى " الجمعية الجغرافية " التي وهبـته مدالية ذهبـية. ونسـرد هنا بـعض مقـاطع ذات معنى من تقـديم هذا عمل الاستكشاف :

" لقد حققه على نفقاته الخاصة، بدون مساعدة الحكومة، اذ ضحَّى بمستقبله العسكري، قدَّم تضحية اخرى اعظم، إذ تنكر للسفر بزي يهودي، وسط شعوب تعتبر اليهودي ناقصا ولكنه بدرجة ادنى. وإذ قام بهذا الدور، تخلّى تمامًا عن رخائه، وبدون خيمة ولا سرير ولا امتعة تقريبًا، عملَ طوال احد عشر شهرًا عند شـعوب اكتشـفت مرات عديدة حقيقـته، وتعرَّض مرتين او ثلاثة مرات للعقاب الذي كان يستحقه، أي الموت.

[...] لا نعلم بماذا نندهش اكثر، أبـهذه النتائج الرائعة والمفيدة، ام بالبـذل والشجاعة والتخلّي النسكي، وهي الوسائل التي بها توصل هذا الضابط الشاب إلى تلك النتائج. [...] انه لقد ضحّى باكثر من راحته، وعمل وواصل حـتى النهاية اكثر من نذر الفقر والشقاء (...) "[١٠].

---

(٩) بازان، ص٧٢.

(١٠) تقرير للجمعية الجغرافية في باريس، في الاجتماع العام في ٢٤ نيسان ١٨٨٥.

في فم رجل غير مؤمن يجهل كل شيء عما سيؤول اليه مصير شارل دي فوكو، تأخذ هذه الكلمات قيمة نبوية.

الا ان هذا الاستكشاف لم يملا الفراغ الذي كان يتعمق فيه. انه يستعيد مكانه في حياة البشر، تلك الحياة التي كان قد فقدها، ولاسيما في نظر عائلته. انها المكانة الأولى ! وبحصوله على المدالية الذهبية، اصبح احد اشهر المستكشفين ينال الاعجاب الدولي، وانفتح امامه مجال جديد للعمل. وكان عنوان مقاله الأول " مسيرة إلى مراكش ". ولكنه هل لمح ما ستكون مسيرته الشخصية ؟ ثم نشر كتابه المعنون " استطلاع في مراكش ". ولكن ألم يتعرف إلى شيء آخر يتجاوزه الآن ؟ ويبدو ان هذا " الاستطلاع " جرى في جنوب مراكش، في زاوية " تاسينت ". ان حياة العزلة، وصعوبات المسيرة، والتهديدات بالموت المتكررة، هذه امور ربما لعبت دوراً في حياته. الا ان اللقاء بغير المؤمنين كان له الدور الحاسم. وسيقول عنهم انهم أناس كانوا يعيشون " في حضور الله المستمر "، اناس ارتبط معهم بصداقة. ألم يفتحه هذا كلُّه لبُعد آخر ؟

" ان رؤية هذا الايمان، وهذه النفوس العائشة في حضور الله المستمر جعلَني ألمح شيئًا اعظم وأصدق من الانشغالات العالمية "[١١].

---

(١١) رسالة إلى هنري دي كاستري في ١٩٠١/٧/٨.

– ٤ –

زمـــن الاهتـــداء

لدى عودة شارل دي فوكـــو مـــن مراكـــش، واثناء انشغاله بكتابة مؤلفـــه " استطلاع في مراكش "[1]، قام بأسفار عديدة بين الجزائر وفرنسا. وكان يتردد بصورة منتظمة إلى بيت القـــائد " تيتر " في الجزائر، لغرض رســـم خرائط جغرافية. وهناك تعرف إلى ابنته ماري ماركريت، وبدأت عنده مرحـــلة حـــب جديدة حتى كادت ان تؤدي إلى عقد خطوبـــة بـــينهما. إلا ان عائلته عارضت هذا الزواج معارضة شـــديدة، وكذلك ختنه ريموند دي بـــليك، وهو زوج اخته ماري، وعمته اينيس مواتسييه. أخيرًا تمكنت " ماري دي بوندي " من إقناعه بالعدول عن هذا الزواج. وسيقول بعد ذلك انها " انقذته " من هذا الزواج.

في نهاية تموز سنة ١٨٨٥، بعد هذه القطيعة الصعبة، أصيب شـــارل دي فوكو بمرض. وبعد فترة النقاهة، سافر وحده إلى جنوب الجزائر، لكي يراجع الملاحظات التي استقاها في مراكش. وهذا السفر الطويل، الذي استغرق ثلاثة اشهر ونصف الشهر، قـــاده من " تياري " إلى " أفلو ". ثم إلى " غرداية ". وهناك انضمَّ إلى فصيل من الجيش كان منطلقا بـــمهمة إلى " ألغولية "، وهي واحة بعيدة عن الجزائر اكثر من الف كيلو متر، لكي يؤســـس مركزًا لإطلاق حمام الزاجل. ولم تكن هذه البقعة محتلة احـــتلالا مســـتمرا من قبـــل الجيش الفرنسي. وقبل مغادرته " الغولية "، كتب إلى صديقـــه هنري دوفيرييه الذي كان الفرنسي الاول الذي جاءَ إلى هناك. ثم استأنفَ الفصيل سيره وبلـــغ إلى

---

(١) شارل دي فوكو، استطلاع في مراكش، باريس ١٨٨٨.

" وارقلة "، ومن هناك ذهب الجيش إلى غرداية. اما شـــارل دي فوكو فتوجه شـــرقًا إلى تونس، عبـــورًا بِـــ " تقـــرت " و" الوادي " والجنوب التونســـي. وانتهت هذه الرحلة الطويلة في الصحراء بانتهاء سنة ١٨٨٥[٢] .

وعادَ إلى فرنسا في مطلع سنة ١٨٨٦. وبـــعد زيارة قـــام بـــها لأخته في جنوب فرنسا بالقرب من " غراس "، استقـــر في باريس في الرقـــم ٥٠ من شارع " ميرومنيـــل " غير بعيد عن شـــارع " أنجو " حيث تسـكن عمتـــه وبناتها. وهنـــاك أخذ يعيش حيـــاة صحراوية، فينـــام على الأرض، ويلبـــس " الغندورة " ويســـتمر في العمل لكي ينظّم خرائطه، ويصحّح اخطاء كتابـــه، ويُعدُّ أسفارًا أخرى.

ان قراءَة الرسالة المؤرخة في ٢١ شباط ســـنة ١٨٩٢ التي ارســـلها إلى دوفيرييه تضطرنا إلى النظر إلى جميع الأحـــداث المذكورة في ســـنة ١٨٨٦ بانتباه، لكي نطّلع على أهميتها في مسيرته. وهو نفسه لا يفتأ يعود اليها[٣].

" كنت في ذلك الوضع حينما رجعتُ إلى بـــاريس ســـنة ١٨٨٦. ولم تكن اختي بعد فيها. لقد تزوجت وهي تسكن مدينة " بورغونيا ". ولكني لقيت عند عمتي الاستقبال نفسه وكأني لم اترك المنزل العائلي قط، وكأني لم اسبب قـــط أي همّ للذين يحبـــونني. وفي هذا المنزل الذي اصبـــح منزلي، ولو اني كنتُ اسكن بيتًا آخر، وجدت مثال جميع الفضائل مقـــرونًا بـــرؤية عقـــول ســـامية وقناعات دينية عميقة. وأولعتُ اولاً بالفضيلة ووجهت قراءاتي في هذا الاتجاه، ودرست علماء السلوك الأقدمين، وكنت بعيدًا جدًا عن كل ديانة، انما الفضيلة القديمة وحدَها هي التي كانت تجتذبنـــي... لكني كنت اجـــد هؤلاء الفلاســـفة

---

(٢) لقد وضع مخططًا لهذا السفر الطويل، ونشر في باريس سنة ١٨٨٥.

(٣) في الملحق الفرنسي لهذا الكتاب النص الكامل لهذه الرسالة التي تحتوي على الرواية الاولى لاهتدائه.

القدماء[٤] اقل حرارة وغذاء مما كنتُ أتوقعه... وعن طريق المصادفة قرأتُ بضع صفحات لبوسويت[٥] حيث وجدت اكثر بكثير مما وجدته لدى المسلكيين القدماء... وواصلتُ قراءَة هذا المجلّد، وشيئًا فشيئًا صرتُ اقول لنفسي ان ايمان هذا العقل الكبير، والايمان الذي كنت اراه كل يوم بقربي في هذه العقول الرائعة، في عائلتي نفسها، ربما لم يكن منافيًا للعقل السليم بالمقدار الذي بدا لي إلى ذلك الحين. كان هذا في نهاية سنة ١٨٨٦. إذ ذاك شعرتُ بحاجة عميقة إلى الاختلاء. وكنتُ اتساءل في اعماق نفسي هل الحقيقة معروفة حقًا عند البشر ؟... حينئذ صليتُ هذه الصلاة الغريبة، وطلبتُ إلى الله الذي ما كنتُ اؤمن بهِ بعد ان يُعرّف لي نفسه إن كان موجودًا... وبدا لي ان الاقرب إلى الحكمة كان، بالنظر إلى الشك الذي نشأ فيّ، ان ادرس هذا الايمان الكاثوليكي. كنت اعرفه قليلاً جدًا، فتوجهت لذلك إلى كاهن مثقف كنت اعرفه قليلاً لاني كنت قد رأيته عند عمتي. وهذا الكاهن هو الاب " هوفلان ". وقد اجاب على اسئلتي بطيبة خاطر، واستقبلني بصبر كلما شئت ذلك. فصارت لي قناعة عن حقيقة الديانة الكاثوليكية. ومذ ذاك اصبح الأب هوفلان مثل أب لي، وعشت عيشة مسيحية.

وما إن مضى وقت قصير على هذا التغيير الكبير حتى فكرتُ في الدخول إلى الدير. إلا ان الأب هوفلان، بالاتفاق مع عائلتي، كان يدفعني إلى الزواج... وتركت الوقت يمرّ... ".

في " تأملاته في الاناجيل المقدسة "[٦] التي كتبها في الناصرة واورشليم

---

(٤) في هذا الزمان يعود إلى الفلاسفة القدماء، ولا اثر عنده لقراءات معاصرة.

(٥) انه الكتاب الذي اعطته اياه ماري دي بوندي عند تناوله الاول وهو " تاملات في الاسرار ".

(٦) شارل دي فوكو، الاقتداء بالحبيب، مونروج ١٩٩٧، ص٧٨

٤- زمن الاهتداء .....

بين ايلول ١٨٩٧ وشباط ١٨٩٩، يمكننا ان نقرأ هذا المقطع الذي يتعلق بعودة الابن الضال :

" يا إلهي، ما أطيبك ! ان هذا ما فعلتَه لي ! اجل في شبابي، ذهبتُ بعيدا عنك، وبعيدًا عن بيتك، ...الخ إلى بلاد بعيدة، بلاد الامور الدنيوية، والخلائق، وعدم الايمان واللامبالاة والأهواء الأرضية. ومكثت فيها طويلاً، ثلاث عشرة سنة، مبذّرًا شبابي بالخطيئة والجنون. ونعمتك الاولى، وليست النعمة الاولى في حياتي، لأن النعم عديدة في كل ساعة من وجودي، بل النعمة التي فيها أرى مثل أول فجر لاهتدائي، هي انك جعلتني اشعر بالجوع، بالجوع المادي والروحي. لقد شئت بجودتك اللامتناهية ان تضعني في صعوبات مادية جعلتني اتألم وأريتني اشواكًا في هذه الحياة المجنونة. جعلتني اختبر الجوع[٧] [المادي]، وجعلتني اختبر الجوع الروحي إذ جعلتني اشعر برغبات عميقة في حالة ادبية فضلى، وبأذواق للفضيلة، وباحتياجات إلى الخير الادبي. ثم حينما عدتُ اليك، بخجل كبير، وبتلمسّ، ورفعتُ اليك هذه الصلاة الغريبة : " إن كنتَ موجودًا، اجعلني اعرفك ! "، يا إله الجودة، يا من لم تفتأ تعمل منذ ولادتي فيَّ وحولي لكي توفر لي هذا الوقت، بأي حنان هرعتَ حالاً ووقعت على عنقي لكي تقبّلني، وبأي سرعة أعطيتني قميص البرارة ".

وفي رسالة مؤرخة في ١٤ آب ١٩٠١، سيكتب إلى هنري دي كاستري :

"مكثتُ اثنتي عشرة سنة دون ان أُنكر شيئًا ودون ان أؤمن بشيء، وقد يئست من الحقيقة وما كنت أومن حتى بالله، واي برهان لم يكن يبدو لي واضحًا بكفاية... ".

---

(٧) حينما رأت عائلته كيف كان يبذر ماله، فرضت عليه وصاية قضائية.

ثم يواصل كلامه :

" حـــينما كنتُ في بـــاريس [...] كانت نعمة داخلية قـــوية جدًا تدفعني : فشرعت أتردد إلى الكنيســـة، دون ان أومن، ولم اكن أَجد راحـــتي إلا هناك، فكنت أقضي ســـاعات طويلة في ترداد هذه الصلاة الغريبـــة : " يا إلهي، إذا كنتَ موجودًا، اجعلني اعرفك ".

وفي وسعنا ان نجد هذه العبارة في الاقل ست مرات او سبـــع مرات في رسائل مختلفة. وهذا يشير إلى أهمية هذه الصلاة له. وسيكتب إلى ابـــن عمه لويس دي فوكو، وهو اكبر منه سنًا بقـــليل، وهذا ايضًا غير مؤمن : " أتريد ان تعملها ايضًا ؟ " (٢٨ تشرين الثاني ١٨٩٤). وكان الأمر سينجح بـــما ان ابن عمه استعادَ الايمان حين زواجه. ألم تصبح هذه الصلاة بمثابة طريقة له ؟ فاننا نجد العرض نفســـه في رســـالة إلى صديقـــه غبريـــال تورد الذي فقـــدَ اخته[٨] : " ارفع اليه هذه الصلاة القصيرة نفسها التي انا رفعتها ".

في تأمل المزمور ٣١ سيذكر زمـــن اهتدائه، وهـــو يلحّ، مثلما يفعل فـــي الاستشهادات اللاحقة، على الدور المهم لبعض الأشخاص.

" طوبى لمن غُفرت خطاياه ! " [...] قبل احدى عشرة سنة، في مثل هذا الوقت، هديتَني. قبل احدى عشرة سنة، دون ان ابحـــث عنك، أعدت نفســـي الخاطئة إلى الحظيرة، [...] وفي وسط أي عذوبات اسديتَ اليَّ هـــذه النعمة. لا اقول انه لم يكن في ذلك الزمان شدائد، لأن الألم ضروري لتطهير النفس، ولكنك كم كنت تُشعرني بعذوبة يدك !... وبين أي نفوس كنتَ قد وضعتني ! وإلى أي نفوس سلَّمتني ! وكم كانت عذبة ومحبوبة الكائنات التي اســـتخدمتها

---

(٨) رسائل، ص١٤٩.

لكي تساعدني خارجيًا في عملك ! كم كنت طيبًا ! طيبًا بنوع الهي ! "[٩]

وكتب ايضًا في تأمل ٨ تشرين الثاني ١٨٩٦ ما يأتي :

" يا لها من نعم داخلية ! فان هذه حـــاجة العزلة والاختلاء والقـــراءات التقوية، هذه حـــاجة الذهاب إلى كنائســـك، أنا الذي لم اكن أومن بـــك، وهذا اضطراب النفس، وهذه الغصة، وهـــذا البحث عـــن الحقيقة، وهـــذه الصلاة : " يا إلهي ان كنتَ موجوداً. عرّفني بـــذلك ! " هذا كله كان عملك، يا إلهي، عملك انت وحدَك... وكانت ثمة نفسٌ جميلة تساعدكَ. ولكن بصمتها ووداعتها وجودتها وكمالها... كانت تُرى، وكانت طيّبة وتنشر عطرها الجذاب، ولكنه لم يكن فعّالاً ! انت يا يسوعي، ويا مخلصي، كنت تعمل كل شـــيء، في الداخل والخارج !. لقد جذبتَني إلى الفضيلة بجمال نفس فيها ظهرت لي الفضيلةُ من الجمال بحيث سحرت قلبي بصورة نهائية... لقد جذبـــتَني إلى الفضيلة بطيبـــة هذه النفس ذاتها : لقد صنعتَ لي أربع نعم إذ ذاك : الاولى انك ألهمتني هذه الفكرة : " بما ان هذه النفس على هذا القدر من الذكاء، فان الديانة التي تؤمن بها بهذا الثبـــات لا يمكن ان تكـــون جنونًا مثلما افكـــر ". الثانية كانت انـــك ألهمتني هذه الفكرة الأخرى : " بما ان هذه الديانة ليســـت جنونًا، فربـــما ان الحقيقة التي ليست على الارض في أي ديانة اخرى، ولا في اي نظام فلسفي، هي فيها ". الثالثة كانت ان اقول لنفســـي : " لندرس اذًا هذه الديانة، ولنتخذ معلمًا للديانة الكاثوليكية، كاهنًا مثقفًا، ولنرَ ما شـــأنها وهل يجب الايمان بـــما تقوله ". الرابـــعة كانت النعمة التي لا تُضاهى وهي ان اراجع الاب هوفلان لدروس الديانة هذه... اذ ادخلني إلى منبر اعترافه في احد الايام الأخيرة من

---

(٩) شارل دي فوكو، من يستطيع ان يقاوم الله، باريس ١٩٨٠، ص٢١٠.

شهر تشـــرين الاول[١٠]، بين اليـــوم ٢٧ و٣٠ منه كمـــا اظن، وهبتنـــي كل الخيرات، يا إلهي [...] يا له من يوم مبارك، يا ليوم البركة ![١١] ".

ان شـــهر تشرين الاول هـــذا لسنة ١٨٨٦ زاخـــر بالاحـــداث التي غالبًا ما يذكّرنا بها شارل دي فوكو. فسلسلة من الظروف اســـهمت في توجيهه إلى الأب هوفلان : " عزلات غير متوقعة، مرض أحبّاء... " هذا ما سيقوله. فان ماري دي بوندي مريضة بالفعـــل في ذلك الوقت. ومن جهة أخرى يعلـــم ان الأب هوفلان، لأسباب صحية، لن يستأنف محاضراته الاعتيادية، وهذا ما دفعه إلى الذهاب اليه ليلتمس منه دروسًا في الديانة. ولكن يترتب علينا التوقف اولاً عند حدث آخر يكشف لنا عن مزاجه.

فخلال صيف سنة ١٨٨٦، نفي دوق دومال وجميع اعضاء الأسرة المالكة، وكان هذا قد قاد الفرقة الرابعة من صيادي افريقيا. وظن شارل دي فوكو ان من واجبه ان يمثل فرقته في باريس حـــين ذهاب المنفي ويطلب لذلك التخويل الرسمي من الضابط قائد الفرقة الرابعة من صيادي افريقيا. ولقد أُعتبرت هذه المبادرة مثل إثارة ضد الجمهورية، ويصل العقاب الذي يطلبـــه الضابـــط إلى وزير الدفاع، وتمَّ إبـــلاغه إلى المعني في ١٨ ايلول : فأُعفي من مهامه لمدة سنة. وكان شارل دي فوكو قد وصل إلى تونس قبل ذلك بأسبوع ليقوم بخدمة عسكرية لمدة شهر بصفة ضابط احـــتياط. ومن جراء هذه العقوبـــة وجدَ ذاته هناك وحيدًا، وبدون هدف[١٢].

---

(١٠) انه التاريخ الوحيد الذي لم يسجله بنوع مضبوط. وسيقول دوما، في الايام الاخيرة من تشـــرين الثاني سنة ١٨٨٦.

(١١) الموضع الاخير، ص١٠٥ - ١٠٦.

(١٢) بيير سوريسّو " أي ظروف عجيبة ؟ "، باريس ١٩٨٦، ص١٧-٢٢.

٤- زمن الاهتداء .....

هل كانت هذه " العزلة غير المنتظرة "، وهذه الاحداث غير المتوقعة هي التي جعلته يعود إلى فرنسا خلال شـــهر تشـــرين الاول ١٨٨٦ ؟ فيجد ماري دي بوندي مريضة، وفي وسط " انفعـــالات " عديـــدة، يحضـــر عنـــد الاب هوفلان : " كنتُ اطلب دروسا في الديانة، ولكنه اركعني وجعلني اعترف، ثم ارسلني لكي اتناول دونما تأخير "[١٣]. وحينما اضطرَّه الأب هوفلان إلى القيام بمبادرة التواضع هذه في الاعتراف، انما عرض عليه بذلك الفعـــلَ الذي ادى إلى تغييره.

وخلال الشهور التالية، سيتردد كثيرًا إلى الأب هوفلان للتحدث اليه طويلاً. ولم يجرِ كل شيء في لحظة واحـــدة، ولكن الأب هوفلان سيصبـــح منذ ذلك الحين " الأب " وسيظل كذلك حتى موته الذي حدث سنة ١٩١٠، في حين ان ماري دي بوندي ستكون حقًا الأم التي ولدته للايمان، هي التي كانت من قبل أمَّه الثانية.

---

(١٣) الموضع الاخير، ص١٠٦.

— ٥ —

ساعة الدعوة

في الرسالة إلى دوفيرييه، قرأنا ان شارل دي فوكو، بعد بضعة اشهر مما يسميه " هذا التغيير الكبير " كان يفكر في الدخول إلى الدير، وذلك منذ مطلع سنة ١٨٨٧. إلا ان الأب هوفلان كان يلحّ عليه بالزواج. وكذلك عائلتـــه. فان اسرته لم تلمح تقريبًا " هذا التغيير الكبير "، انما لاحظت انه استعادَ ممارسته الدينية. ولم تتحقق ماري دي بوندي إلا بعد ذلك من الدور الذي قـــامت بـــهِ، ومن أهمية هذا الاهتداء. ومع ذلك، علينا ان نولي اعتباراً كبيرًا لما سيكتبـــه بعد ذلك إلى هنري دي كاستري، في ١٤ آب ١٩٠١ :

" ما إن آمنتُ ان ثمة إلهًا، حتى فهمتُ انى لا يســـعنى إلا ان أحيـــا له : فدعوتي الرهبانية تتأرخ من ساعة إيماني نفســـها : فما أعظم الله ؟ فثمة فرق كبير بين الله وكل ما ليس اياه ! ".

وهنا يتجلى طبعه المطلق بنـــوع واضح. كل شـــيء، وعلى الفـــور ومن المستحيل العمـــل بغير ذلك. وهو يضيف في هذه الرســـالة نفســـها : " كنتُ ارغب في ان اكون راهبًا، وألا اعيش الا لله، وان اعمل ما كـــان الأكمـــل، مهما كلَّف الامر.. ".

وبين النساء الشـــابات المواظبات على محاضرات الأب هوفلان، كانت ابنتا صديقه، السيد دي ريشمونت. وكانت احداهن راهبة تعيش في العالم، ولم تكن اذًا مخصصة للزواج. اما الثانيـــة كانت حرة وكانت الطـــرف الذي يناســـب الفيكونت شارل دي فوكو. ولكن هذا الاخير لم يكن يريد ان يســـمع الحـــديث عن الزواج.

٥- ساعة الدعوة .....

وانتهى طبع كتابه " الاستطلاع في مراكش " في مطلع سنة ١٨٨٨. وبعد الانتهاء، من هذا العمل، يسعه الآن ان يفكر في امر آخر، وان يُعدّ استكشافات أخرى. وكان الأب هوفلان يصرّ على ارساله إلى الحج إلى الاراضي المقدسة، لكي يتسنى لهذا الجغرافي ان يضع قدميه على خطى يسوع. لكن شارل دي فوكو لا يعبأ بالامر، فهو على عجلة من أمره، ولكنه سيقبل بهذا المنظور. وفي نهاية سنة ١٨٨٨، ابحر شطر الاراضي المقدسة، للقيام بحج يعمله على طريقته الخاصة، أي مثل ناسك :

" بعد ان امضيتُ عيد الميلاد سنة ١٨٨٨ في بيت لحم، وسمعتُ قداس منتصف الليل وتناولتُ القربان المقدس في المغارة المقدسة، وبعد يومين او ثلاثة عدُت إلى اورشليم. ولا توصف العذوبة التي اختبرتها في الصلاة في هذه المغارة التي كانت قد رنت بأصوات يسوع ومريم ويوسف، حيث عشتُ بالقرب منهم. ولكن وا اسفاه ! فبعد مسيرة ساعة ظهرت امامي قبة القبر المقدس (كنيسة القيامة) والجلجلة، وجبل الزيتون، وكان عليّ، شئتُ ام ابيتُ، ان اغيّر افكاري وان اجد نفسي تحت اقدام الصليب "[1].

وفي مطلع كانون الثاني سنة ١٨٨٩، وصل إلى الناصرة. وهنا اكتشف الحياة المتواضعة والخفية التي عاشها العامل الإلهي. انها صدمة حاسمة ونوع من النداء، ولا سيما جواب على السؤال الذي يطرحه على نفسه منذ يوم اهتدائه : " ماذا عليّ ان افعل ؟ ".

في الناصرة، رأى شارل دي فوكو هذا الإله الذي سارَ بين البشر. وهو يلقاه عند النبع مع مريم، ويراه حينما ينظر المهنيين يشتغلون. ولكنه يراه بطريقته الخاصة، بذهنية ذاك الذي يريد ان يغيّر حياته. وما عليه ان يفعله

---

(١) شارل دي فوكو، هذا الموضع الاخير الحبيب، رسائل إلى اصدقائي في دير السكوتيين، باريس١٩٩١، الرسالة المؤرخة في ٢١ كانون الاول ١٨٩٦ إلى الاب جيروم، ص١٤٧.

يُكشف له في طرقات الناصرة : الله صار انسانًا وعاش هكذا بين الناس. ففي سبيل السير في اثر يسوع، عليه ان يسلك هذا الطريق. ويتمثل حياة يسوع هذه في الناصرة ليس كما جرت تاريخيًا، بل كما ستكون له النموذج المباشر لتغيير حياته. وحينما عرف شارل دي فوكو بعضُ ذويه، لقيَ تقبلا حميمًا في ألفة عائلة. فانه في ذروة المجد، يحتل الموضع الاول، إذ أضحى أحد ابرز المستكشفين. لقد تلقى المدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية. فإذا اراد ان يغير حياته، فهو لا يستطيع ان يكتفي بأن يعيش مثل سائر الناس، ويجب ان تكون هذه الحياة الجديدة، على طرفي نقيض مما كانت حياته السابقة.

فإن " الاهتداء " يعني له ان يدع نفسه تتغير بقوة تبدو آتية من موضع اخر. ويعني ان يعيش حياة مختلفة كليًا عن تلك التي كان يحياها سابقا. لذا، فإن الارستقراطي الواعي بمكانته، الذي كان يولي اهمية كبيرة لمظاهره، لا يسعه ان يكتفي بلباس بسيط واعتيادي. فان تغيير الحياة للمستكشف الشهير سيتوقف على ان يحيا ليس بدون شهرة فحسب، بل ان يكون مجهولا وان يحيا في النسيان والاحتقار. كان عمله يستهويه : ان يكتشف الامكنة والناس، وان يعرّفها لاخرين، وهل من امر يثير الحماس اكثر من هذا ؟ وكان قد انصبَّ كليًا على مقتضيات كتابة دقيقة لكتابه، بصرامة علمية مدهشة وبكمال عجيب. ولكنه يريد من الآن ان يعطي ذاته لعمل لا أهمية له، بل حقير ورتيب.

لو انه عاش في عائلة من المهنيين والعمال والفلاحين، لما اعتبر حياة يسوع في الناصرة تحت مظهر من الذل والحقارة والهوان. وهذا أمر واضح جدًا. ولكن ارادته في الاجتياز إلى الدرجة القصوى تدفعه إلى ان يخلق لنفسه نموذجًا للاقتداء بهِ تحت قسمات يسوع هذا الذي كشفت له اورشليم تواضعه الحقيقي في الآلام. فهو لا يسعه ان يرى إلا يسوع المحتقَر والمهان والمعذَّب والمحكوم عليه بموت العار. فلا يستوقفه في ذلك الوقت جمالُ العمل اليدوي،

ولا صفة علاقات يسوع مع جيرانه في تناسق انسانية كاملة، ولا الحياة العائلية الحميمة. ففي منطق تفكيره، لم يسع يسوع سوى ان يكون أفقر الناس في الناصرة، وربما أقلهم اناقة في لباسه ! ولا يمكن ان يكون عمل النجار الا وضيعًا ورتيبًا. ولم يكن في وسع يسوع سوى ان يكون محتقرًا ودون اي اعتبار. لذلك كانت تعود إلى فكره هذه العبارة التي حفظها من احدى خطب الاب هوفلان : " لقد اتخذ يسوع الموضع الأخير إلى حدّ لم يسع أحد ان ينتزعه منه ".

علينا ان نحدّد موقع حركة الاهتداء هذه عند شارل دي فوكو مثل اجتياز إلى الوجهة المضادّة لِما هو عليه، ولِما اراد ان يصبح. فهو سيتخيّل يسوع دومًا على النقيض مما هو عليه، والحياة التي سينظّمها لنفسه ستكون الأفقر والأحقر. إذ ذاك يتذكر الراهب الذي رآه في " فونتكومبو "، والذي اجتذبه وسحره بثوبه البائس والوسخ والمرقّع. ويصبح هذا الأمر المثل الأعلى لحياته هو الذي طالما بحث عن الاناقة والغرابة. فهو لا يستطيع ان يحيا حياة افقر واوضع : انما يهوى الحياة الأفقر والأوضع. وستكون مفرداته في صيغة التفضيل المطلق في جميع كتاباته. ولن يتوقف الأمر على شيء أفقر، بل على الأفقر دومًا. انه لا يبحث عن موضع أوطأ، بل عن الموضع الأخير. وهكذا يتمثل مثلاً أعلى شيئًا لا يوجد ولا يمكننا الوصول اليه. ولكنه لا يتحقق من الأمر. ومع ذلك ؛ فهناك، في طرقات الناصرة، يشعر بكونه مدعوًا للإقتداء بحياة يسوع الخفية في الناصرة. واذ ذاك فقط ستكتسب الناصرة أهمية في حياته، ولو انه يكتب بعد ذلك بوقت طويل، في ٨ نيسان ١٩٠٥، إلى الأب " كارون "[٢] : " اني خاطئ قديم، أجتذبه يسوع بقوة، في غداة اهتدائه، قبل

(٢) هو مؤلف كتاب عنوانه : في بلاد يسوع الصبي، باريس ١٩٠٥، فيه يتكلم عن شارل دي فوكو الذي كان يعرفه.

عشرين سنة، لكي يعيش الحياة الخفية في الناصرة[٣] " وهذه " الغداة " التي يتكلم عنها هي في الحقيقة سنتان بعد ذلك.

وسيكون السؤال من الآن : " ماذا عليَّ ان افعل لأحيا حياة الناصرة هذه ؟ " وطوال سنة ١٨٨٩ كلها، سيبحث شارل دي فوكو مع الأب هوفلان كيف يمكنه الجواب على نداء الله هذا. سيقول انهما أبعدا كل الرهبنات الفاعلة، ما عدا الفرنسيسكان، بسبب فقر القديس فرنسيس الأسيزي. ولكنهما في الواقع استبعدا حتى الفرنسيسكان أنفسهم. فلا اشارة إلى الكرتوزيين، ولو نشعر بأنه كان حقا مدفوعًا نحو حياة العزلة. ونجد التعبير عن المثل الأعلى لحياته في ذلك الوقت في الرسالة الاولى التي لدينا، والتي كتبها إلى ماري دي بوندي في ٢٠ أيلول ١٨٨٩، وفيها يروي حديثه الأخير مع الأب هوفلان : " لقد بحثنا مرة اخرى لماذا كنت اريد الدخول إلى الحياة الرهبانية :- لكي ارافق ربنا، في شدائده، قدر المستطاع ".

فكان من البديهي للأب هوفلان ان رجلاً من الطبقة الاجتماعية لشارل دي فوكو كان عليه ان يدخل إلى دير " سولِم ". وبالإضافة إلى ذلك، كان يعتبر رئيس دير سولِم بين أصدقائه، فأرسل شارل لكي يُمضي بعض الوقت في هذا الدير. ولكن هذا الأخير سرعان ما لاحظ انه لن يستطيع العيش في سولِم بحسب المثل الأعلى الذي لمحه في الناصرة. ففكر في دير السكوتيين، دير سولينيي، إذ لا مجال للعودة إلى " فونتكومبو " القريب جدًا من قصر " بار " حيث كانت ماري دي بوندي تُمضي عطلتها. وفي سولينيي، ظن ان الحياة السكوتية تتناسب له مع المثل الأعلى الذي رآه، وهو ان يحيا حياة يسوع في الناصرة، في العمل اليدوي.

ولكنه كان يحتاج إلى موضع أبعد. فكلَمه الأب هوفلان عن دير للسكوتيين

---

(٣) رسائل غير منشورة للأب دي فوكو، باريس ١٩٤٧.

فقير جدًا أسسه دير سيدة الثلوج في سوريا، مع راهب واحـــد هو بوليكارب، وهو أخ لأحد أصدقائه[٤] كانت له فيه ثقة كبيرة جدًا. وكان مستعدًا ان يســلم اليه شارل دي فوكو. وكان لهذا دير السكوتيين الفضل بأن يكون أفقر الأديرة الموجودة، وان يكون بخاصة بعيدًا عن الكل. فهو من الآن لا يفكر إلا في هذا الدير. ولكنه عليه اولاً ان يجتاز بدير ســيدة الثلوج، حيث تجري فترة الابتداء اعتياديًا. وخلال شهر تشرين الأول، يتم له الاتصال بسكوتيي دير سيدة الثلوج، لكي يرى هل سيقبلونه، ريثما يتسنى له الذهاب إلى " أقبس " في سوريا. انه لا يتقدم إلى دير سيدة الثلوج مثل فقير جاهل. ويكفينا ان نقرأ الرسائل الاولى التي كتبها إلى الأب أوجين الذي قبله، لكي نتحقق من هذا الأمر :

" أجد ان رهبانيتكم هي الرهبانية التي فيها يحيا الانســـان الحياة المســـيحية وحياة الاتحاد التام بالرب بصورة أفضل [...] ورغباتي تحملني إلى هذه الحياة التي فيها يبدو لي ان الرب يُعزّى ويُمجدَّ اكثر ما يمكن ان يفعله البشر له "[٥].

ان القرار الأخير يجب ان يُتَّخذ في رياضة عند اليسوعيين في " كلامارت "، في نهاية شهر تشرين الثاني. وفي نهاية هذه الرياضة التي قام بـــها بحســـب تمارين القـــديس اغناطيوس[٦]، فتقـــرَّرَ دخوله إلى دير الســـكوتيين، وحُدّد في الأول من كانون الثاني، او في الاسبوع الاول من كانون الثاني. ويوفر لنفسه الوقت ليودّع الجميع، ولكنه لا يقول لأحد انه سيدخل إلى دير الســـكوتيين، إلا لأخته وزوجها ولماري دي بـــوندي، لأنه يريد ان يرى اولاً كيف ســـيتمُّ هذا الامر. وسيؤخر الأب هوفلان تاريخ دخوله إلى الدير بسبب البرد، وكذلك لأن ذويه، وبالطبع ماري دي بوندي، وهو نفسه، كانوا يحتاجون إلى بعض الوقت لكي يتحملوا فكرة الانفصال هذه.

---

(٤) فرانسوا سيكس، المسيرة الوحيدة لشارل دي فوكو، باريس ١٩٥٨، حاشية ٢٥، ص١١٤.

(٥) هذا الموضع الاخير الحبيب، ص٣٧-٣٨.

(٦) انها طريقة القديس اغناطيوس دي لويولا التي سيمارسها من الآن لخياراته ولاتخاذ قرارات.

-٦-

يوم التضحية الكبرى

كان نهار ١٥ كانون الثاني ١٨٩٠، دون شك، الأكثر تميزًا في حياته كلها. يجب الاشارة إلى ذلك، لكي نحدّد موقع شارل في انسانيته كلها، وفي الوقت نفسه لكي نحاول ان نفهم كيف كان الحماس المفعم بالحب ليسوع حتى أتاح له ان يقوم بمثل هذا الفعل في ذلك اليوم. وإذ نعرف انه من السهل النسج حول هذا النوع من الحدث، سنكتفي بسرده هو نفسه. وهذا سيُتيح لنا أن نرى الأهمية التي مثّلها في حياته هذا الانفصال عن العالم.

وقليلون هم المطّلعون على ذهابه القريب :

وكان قد كتب إلى اخته : " حينما سأذهب، سأخبر عن ذهابي إلى سفر، دون ان اقول ابدًا اني ادخل (الدير)، ولا اني افكر ابدًا في الدخول إلى الحياة الرهبانية ".

وفي ١٣ كانون الثاني، كتب إلى زوج اخته، وفي ١٤ كتب رسالة اخيرة إلى اخته :

" اترك باريس غدًا. وبعد غد، في نحو الساعة الثانية، سأكون في دير سيدة الثلوج. صلّي من اجلي، واصلي من اجلك، ومن اجل ذويك. لا ينسى المرء الآخرين حينما يقترب إلى الله. سأكتب اليك يوم وصولي إلى سيدة الثلوج. ولكن، بعد هذه الرسالة الاولى، تعلمين ان سكوتي سيعني دومًا ان لا شيء جديد عندي. وهكذا ايضًا سأفسّر سكوتكِ. حينما يكون المرءُ هكذا قريبًا من الله يكون قلبه مملوءا منه، يصعب عليه ان يجد الاشياء الصغيرة التي بها

٦- يوم التضحية الكبرى .....

يملأ الرسائل. من الخير ان نصلّي من أجل الذين نحبهم، وان نقدّم بالاشتراك معهم تضحية الانفصال ".

بوسعنا، كما فعل رينيه بـــازان في الصفحـــة ١٠٠ من كتابـــه[1] ان نترك نصف صفحة بيضاء وان نجتاز رأسًا من ١٤ إلى ١٦ كانون الثاني، بتجاوزنا نهار ١٥، لكي نلقـــى شـــارل دي فوكو في اليوم ١٦ في دير ســـيدة الثلوج. بالعكس سنتوقف طويلاً على هذا النهار الوحيد، نهار ١٥ كانون الثاني، لنحاول ان نوليه كل الأهمية التي اولاه اياها هو نفسه. ففي كراسه حـــيث اشـــار إلى جميع المناسبات، جاءَ هذا التاريخ مسرودًا في الموضع الاول، ربما لكونه اول مناسبة كبيرة في شهر كانون الثاني. ولكن على لائحة اخرى، يبـــدأ هذا النهار بسلسلة من الاحداث التاريخية، وكأنها تؤشر إلى بدءِ حياته : " تركتُ شـــارع " أنجو " يوم الاربعاء ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٩٠ في الساعة السابعة مساءً (اعيـــاد القديس بولس الناسك الاول، والقديس جان كاليبيت، والقديس مور) ".

اننا الآن نعرف ما جرى في هذا النهار بنوع واضح، وذلك بفضل الرسائل التي كتبها شارل دي فوكو طوال حياته، وهو يذكر هذا اليوم. انه نهار يبتدئ باكرًا جدًا في الصباح بزيارة أخيرة إلى الأب هوفلان الذي سيغادر باريس في النهار نفسه. ونعلم هذا في رســـالة مؤرخة في ١٤ كانون الثاني ١٨٩٤ إلى ماري دي بوندي. " أَستأنفُ رسالتي. انها الساعة التاسعة مساءً (في أقبـــس)، الساعة السابعة إلا ربعًا في باريس. كنتُ في مثـــل هذه الســـاعة عند الأب، بعد قداسه ".

في الساعة ٩، حضر شارل وماري القداس في معبـــد العذراء في كنيســـة

---

(١) بازان ط١، باريس ١٩٢١.

القديس اوغسطينس، هناك حيث كان قد تناول بعد اعترافه في نهاية شهر تشرين الأول سنة ١٨٨٦. وتناولا هناك جنبًا إلى جنب للمرة الأخيرة، ثم عادا إلى شارع " أنجو " حيث بقي شارل حتى الساعة ١٥. اذ ذاك ترك ماري، لكي يذهب إلى شارع لابورد ويقابل الأب هوفلان الذي لم يستطع مغادرة باريس بسبب ألم انتابه. وكان الحديث الاخير، والبركة الأخيرة، والوداع الأخير. ثم اجتاز شارل بكنيسة القديس اوغسطينس ودخلها للزيارة الأخيرة، والصلاة الأخيرة. وفي نحو الساعة ١٦، عادَ شارل ثانية إلى شارع أنجو " للمرة الأخيرة في هذا العالم ". وعليه بعد ثلاث ساعات ان يستقل القطار الذي سيحمله بعيدًا عن جميع الذين يحبهم. ان عقارب الساعة الجدارية تدور بسرعة. والساعة الآن ١٩,١٠، فتباركه مريم وينطلق باكيًا.

لا شيء خارق العادة في هذا النهار. وما اكثر المغادرات التي تشبه هذه المغادرة ! المغادرات إلى الدير، ومغادرات المرسَلين... انها تأثرات مكبوتة وتمزُّق الانفصالات العائلية، وتضحيات مؤقتة، وحزن اعتيادي ستُنسيه الحياة سريعًا. ولن يكون الأمر كذلك لشارل دي فوكو، إذ لن يُنسى هذا اليوم أبدًا. ولا نستطيع ان نفهم شيئًا مما يكتبه، ومن طريقة كلامه عن الألم، ومن صلاته طوال سنوات، ما لم ندرك ما مثله هذا الوقت في حياته. ولكي نقتنع من ذلك، يكفينا ان نقرأ بعضًا من كتاباته التي تؤشر إلى هذه المناسبة :

فكتب في ١٥ كانون الثاني ١٩٠٠ :

" انها الساعة السابعة إلا خمس دقائق في باريس في هذا الوقت، قبل عشر سنوات، كنتُ جالسًا قربك، في صالونك، ناظرًا تارة إليك، وطوراً إلى الساعة الجدارية. كم ان هذا اليوم حي في ذاكرتي !... وكم فكرت في تناول هذا الصباح ! وكم كنت معك هذا النهار كله ! عشر سنين ! يبدو لي انها كانت البارحة... ".

٦- يوم التضحية الكبرى .....

وكتب في ١٥ كانون الثاني ١٩٠٦ :

" انها الساعة الخامسة مساءً. في هذه الساعة كنتُ بالقرب منك، قبل ست عشرة سنة. مازلت اراك ويبدو لي وكأنه الآن... مازلت أرى عقارب ساعتك الجدارية تتقدم في هذه الساعات الأخيرة : مازلتُ أرى... ".

وفي ٨ كانون الاول ١٩٠٧ : " ان السنوات بمرورها لا تخفف ألم الفراق، بل تجعله أشد. " وهذه الملاحظة التي وردت في ١٥ كانون الثاني ١٨٩٥، كتبها في " أقبس " على ظهر مغلّفٍ كان قد أُرسل إليه. فشارل دي فوكو يجاوب على مختلف الأسئلة التي كان يطرحها على نفسه، حسب طريقته الاعتيادية، ليُعدَّ خواطره وخياراته : مَن ؟ ماذا ؟ أين ؟ بأي وسائل ؟ لماذا ؟ كيف ؟ متى ؟

" من ؟ الخاطئ الذي أرجعتَه. في وسط نِعَم كثيرة وغمرته بالمراحم.

ماذا ؟ انطلقت لكي : ١- أضع نفسي في حالة استطيع فيها " ان احبك اعظم حب "، ٢- احيا حياة تمجدك اكثر، يعني تقدسني اكثر انا والقريب، اي الحياة، الاكثر تطابقًا مع حياتك. ٣- اعمل لك اكبر تضحية في وسعي عملها، وذلك بتركي نهائيًا ما كنتُ احبه كثيرًا.

أين ؟ في بلاد غير مسيحية، في دير للسكوتيين، بعيدًا عن كل ما أحبّه.

بأي وسائل ؟ بنعمتك، ويا لها من نعمة ! شكرًا، وشكرًا لا متناهيًا !... بمساعدة صلوات العذراء القديسة، والقديس يوسف، والقديسة المجدلية، والقديس يوحنا المعمذان، وملاكي الصالح، وجميع القديسين والقديسات، والأنفس الكثيرة التي تحبني ولم تعد ههنا، وأمتك، والأب، ونفوس اخرى كثيرة قديسة... بمثلك، وبأمثلة العذراء القديسة والقديس يوسف، والقديسة المجدلية، والقديس

يوحنا المعمذان، وبعون القديس بولس الناسك، والقديس انطونيوس الذي نحتفل بعيده في هذه الأيام... بمثل وقوة وجودة أمتك والأب. فشكرًا لك ولهم ! باركهم وبوركت !

لماذا ؟ لكي أمجدّكَ اكثر ما امكن. ولكي اعزّي قلبك اكثر ما امكن.

كيف ؟ بصفاءِ النية والطاعة والشجاعة... يا إلهي أنعِشها فيَّ واجعلها تستمرّ حتى الموت، لكي اكمل مشيئتك في كل شيء وأمجدك اكثر ما امكن ! اذ اقدّم لك ذاتي بجملتها، واصلي من اجل الذين احبهم كثيرًا ولاجل ابنائك اجمعين.

متى ؟ هذا المساء في الساعة السابعة والدقيقة العاشرة، ستكون خمس سنوات... واليوم بالذات، يا إلهي ! لأني من صميم نفسي أجدّد هذه التقدمة التامة لذاتي، لكي لا اتنفس قط إلا لك، ولكي استخدم جميع لحظات حياتي لتمجيدك ولتعزية قلبك اكثر ما امكن، إذ اتمُّ اكثر ما امكن كل ما يريده قلبك ان أعمله ! آمين، آمين، آمين "[٢].

اننا نجد هذه الخواطر في جميع الذكريات السنوية لهذا اليوم، ليس في السنوات الاولى فحسب، بل كذلك خمس عشرة سنة وثماني عشرة سنة بعد ذلك. وهي تقول لنا اولاً ان هذا الخامس عشر من كانون الثاني كان يوم اكبر تضحية، في حزن الفراق وألمه، كما يكتب إلى ماري دي بوندي في ١٥ كانون الثاني ١٩٠٠ : " تضحية يبدو انها كلفتني جميع دموعي، لأني منذ ذلك الوقت لا ابكي من بعد، ويبدو لي انه لم يبقَ لي دموع !... ".

ولكن اكثر من جميع الكتابات الأخرى، فان الرسالة التي كتبها إلى ابنة عمته غداة ذلك اليوم، لدى وصوله إلى دير السكوتيين، تعبّر عن هذا الألم :

---

(٢) شارل دي فوكو، مسافر في الليل، باريس ١٩٧٩، ص٢٥-٢٦.

٦- يوم التضحية الكبرى .....

" اين كنتُ البارحـــة في مثل هذه الســـاعة ؟ كنت ما ازال بقربـــكِ، وأنا اودّعكِ. كان الأمر صعبًا، ولكنه كان ما يـــزال عذبًا إذ كنتُ أراكِ... اربـــع وعشرون ساعة، انه لقليل، ولست اتحقق من هذه الفكرة وهي اني ودّعتكِ إلى الأبد. ففي الماضي، قلما افترقنا، فكيف نســـتطيع ذلك تمامًا في المســـتقبل... ومع ذلك فانها الحقيقة. اعرف ذلك، واريد ذلك ولكني لا استطيع تصديقه. في الساعة التاسعة صباحًا، وفي الرابعة، والآن، ودائمًا، اشعر بأني قريب منـــك كثيرًا، ولكن عينيَّ لن تريا عينيك من بعدُ ابدًا "[٣].

ان ما يشكّل كثافة هذه الســـاعات الأخيرة في العالم، وما جعـــل من هـــذه التضحية محرَقة حقيقية، هو هذا المظهر النهائي للذهاب : " ابدًا من بعـــد " و" إلى الأبد ! ".

وبعد سبع سنوات، هناك ملاحظة كُتبت في الناصرة (مســـتلّة او مســـودة رسالة) تؤكد ان هذا كان المظهر السائد :

" في الدير تألمت كثيرًا... ليس من الجماعـــة، حيث كان الكل لطفـــاء جدًا معي...، لكن فكرة عائلتي كانت تعذّبني. كنت اقـــول لنفســـي احـــيانًا : دائمًا، دائمًا، ابدًا، ابدًا، العيش هنا دائمًا والا اراهم ابدًا... آه، كم كان يسوع طيبًا اذ ساندني بحمايته العذبة وجعلني اتغلب على عوائق عائلتي والشيطان وذاتي "[٤].

وهذه الملاحظة تلي ملاحظةً اخرى حيث كُتب : " لكي اقول لك كل شيء بكلمة واحدة، اترك كل شيء، يا ابني، وستجد كل شيء ".

والمظهر الآخر لهذه التضحية هي " الكلية " التي جاءَ التعبير عنها تعبيرًا

---

(٣) رسالة ١٦ كانون الثاني ١٨٩٠ إلى ماري دي بوندي، وهي الرسالة الاولى المنشورة في : شارل دي فوكو، رسائل إلى مدام دي بوندي، باريس ١٩٦٦.

(٤) مسافر في الليل، ص ٥٩.

خاصًا في الرسالة التي كتبها إلى ماري دي بوندي في ١٦ تموز ١٨٩١ :

" في ١٥ كانون الثاني، تركت كل ما كان لي مُلكًا. ولكن كان يبقى إلى الوراء ما يشكل لي ارتباكا تعسًا : الرتبة، الثروة الصغيرة، ويسرّني ان أرمي بذلك من النافذة ".

وسيقول لهنري دي كاستري، بعد عشر سنوات، في ١٤ آب ١٩٠١ :

" كنت أحبُّ بحنان كبير ما كان الله قد تركه لي من العائلة. فأردتُ ان أقوم بتضحية لكي اقتدي بذاك الذي فعل الكثير من التضحيات، ذهبتُ، قبل نحو ١٢ سنة إلى دير للسكوتيين في أرمينيا ".

لكن في هذا اليوم مظهرًا اكثر ايجابية، وهو مثل اجتياز حقيقي عبر الموت :

" انه اليوم الذي فيه قبل ثماني سنين تركتْ عائلتي وانا اذرف الدموع الغزيرة، لأكون لكَ بكليتي، ايها الرب حبيبي ! وجففتَ الدموع، وجعلتَ هذا اليوم يوم عيد، ونوعًا من عيد ميلاد، لأن الحياة لك وحدَك انما هي الحياة الحقيقية... انه الوسيط بين يوم ميلادنا في العالم واليوم الذي فيه سنولد للسماء برحمتك اللامتناهية... "[٥].

اجل انه يوم ميلاد، وهو في سفر الشهداء يوم موت الشهداء، يوم الدخول إلى الحياة. ومن الحسن ان نشير، في صدد يوم الميلاد هذا، إلى " الاهتداءات " المتعددة التي سنلقاها طوال الحياة. انها كل مرة نوع من الميلاد إلى الحياة، إلى الحياة الحقة، كما يقول. وكان يمكنه ان يكتب هذا التاريخ مثل نقطة انطلاق إلى حياة جديدة. وكان جان غيتون على صواب اذ قدّمه هكذا : " انه

---

(٥) شارل دي فوكو، اعتبارات حول اعياد السنة، باريس ١٩٨٧، ص١٠٥.

٦- يوم التضحية الكبرى .....

رجل لا يفتأ يولد "[٦].

انه معنـــى هذا اليوم الذي صـــار له عبـــوراً في الموت، حتى ان المـــوت الجسدي وحدَه سيستطيع ان يكمل موت الخامس عشر من كانون الثاني ١٨٩٠. ومن ثمـــة الأهمية التي تأخذها في بقية حياتـــه فكرةُ الموت والرغبـــة في لقاء يسوع. " ان الشهور باضافة بعضها إلى بعض ســـتجلب يومًا هو الأخير "[٧]. اجل سيكون عذبًا الموت الذي لن يوحّده تمامًا بيسوع فحسب، بل سيُتيح له ان يجد اولئك الذين واللواتي تركهم بألم كبير.

ان الخامس عشر من كانون الثاني ١٨٩٠ يؤشـــر إلى وصول وإلى إتمام. والنصوص التي سردناها من شأنها ان تدفعنا إلى الاعتقـــاد ان المظهر الودي والعاطفي هو الذي سادَ. فعلينا اذًا ان نعود إلى الدافع العميق الذي كان سبب هذا التمزّق وموضوع هذه التضحية.

كل شيء بدأ ساعة الأهتداء. ومنذ ثلاث سنوات، يعيش شـــارل دي فوكو في عالم جديد، هو عالم الأيمان الذي يجعله يرى كل شيء بنظرة جديدة. ففي اليوم الذي فيه قبل ان يعترف بكونه خاطئًا، تلقى غفرانَ الرب، وابـــتدأت له حياة جديدة، كما قرأنا ذلك من قبل في الرســـالة التي كتبـــها إلى هنري دي كاستري في ١٤ آب ١٩٠١ :

" ما إن آمنت ان ثمة إلهًا، حتى ادركتُ انه لا يسعني سوى أن احـــيا من اجله : فدعوتي الرهبانية تتأرخ من ساعة ايماني نفسها : ما أعظم الله ! وما أعظم الفرق بين الله وبين ما ليس اياه ! ".

---

(٦) جريدة لفيغارو، ١٩٨٢/١٢/٢٠.

(٧) رسائل إالى ماري دي بوندي، الرسالة في ١٨٩١/٧/١٦.

ومنذ هذه اللحظة الأولى يترتب عليه اجراء اختيار جذري : اختيار الدعوة الرهبانية، كل شيء او لا شيء، انه يريد كل شيء، وعلى الفور. وهذا النداء يتّسم بنوع من عدم إمكانية القيام بشـــيء آخر. انه من الآن فيـــه شـــوق إلى العيش لله وحده، وهو انجذاب لا يُقاوم نحو ذاك الذي سيصبح اكثر فأكثر اخاه الحبيب وربَّه.

لقد قلنا ان الأب هوفلان لا يرى الأمور هكذا. وبصفتـــه مستشـــاراً حكيمًا ونيّرًا، يحاول دفعه إلى الزواج دونما تأخير. لكن شـــارل لا يريد ان يســـمع الحديث عن الزواج. والآن يشـــعر انه مأخوذ بشـــخص يريده كله لـــه. وهو لا يريد ان يحيا سوى له.

لو ان اهتداءَه لم يكن سوى عودة إلى ديانة طفولته، لتسنى له الوقـــوع في أصولية مجاهِدة او في ديانة عاطفية. ان هذا الاهتداء كان في الحقيقـــة لقـــاء بالله الحي، بإله قريب ومحِبّ. هذا الإله الذي كان شارل يتوسل اليه ان يظهر له ذاته إن كان موجوداً، كشفَ له ذاته في شركة حب الهًا يحـــب ويجب ان يُحَبّ. ان هذا الإله القريب اتخذ جسدًا، وله اسم : يسوع. وكل روحانية شارل دي فوكو ستتمحور حول شخص يسوع، إلهه، وربهِ، وأخيه، وفي وقت لاحق، في لغة المتصوّفين : عريسه الحبيب.

وسيقول الراهـــب الجديد لصديقـــه دوفيريه، في رســـالة كتبها إليـــه فـــي ٢٤ نيسان ١٨٩٠ :

" لماذا دخلت دير الســـكوتيين ؟ هذا ما تطلبـــه مني صداقـــتك الحبيبـــة. بالمحبة، بالمحبة المحضة. [...] احب الرب يسوع المسيح، ولو بقلب كان يودّ ان يحبّ اكثر واحسن. ولكني، مع ذلك، أحبـــه، ولا يسعني ان أتحمل حيـــاة اخرى سوى حياته، وحياة عذبة ومحترمة، في حين ان حياته كانت اقسى حياة

واكثرها ضعة. لا اريد ان اجتاز الحياة في الدرجة الاولى، في حين ان الذي أحبه اجتازها في الدرجة الأخيرة. [...] ان اكبر تضحية لي، حتى ان بقية التضحيات لا توجَد ازاءَها وتصبح مثل لا شيء : انه الفراق إلى الابد عن عائلة محبوبة جدًا وعن اصدقاء غير عديدين ولكن قلبي متعلق بهم بكل قواه : وهؤلاء الاصدقاء الأحباء إلى هذا الحد هم أربعة او خمسة، وانت واحد من الأولين فيهم : هذا لكي اقول لك كم يشقُّ عليَّ التفكير في اني لن اراك من بعد [...]. ان محبة الله، ومحبة البشر : هذا كل حياتي وارجو انه سيكون كل حياتي "[٨].

وقد شرح الأمر بنوع آخر لابنة عمته : كان يذهب " ليكون مع " يسوع في رفقة جميع اللحظات، و" ان يرافق يسوع، قدر المستطاع، في شدائده ".

لا ننسَ هذه الروحانية كلها، وكل المعنى الذي يسعه أن يعطيه للكلمات في ذلك الوقت. حتى وان لا نجد ارتياحَنا في هذا المظهر المتَّسم بالألم، إلا ان باستطاعتنا ان نفهم اللغة التي يستخدمها. وليست هذه لغة العصر فحسب، بل لغته، لغة مزاجه، اللغة التي ألهمته اياها هذه التضحية. ودوفيرييه، في عدم ايمانه، لم يستطع ان يميّز من اين يأتي هذا التغيير الذي كان يراه عند صديقه. وكان يقلق لهذا الأمر : " انها طبيعة متميزة، واخشى ان يكون رجلاً اصابه مرض نهائي او ان يكون مصابًا بعمق في عواطفه "[٩]. كما في خطابه النبوي في الجمعية الجغرافية، لقد وجدَ هنري دوفيرييه الكلمات : " مرض نهائي "، " مصاب بعمق ". انها الكلمات المناسبة لطرح السؤال. ومتصوف مسلم، ابن العربي، هو الذي أجاب على هذا السؤال سابقًا : " ان من كان

---

(٨) رينيه بوتييه، امير صحراوي مجهول هنري دوفيرييه، باريس ١٩٣٨، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٩) الموضع نفسه، ص٢٢٠ : رسالة إلى السيد مونوار في ١٨٨٨/٢/١٨.

مرضه يُدعى يسوع، لا شفاء له ! " ان الايمان الحي وحدَه، الذي انقلب منذ ثلاث سنين إلى اندفاع محِبّ، يسعه ان يشـــرح لنا ان هذا الانســـان يمكنه ان يجابه قطيعـــة نهائية عن جميع الذين واللواتي كانوا أحباءه، في انتـــزاع مؤلم مثل ذلك الذي تكلمنا عنه. ألم يكتب إلى غبريال تورد، في ١٨ تشرين الثاني ١٨٨٥ : " نحن كلانا من الفلاسفة إلى حدّ الافراط حتى لا يسعنا ان نتصور ان يكون في العالم شيء نهائي ". الا ان اعجوبة هذا الايمان هي انه استطاع ان يحيا هذه الحالة في السلام والفرح، حتى موته، في ثبات مدهش.

وسيكون ثمة نوع من تجديد هذه التضحية بعد بضعة أشهر، حينما سيترك فرنسا ويتوجه إلى " أقبـــس ". كان من الاعتيادي ان يظل في ســـيدة الثلوج سنتين للابتداء. وفي ٢٦ كانون الثاني، عيد القديس ألبـــيريك، وهو راهب كان يُعيّد في دير السكوتيين، يتوشحُ بالثوب الرهباني باسم الأخ ماري - البيريك، ويبدأ فترة الابتداء. وفي سبيل تجنب فترة من الخدمة العســـكرية تضطره اليها رتبته كضابط احتياط، نال من الدير الســـماح بالذهاب على الفـــور إلى أقبس. وإذ ذاك أَخبرَ المسؤولين العسكريين بذهابه إلى الخارج. ولذلك فقـــد أُعفي من فترة الخدمة هذه. ومن جهة اخرى، نعلم منه نفســـه انه ما كان يجد في دير سيدة الثلوج ما جاءَ يبحث عنه، ولكنه كان يحتمل ان يعيش فيه وهو يفكر في ان يجد ذلك في أقبس.

وفي ٢٧ حزيران ١٨٩٠، عشية إبحاره من مرسيليا، كتب ايضًا إلى ابـــنة عمته :

" أراني على الباخرة التي ستذهب بي غدًا. ويبدو لي اني سأشعر بـــجميع الأمواج التي، الواحد، تلو الآخر، ستُبعدني... ويبدو لي ان وســـيلتي الوحـــيدة ستكون في تفكيري ان كلاً منها خطوة جديدة نحو نهاية الحياة ".

٦- يوم التضحية الكبرى .....

وكانت مغادرة الباخرة العلامة المنظورة للفراق الاكبـــر الذي كان يريد ان يضعه بينه وبين ذويـــه. وفي ٨ تموز، كتـــب ايضًا إلى ابنة عمتـــه : " غدًا سأكون في الكسندريت، وسأقول وداعًا لهذا البحر، وهو الرباط الأخير مع هذه البلاد التي تعيشون فيها جميعكم. " انه كان حقًا عبور الفراق والابتعاد !

- ٧ -

سبع سنوات في دير السكوتيين

ان الاقامة في دير السكوتيين تُمثّل في حياة شارل دي فوكو اطول مدة من السكنى الثابتة : سبع سنوات ! فالأشهر الستة الاولى في دير سيدة الثلوج، ثم في أقبس حتى شهر ايلول سنة ١٨٩٦، ومن هناك أُرسل إلى دير السكوتيين في " الستاولي " قرب الجزائر العاصمة. لبضعة اسابيع، واخيرًا في روما.

فهذه المدة طويلة نوعًا ما. ولكنه من الواضح انه لا في دير أقبس ولا في دير سيدة الثلوج، لم يستطع ان يحقق مثلَه الأعلى الذي لمحه في طرقات الناصرة وصمَّمه حسب مقاييسه. ومع ذلك كان من الصعب تصوُّر دير للسكوتيين أفقر من دير أقبس. فقد أُنشئ حديثًا، وكان ما يزال في مرحلة التشييد. وكان الرهبان فيه يعيشون في اكواخ تفصلها طُرقات من طين. ولكن لمن يأتيها برغبة ان يصبح فقيرا أكثر فأكثر، اقتداء بيسوع الذي يضعه في الموضع الأخير وفي أقصى درجة من الفقر، فمجرد فكرة البناء والاستقرار تكون مناقضة لما يصبو اليه. اما حياة العالم، مثل حياة الفرقة، فانها تأخذ اتجاهًا معاكسًا.

ان الرسائل الاولى التي كتبها من أقبس تُظهره لنا سعيدًا نسبيًا في الدخول إلى حياة الدير. في ٢ شباط ١٨٩٢ أبرز نذوره البسيطة. وفي اليوم نفسه، كتب إلى ابنة عمته : " وهوذا اني لم اعد ملكًا لنفسي في اي شيء كان ! " وحتى لقد كتب انه لم يشعر بكونه سعيدًا قط مثل الآن، في غبطة روحية، ما عدا ما شعر به لدى عودته من الحج إلى الاراضي المقدسة، بعد الاستنارة التي تلقاها في الناصرة.

٧- سبع سنوات في دير السكوتيين .....

ولكن سرعان ما شرعت، خلال هذه السنة نفسها، ولاسيما خلال السنة اللاحقة، تظهر انتقادات موجّهة إلى الرهبانية السكوتية، وذلك لأسباب واهية، ولاسيما بسبب تغيير المشترعات. فقرَّر اجتماع عام للسكوتيين توحيد الرهبانية، وطبق الرئيس العام للسكوتيين القانون نفسه على جميع الاديرة. وفي نظرة الاخ ماري - ألبيريك، لا يمشي هذا الامر ابدًا في اتجاه الكمال. وكان يفضّل ان يكون كل دير مستقلاً ويبحث عن اتّباع القانون حيثما يوجد الدير، وذلك اهتمامًا بالوصول إلى الكمال. وإلا فيُضطرون إلى تبنّي حلّ " وسط " يتعرض لخطر ان يُصبح متوسط الرداءة. وحينما سيقرأ المشترعات من أقرب، فانه سيلاحظ رغم كل شيء ان النص يقدّم أوجهًا ايجابية.

إلا ان مسألة اخرى تشغله وتدفعه إلى الكتابة في ٢٢ أيلول ١٨٩٣ إلى الأب هوفلان : " نزولاً عند امر الأب الاقدس، حققوا تغييرات ناجحة جدًا في الرهبانية. الا ان هذه التغييرات وهذه التحسينات لا تمنع الشر من التفاقم ". أما كان يَعتبر ان فيروسًا، مع جميع نتائجه، قد أصاب الحياة الرهبانية ؟

" ولكن لن يفعلوا سوى الابتعاد اكثر شيئًا فشيئًا عن الفقر والتواضع وعن هذه الحياة الصغيرة المتواضعة، حياة الناصرة التي جئتُ أبحث عنها، والتي انا بعيد كل البعد عن التخلّي عنها، والتي اتألم اذ ارى الرب يحياها وحَده، دون ان تفكر اليوم أي نفس واي مجموعة من النفوس في الكنيسة في عيشها معه، وفي ان تتقاسم لأجل محبته وفي محبته، سعادة العذراء القديسة والقديس يوسف ".

واذا لا يفكر أحد في الأمر، الا يترتب عليه التفكير فيه ؟ ويضيف قائلاً للأب هوفلان :

" الا تكون ثمة وسيلة لتشكيل جمعية صغيرة لتعيش هذه الحياة. لكي نحيا

فقط من عمل أيدينا، كما كان يفعل الرب الذي لم يكن يعيش من التسـوّل ولا من التقدمات ولا من عمل فعلة غربـاء يكتفي بـتوجيههم[1] ؟ ألا يمكن ايجاد نفوس لتتبع الرب في هذا، لتتبعه حسب جميع مشوراته، بـالتخلي المطلق عن ملكية، جماعية كانت أم فردية، وبالنتيجة ان يمنعوا كل ما يمنعـه الرب، اي كل محاكمة، وكل مماحكة وكل مطالبة، وان يعتبـروا الصدقـة واجبًا مطلقًا، وان يعطوا ثوبًا حينمـا يكون لهم ثوبان، وان يعطوا طعامهم للذين لا طعـام لهم، دون الاحتفاظ بشيء للغد... جميع أمثلة الحياة الخفية، وجميع المشورات الخارجة من فمه... حياة عمل وصلوات، وليس نوعان من الرهبـان، كما هو الشأن في سيتو، بل نوع واحد، كما اراده القديس بندكتس... وليس ليتورجيـا معقّدة للقديس بندكتس، بل تأمل طويل، ووردية، والقداس الإلهي. فليتورجيتنـا تغلق باب اديرتنا بـوجه العرب والأتراك والأرمن، ...الخ، الذين هم كاثوليك جيدون، ولكنهم لا يعرفون كلمة من لغاتنـا. وكـم اودّ ان أرى مثـل هـذه الاعشاش الصغيـرة من الحياة المضطرمة والعاملة، تمثّل حياة الرب وتكـون تحت حمايته وتحت حراسة مريم ويوسف، بالقرب من جميع ارسالات المشرق المنعزلة جدًا، لكـي تقدم ملجأ لنفوس الناس الذين هم في هذه البلدان الذيـن يدعوهم الله إلى خدمته وإلى محبته وحدها... !

هل هذا حلم، ايها الأب، وهل هذا وهم من الشـيطان، ام هل هي فكرة او دعوة من الله ؟ لو كنتُ اعرف ان الأمر يأتي من الله، لقمتُ اليوم حالاً وليس غدًا بالأجراءات الضرورية للدخـول في هذه الطريقة... حينما افكر في هـذا الأمر أجده كاملاً : ان اتبع مثال الرب ومشـوراته، ولن يكون هذا الأمر الا ممتازًا... وفضلاً عن ذلك، فان هـذا هو ما بحثتُ عنـه دومًا، وفي سـبيل

---

(١) كانوا قد طلبوا منه أن يراقب عمل طريق (عن رسالة إلى عاري دي بوندي في ١٨٩٣/٢/٢٨).

وجوده فقط أتيت إلى هذا الدير. فهي ليســت دعوة جديدة. فلو وجدت اجتماعًا للنفوس مثل هذا قبل بضع سنين، لهرعت إلى هناك فورًا، كما تعلم. وبما انه لا يوجد ولا يوجد شيء يدانيه، ولا شيء يقوم مقــامه، الا يجب ان نحــاول تشكيله ؟... وتشكيله رغبة في ان يمتد خاصة إلى البلدان الغربية، المســلمة، او غيرها ؟... أكرّر اني حينمــا أرى الموضوع أجده كاملاً... ولكني حينمــا انظر إلى الفاعل الذي جاءته هذه الفكرة، وجاءته بكذا حرارة !... والفاعل هو هذا الكائن الضعيف والبائس الذي تعرفه، ولا ارى فيه المادة التي يســتخدمها الله عادة لتحقيق امور جيدة. انه يستخدم المواد الجيدة لعمل المشاريع الجيدة... صحيح انه بعد البداية، إن كانت الفكرة آتية من الله، هو الذي يوليها الازدياد، وسيجلب سريعًا نفوسًا قادرة ان تكون الحجارة الأولى لبــيته، نفوسًا ســأظل امامها بالطبع العدم الذي هو موضعي. وهناك شيء آخر يوليني الشجاعة للبدء بعمل لا يتناسب كثيرًا معي انا الخاطئ ومع شقائي، وهو ان الرب قد قال اننا حينما نكون قد أخطأنا كثيرًا، علينا ان نحــب كثيرًا. هذا هو، ايها الأب، فهل تظن ان الأمر يأتي من الله ؟ انما حسب هذا الجواب وحسب رأيك ســأتوجَّه، كما تعلم، لأن الاب يبقــى دومًا أبًا، ولاســيما انت تجاهي !... فترى كم انا محتاج اليك !... وهذه الفكرة منذ شهرين هي من القوة لديّ بحيث لا اعتقــد ان عليَّ أن اسكت عنها لمعلم اعترافي، الأب بوليقربس. فكلّمتُه عنها منذ نحو خمسة عشر يومًا، ولكن بأقل تفاصيل مما أفعله ههنا. فنصحني بأن ادع هــذه الفكرة تنام الآن بدون ان انشغل بها، إلى ان تسنح فرصة... وهذا كان ايضًا ما أفكر في عمله. ولكن الفرصة ستأتي حتمًا في نحو اكثر من سنة، حينمــا يأتي وقت ابرازي النذور الاحتفالية (المؤبدة) [...] اما الآن فأحــاول ألا افكر فيها، ولكني لا افلح كثيرًا. في أي حال، كان يجب ان اقــولها لك، وقــد تمَّ ذلك... اواصل دراسة اللاهوت بفرح كبير [...] وفيه أربــع صفحــات عني، وهذا أمر يُحزنني ويُرعبني ".

٧- سبع سنوات في دير السكوتيين .....

وللأســف، ليس في حــوزتنا جواب الأب هوفلان، ولكننا نعلم انه أوصاه بالانتظار، وبألا يتكلم عن هذا من بعد، وان يعكف على حياة الدير.

وسيعيش سنة ١٨٩٤ في السلام. وكان في ١٥ تشرين الثاني ١٨٩٣ قــد كتب إلى ماري دي بوندي :

" انتظر ... انا في الحالة التي كنتُ فيها قبل دخولي دير السكوتيين، غافلاً عن رغباتي المتعلقة بالمقصد [...] لي شوق شديد إلى اتّباعه من أقــرب ... ولكن هل هذه ارادته ؟ اني اجهل ذلك. عليَّ، لمحاولة حياة اخرى، ان اعرف ماذا يريد ... انتظر بسلام كبير ان تظهر مشيئته ".

وجرت احداث عديدة سنة ١٨٩٥، ولا سيما مجازر الارمن المختلفة. ولكن علينا ان نحدّد كلامنا. لذا نكتفي بسرد الرسالة التي كتبــها إلى الأب هوفلان في ١٦ كانون الثاني ١٨٩٦ :

" ان نفسي دومًا كما هي تمامًا : المشاعر نفســها، والتطلعات نفســها، لم يتغير شــيء منذ الخريف الماضي : ويزداد الثبــات مع الزمان... [...] ولا اكتب اليك اليــوم من أجلي. ربمــا تعلم بالأمــور المرّوعة التي جــرت في مناطقنا. اما نحــن فننعم في ديرنا بهدوء عميــق، وانا فيه في ســلام وكأن الارض لا توجــد. ولكن خلال هذا الوقــت، جرى على مســافة قريبة، فــي أرمينيا، مجازر رهيبة : يدور الكلام حول ٦٠٠٠٠ قتلى. اما الباقون على قيد الحياة، فعلى خرائب قراهم المحروقــة والمسلوبة تمامًا يخيّم الشقاء والجــوع والألم الرهيــب. وبدا لي ان الأمــر الوحيد الذي يمكنني عمله لأجــل هؤلاء البؤساء هو ان أصف لك حالهم. حتى اذا ما عرفت شــخصًا يســتطيع ويريد إغاثة هذه المصائب، توجّه إحسانه نحو هذه الجهة ".

فنرى ان رجل العمل لا يستطيع ان يظل بغير شــعور، وعليه ان يعمــل شيئًا، وعلى الفور.

في ٢ شباط ١٨٩٦ جدّد الأخ ماري – ألبيريك نذوره، ولكنه يتمنى حياة الناصرة اكثر فأكثر. وفي ١٩ آذار، عيد القديس يوسف، كتب إلى مرشده ليطلعه على احواله، وفي الاستعداد للنذور الاحتفالية التي سيُبرزها في السنة التالية، ان يذكرّه ان عليه ان يتخّذ قراراً. ولقد أجاب الأب هوفلان في ١٥ حزيران على هذه الرسالة التي اختفت :

" قرأت رسالتك وأعدتُ قراءتها. ولقد جعلتك تنتظر جوابي طويلاً، وانت عطشان جدًا ! ولكني كنت اعتبر انك لا تضيع وقتك، إذ تدرس اللاهوت، الذي فيه تتلقى معطيات أكيدة وواسعة، واذ تُعدّ في هذه التعاليم روحَك وقلبَك في سبيل تصوّف أكيد وبدون أوهام. كم كان القديس برنردس متغذيًا بالكتاب المقدس وبالقديس اوغسطينس ! وكم ان تعليمه التصوفي الأكيد هو مثل زهرة وُلدت من الحقيقة الدينية نفسها ! ابني الحبيب، انتَ اذًا لم تضيع وقتك !

كنت قد رجوتُ، يا ابني الحبيب، انك ستجد في الدير ما تبحث عنه، وانك ستجد فيه فقرًا كافيًا وتواضعًا وطاعة، لكي تستطيع ان تتبع الرب في حياته في الناصرة. كنتُ اعتقد انه سيتسنى لك ان تقول لدى دخولك اليه : " هنا راحتي إلى دهر الدهور "... فآسفُ لعدم تحقيق هذا الأمر. هناك دفعة قوية جدًا نحو مثل اعلى آخر، وتبلغ شيئًا فشيئًا، بقوة هذه الحركة، إلى الخروج من هذا الاطار، وان تجد ذاتك في موضع آخر.

انا لا اظن ان في وسعك ان تحذف هذه الحركة – قلْ هذا لرؤسائك في دير السكوتيين في الستاولي[٢]... قل فكرتك بكل بساطة – قل في الوقت نفسه

---

(٢) لم يكن دير أقبس مرتبطا من بعد بدير سيدة الثلوج بل بدير سيدة الستاولي، وهذا دير مزدهر قرب الجزائر التي كانت تضمن بقاءه. لان الأب لويس غنزاغا، وهو أخو الأب مارتن رئيس دير سيدة الثلوج، قد صار أول رئيس لدير أقبس قبل تعيينه في الستاولي. وكانت تربطه علاقة صداقة حميمة بالأخ ماري – ألبيريك، وسيبذل كل جهده لكي يحفظه في دير السكوتيين.

تقديرك العميق للحياة التي تراها حولك، والحركة التي لا تُقهر التي منذ وقت طويل، ومهما فعلت، تحملك إلى مثل اعلى آخر... قل ذلك، يا ابني الحبيب، حيث انت الآن، اظن انك تقدر ان تفعل ذلك... بل يجب عليك ان تفعله، لان انقسامًا أليمًا يجري في نفسك، وانك لستَ من بعدُ في موضعك (...).

لا اتركك تنتظر، كما ترى، مهما كنتُ اسف لذلك، ومهما كان التقدير الذي عندي تجاه الدير الذي دخلتَ اليه، ليس لأني اعتقد انك مدعو إلى اعلى... انا لا اراك فوق... آه كلا - بل انك تشعر بكونك مرفوعًا إلى موضع آخر. فلا اجعلك تنتظر من بعد. أبرز رسالتك - تكلمْ. اكتب إلى الستاولي. كنتُ اودّ كثيرًا ان احفظك في أسرة حيث انت محبوب، وكان في وسعك ان تعطي لها الكثير [...].

أحبُّ كثيرًا أنهم قد سلموا اليك هذه النفوس ".

لا يتوقف الأمر على مبتدئين، بل على يتيمين كانا قد التمسا الدخول إلى الدير. وقد قُبلا مثل راغبين، وكان للأخ ماري - البيريك مهمة تنشئتهما. وهذا من شأنه ان يشرح جزئيًا انه في نحو شهر ايار، بدأ يكتب تأملات في الانجيل[٣]، وتناول مقاطع تتعلق بالصلاة والايمان. وهذا النص الذي هو الأول في الزمان، هو الذي حُفظ. وهذه هي التأملات التي وضعها رينيه بازان بصواب في بداية " كتاباته الروحية "[٤]، بما انها الاولى التي لدينا. وكل ما كان الاخ ماري - البيريك قد كتبه من قبلُ - لأنه كتب كثيرًا بعكس ما قيل لاحقًا - اختفى، بل هو الذي احرقه. وسيندم على ذلك لاحقًا. ولسنا مطلعين على كمية الكتابات المحروقة. لكن هذا النص من التأملات، الذي جاء في

---

(٣) شارل دي فوكو، روح يسوع، باريس ١٩٧٨.

(٤) رينيه بازان، الكتابات الروحية للشارل دي فوكو، باريس ١٩٥١.

كراس صغير عملَه هو، كان يحمل الرقم (٦). فكان لا بدَّ ان خمسة تأملات اخرى تسبقه، ولكنها اختفت !

من الصعب جدًا تحديد تاريخ هذه التأملات، لأنها تخلو من أي أشارة لا إلى حياته الشخصية ولا إلى الفترة الليتورجية. حسب رأينا، لا يمكننا وضعها إلا في نهاية إقامته في دير السكوتيين في أقبس. وفي هذا النص، نجد التأمل في الصلاة الربية التي استنسخها من جديد بعد ذلك، بتاريخ يحدونا إلى الاعتقاد إلى انها وضعت في يوم كتابتها. الا ان هذا التاريخ هو تاريخ النسخة الحرفية لما كُتب في وقت سابق. في هذه الكتابات التي تأتي في نهاية القديس لوقا، يتأمل في صلاة يسوع على الصليب : " أبتِ، إني أستودع نفسي بين يديك ". ومن هذا النص استلوا ما نسميه بـ " صلاة تسليم الذات "[٥].

وما ان استلم الاخ ماري - ألبيريك رسالة الأب هوفلان، حتى قام بإجراء رسمي فيه طلب ترك دير السكوتيين. ولكنه قد كتب على ورقة بمقياس ٢١×٢٧ مطوية إلى قسمين، والكل يشغل مساحة ورقة ونصف، قانونًا أولاً[٦] للذين سيأتون ليعيشوا معه. انه نص ذو أهمية كبيرة وهو معنون " جمعية اخوة يسوع الصغار " وهو ذو طابع قوي ومطلق حيث تتجلى نزعته الجذرية تمامًا. وحينما استلم الأب هوفلان هذه الوثيقة، أجاب عليها في ٢ آب ١٨٩٦ :

" آه كم أتألم، يا ابني الحبيب المسكين، وكم الوم نفسي على هذا القرار المعطى على مضض، وأنا أشعر بأن الأمور لا يمكن ان تستمر هكذا لك، مع المشاعر التي كوَّنتها لنفسك، ومع الاحكام التي تطلقها على كل ما يحيط بك،

---

(٥) راجع انطوان شاتلار : " الكتابة الروحية الأولى لشارل دي فوكو " ١٩٩٢.

(٦) شارل دي فوكو، قوانين ومحضر، مونروج ١٩٩٥، ص٢٧.

ليس على الاشخاص بـــل على طريقـــة العيش ذاتها ! ان النعمة التي ألتمسُها لك، يا صديقي العزيز، ويا ابني الحبيب، ستكون ان تجعل ذاتك صغيرًا جدًا، وان تختفي في زاوية من هذا الدير الســكوتي حــيث انت، وان تعتقــد بــأن الانسان يتبع الرب، ويكون معه، حينما يطيعه، وحــينما يتواضع... فالناصرة هي حيثما يشتغل المــرء وحيثما يكون خاضعًا... انه منزل نقيمــه في القلب، او بالأحرى ندعه يُقام فينا بيدي يسوع الطفل الوديع ومتواضع القلب !

كم أتألم، يا ابني ! واذا رفضوا السماح الذي تلتمســه، فابقَ - وانت ترى في ذلك ارادة الله - في الظلام وانتظر ! ولا أرى ان عليك ان تفعل ســوى هذا... استمر في دراسة لاهوتك. واذا طلب منك رؤساؤك ان تقوم بمحــاولة اخرى، فاعمل ذلك بنزاهة. ان مــا يفزعني خاصة، يا ابني الحبيب، ليســت الحياة التي تفكر فيها لنفســك اذا ما مكثتَ منعزلا، ولا القديس ألكسيس، كما تقول[٧]، بل ان أراك تؤسس او تفكــر في تأسيس شــيء. وبصفتي مرشــدا للنفوس، يا ابني، اني لا أراك في هذا العمل ! ان قانونك غير قابــل للتطبيق مطلقًا. وهذا ما يبدو لي دون شــك. فكان البابا يتردد في منح تأييده للقانــون الفرنسيسكاني، اذ كان يراه قاسيًا إلى حدّ الافراط... ولكن على هذا القانون... الحق اقــول لك، لقــد أفزعتني ! عِشْ : على بــاب جمعية، في الهوان الذي تتمناه... ولكن لا تكتب قانونا، أرجــوك. ترى يا ابني ان ألمي لا يُصــدَّق. وحينما كتبتُ اليك رسالتي، كنتُ اشعر بأن الامــور ما كانت لتدوم لك هكذا. فالحياة التي اعتنقتها، كنت تحكم عليها ولا تدخــل اليها من بعد. لم يعد ثمــة روح الحياة الرهبانية، بل روح منفصل ! وهذا ما حــداني إلى الكتابــة إليك

---

(٧) نموذج الحياة الفردية النسكية.

هكذا. ولكن كـم انا مضطرب ! افتح قلبك لرؤسـائك. واهتدِ بنور الطاعـة البسيطة. ولاسيما لا تؤسسْ شيئًا. واذا كنت غيـر راضٍ مطلقًا بروح القديس برنردس والسكوتيين : فعش في حيـاة اخرى، ولكـن لا تجلب اليهـا رفاقًا، ارجوك ".

" في هذا الشرق، كنت تستطيع ان تؤدي خدمة لرهبانيتك، وتظهر جمالها ورسوخها وعظمتهـا، وان تكون نافعًا لها بألـف طريقة... ان تتغمـس في التقشف ولا سيما في التواضع. اما التقشف، فلن تجده كافيًا ابدًا. في نفسـك، ستقول دومًا : ما هـذا ؟... ثم بعـد ؟... انت تحتاج إلى حماية ضد هـذه الحركة إلى اللامتناهـي التي تجلب الحـزن ولا تدع الانسـان يسـتقر فـي موضع ما. هذه الحركة ليست ممكنة الا في القلوب التي لا إفراط فيها.

آه، ان رسالتك سببت لي الألم، يا بنيَّ. كنت أظن انك ستنتظر بعـد. على أي حال، ضع نفسك تحت تصرّف رؤسائك.

تلقَّ القرارات بسذاجة. ادرس اللاهوت. وخاصة لا تؤسس شـيئًا. أنا معك قلبيًا... من كل نفسي أصلي من أجلك.

أبرز رسالتي، يا ابني !

صدِّق ودّي الصادق والعميق والمؤلم في الرب ".

نص تأمل الأخ ماري - ألبيريك

ومنه استُلّت الصلاة المسماة " صلاة تسليم الذات "

- ٢٣,٤٦ - " أبتِ، اني اسلم روحي بين يديك " -

انها الصلاة الأخيرة لمعلمنا وحبيبنا... ليتها تكون صلاتنا... وان تكون ليس صلاة لحظتنا الأخيرة فحسب، بل صلاة جميع لحظاتنا : " أبتِ، اني اسلم ذاتي بين يديك، أبتِ انيِ استودع ذاتي اليك، أبتِ، استسلم اليك. أبتِ، افعل بي ما تشاء، مهما فعلتَ بي، فأنا شاكر لكَ. أشكرك على كل شيء، وأنا مستعد لكل شيء، وأرتضي بكل شيء، واشكرك على كل شيء، لكي تكمل ارادتك فيَّ، يا إلهي، ولكي تكمل ارادتك في جميع خلائقك، في جميع أبنائك، في جميع الذين يحبهم قلبُك. اني لا أشتاق إلى شيء آخر، يا إلهي، اني أضع نفسي بين يديك، واهبها لكَ، يا إلهي، بكل ما في قلبي من الحب، لأني أحبك، وواجب المحبة هو أن أعطي ذاتي، وأضعها بين يديك، بثقة لا حدَّ لها، لأنكَ أبي.

Texte de la méditation du frère Marie-Albéric d'où a été extraite la prière dite « prière d'abandon »

—— 23.46. —— « Mon Père, je remets mon esprit entre « Vos mains. » —— C'est la dernière prière de notre Maître, de notre Bien-Aimé .... Puisse-t-elle être la nôtre. .... Et qu'elle soit non seulement celle de notre dernier instant, mais celle de tous nos instants : « Mon Père, « je me remets entre Vos mains ; mon Père, je me confie « à Vous ; mon Père, je m'abandonne à Vous ; mon « Père, faites de moi ce qu'il Vous plaira ; quoi que Vous « fassiez de moi, je Vous remercie ; merci de tout ; je « suis prêt à tout ; j'accepte tout ; je Vous remercie de « tout ; Pourvu que Votre Volonté se fasse en moi, mon « Dieu, pourvu que Votre Volonté se fasse en toutes « Vos créatures, en tous Vos enfants, en tous ceux que « Votre Cœur aime, je ne désire rien d'autre, mon « Dieu ; je remets mon âme entre Vos mains ; je Vous « la donne, mon Dieu, avec tout l'amour de mon « cœur, parce que je Vous aime, & que ce m'est un « besoin d'amour de me donner, de me remettre en « Vos mains sans mesure ; je me remets entre Vos « mains avec une infinie confiance, car Vous êtes mon « Père. »

-٨-

فعل الاستسلام

بعد ان تلقى الاخ ماري – البيريك موافقة الاب هوفلان قـدَّم طلبـه إلى الأب العام للسسترسيين لكي يُعفى من نذوره البسيطة، فيترك الرهبنة السكوتية. وقبل ان يُتَّخذَ قرارٌ في شأنه، أُرسل إلى دير سيدة الستاولي ليمضي هناك وقتاً للتفكير، وحيث سيجد الاب لويس دي غنزاغا رئيس هذا الدير. وفي نهاية هذه الإقامة التي دامت شهرًا (تشـرين الاول ١٨٩٦) قـرَّر ان يذهب لمواصلة دروسه في روما مدة سنتين في الأقل وثلاث سـنوات في الاكثر. فذهب اليها مع الاب هنري الذي سيكون طالبًا مثله.

ويمكننا ان نقرأ الرسـائل الاولى التي كتبـها من روما إلى الاب جيروم، وهو راهب شاب وكان جارَه في الخورس في دير الستاولي، وقد ربطته مودّة عميقة بهذا الراهب الكبير ذي الماضي الشهير، الآتي من الشرق وهو اكبـر سنا منه بكثير ويحمل هالة من القداسة.

عند وصوله إلى روما، تخلى عن تأملاته في الانجيل التي كان قد بـدأها في نهاية اقامته في الدير. وفي كراس آخر من النموذج نفسـه (وقـد صنعه بخيوط وغلّفه بأوراق جريـدة طواها ثماني طيـات)، يبدأ تأمـلات من نوع مختلف جدًا. انها تأملات في العهد القديم تبدأ بالفصل الأول من سفر التكوين. انها أسهل للتحديد من السابقة، لانها تشير إلى مشـاكله الآنية. فيتكلم فيها عن قرب التزاماته (نذوره) المؤبدة، وعن رغبـته في النزول إلى الموضع الأخير في حين ان دير السكوتيين يريد ان يرفعه، ونرى فيها بحـثه عن ارادة الله.

وفي بعض الأيام يعود بنوع أوضح إلى خياراته السابقة :

" فقر، وهـوان، وتوبـة، انت تعلم يا إلهـي ان رغبتي الوحيـدة هي ان أمارسها بالمقياس وبالطريقة التي تريدهما مني... ولكن ما هذا المقـياس وما هذه الطريقة ؟ "[١].

ان بعض التأملات المؤرخة في الميلاد ٢٦ و٣١ كانون الاول و١ كانون الثاني تظهر لنا انه اذا كانت هذه التأملات يومية، فقد توقـفت في ١٥ كانون الثاني ١٨٩٧. ولكنه في هذا التاريخ، دون ان ينقطع عن الدراسة، يعكف على نوع من الرياضة، انتظاراً لقرار رؤسائه في دير السكوتيين، هذا القرار الذي يجب ان يصدر قبل نهاية الشهر، حـال رجوع الأب الرئيس الذي كان يقـوم بسفر آنذاك.

ومن المحتمل ان الأخ ماري - ألبيريك كان قـد وعدَ الأب جيروم بـأن يرسل اليه بعض نصوص من تأملاته. فكتب اليه في ٢١ كانون الاول :

" يجب ان اشكرك على الورق الذي ارسلتَه لي بغزارة كبيرة. وقد شرعت استعمله. سأحاول ان أنهي هذا العمل أسرع ما امكن. شكرًا "[٢].

أي عمل كان يقتضي ورقًا ؟ اليس انه في ذلك الوقـت، قبـل ٢١ كانون الأول، قد شـرع باستنساخ التأمـلات في الانجيل على كراس جديد[٣]، هـذه التأملات التي كان قد عملها في أقبس ؟ انه عمل نظيف، سهل جدًا للقـراءة،

---

(١) من يستطيع، ص٦٤-٦٥.

(٢) الموضع الأخير الحبيب، ص١٤٧.

(٣) ان هذا الكراس هو الآن في حوزة عائلة دي فوكو. فان الأب هنري الذي كان قد احتفظ بـه كذكرى، أرسله إلى لويس دي فوكو، ظانا ان شارل دي فوكو كان يفضل إرساله اليه. وبالفعل كان شـارل في ذلك الوقت ينتظر في روما ابن عمه لويس، ولكنه لم يستطع المجيء.

نقله حرفيًا وبدون تصحيحات تقريبًا.

في نحو ١٥ كانون الثاني ١٨٩٧، أنهى هذا المخطوط الذي يحتوي على التأمل في الصلاة الربية. وهو ينقلها على حدة مرة اخرى في ٢٣ كانون الثاني. وفي ذلك اليوم، تلقى السماح بترك دير السكوتيين. وطوال اسبوع آخر، سيعمل ويعيش وكأن شيئًا لم يتغير في حياته. ولا أحد يعلم بذلك في دير السكوتيين. وفي ذلك اليوم توقف عن الاستنساخ ويؤرخ النسخ في هذا اليوم المبارك الذي فيه ظهرت له ارادة الله بوضوح. انه تاريخ مهم في حياته، بعد تاريخ ١٥ كانون الثاني ١٨٩٠. وهذا ٢٣ كانون الثاني ليس يوم أربعاء، كما يكتب ذلك خطأ، ولا يوم جمعة، كما يؤكد ذلك المونسنيور جاكلين في طبعة نصوصه، بل هو يوم سبت، عشية عيد العائلة المقدسة. ونقرأ في كراسه : " لقد اخبرني الأب العام : ان ارادة الرب هي ان أترك الرهبانية لكي اتبعه في الهوان والفقر... ". ونقرأ في الكراس الآخر حيث كان قد أشار " تركتُ شارع أنجو " :

" تلقيتُ قرارَ رئيسي العام ان ارادة الله هي ان اخرج من الرهبانية لكي اتبع الرب في هوانه وفي فقره. الاربعاء ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٧، عيد خطوبة العذراء مريم القديسة للقديس يوسف وعشية عيد العائلة المقدسة ".

ولكي نتحقق مما يمثله هذا اليوم، يمكننا ان نقرأ ما كتبه قبل ذلك بوقت قصير، في تأملاته في العهد القديم :

" بوركتَ أيها القديس ابراهيم ! وبوركت أيها القديس اسحق يا من تركت ان يربطوك على المذبح بكل وداعة. يا إلهي، الذي تنبتُ بذوراً من مثل هذه الفضائل بين البشر، بوركتَ إلى دهر الدهور ! الحب هو طاعتك، وطاعتك بسرعة وإيمان، في كل ما يجرح القلب ويقلب الروح، في ما يقلب كل الأفكار

التي صغناها لنفسنا. الحب هو التضحية المباشرة والمطلقة بأحبّ شـــيء لدينا لإرادتك [...] تضحية الابن الوحيد بكل ما هو أغلى في قلبنا وأعزّ ما لدينا... الحب هو ان نستَبدل كل الخيرات بجميع الآلام محبةً بالرب !... "(٤).

يمكننا ان نظن انه كان يتذكر التضحية التي قام بها في ١٥ كانـــون الثاني ١٨٩٠، ولكن الأمر أكثر من هذا :

" هذا ما تفعله [...] أيها القديس ابراهيم، وهذا ما ستفعله، يا ابـــن الله إذ تأتي من السماء على الأرض لكي تحيا أي حياة وتموت أي موت !... ربـــي وإلهي، اجعلني ان افعله أيضًا، بحسب ارادتك المقدسة. أيها القـــديس ابـــراهيم والقديس اسحق، صلّيا من أجلي ! "(٥).

وفي منتصف كانون الثاني ١٨٩٧، عاش من جديد تضحية ابـــراهيم. فانه كان مستعدًا ليضحّي بكل ما كان يشتاق إليه. وكل ما كان يحـــمله في قلبـــه وكان يدفعه إلى التماس مغادرة دير السكوتيين. وإذا كان ثمة وقت ترتَّب عليه ان يستسلم فيه إلى قرار شخص آخر استسلامًا كليًا، انما كان في هذه الأيام. وهذا ما يكتبه إلى الأب جيروم في ٢٤ كانون الثاني :

" لقد ترتَّب عليَّ ان امارس الطاعـــة كثيرًا في هذا الاســـبوع. والآن عليَّ أيضًا ان امارس الطاعة وكذلك الشـــجاعة : [...] منذ ثلاث ســـنوات ونصف الســـنة اطلب ان اجتاز من صنف راهب الخورس، إلى صنف الخَدَم، ســـواءً كان ذلك في هذه الرهبنة أو في رهبنـــة أخرى في الشـــرق. أظن ان دعوتي هي ان أنزل. وبسماح من معرّفي، كنتُ قد أقـــدمتُ على هذا الطلب. فأمرني

---

(٤) من يستطيع، ص٦٤-٦٥.

(٥) الموضع نفسه، ص٦٤-٦٥.

رؤسائي، قبل ان يستجيبوا لطلبي، بالذهاب إلى السناوني وقضاء بعض الوقت هناك. وحينما وصلتُ إلى هناك، فوجئتُ بأمر تلقيته، يوعز إليّ بالذهاب إلى روما. وهنا، حيث كنت اعتقد انهم سيجعلونني انتظر طويلا السماح الذي كنت أتوق إليه منذ أمد طويل [...]، أخذني أبونا العام الجليل [...] وفحص مشاعري، وفكر في دعوتي، وصلّى، وجمع اعضاء مشورته، وكلهم، بالاجماع، اعلنوا ان ارادة الله هي ان اتبع هذا طريق الهوان والفقر والعمل المتواضع. وحياة عامل الناصرة هذه التي هو نفسه يريني اياها منذ وقت طويل. [...] وتلقيت هذا الخبر البارحة من أبي العام الجليل الذي لطفه نحوي أثّر فيّ كل التأثير. ولكن هناك حيث كنت محتاجًا إلى الطاعة هو اني، قبل ان يتّخذ هذا القرار، كنتُ قد وعدتُ الله، بأن أعمل كل ما سيطلبه مني أبي الجليل على اثر فحص دعوتي، وما سيقوله لي معرّفي بحيث انه لو قالوا لي : " ستقوم بابراز نذورك بعد عشرة أيام "، ثم : " سوف تنال الدرجات الكهنوتية المقدسة "، لأطعتُ بفرح، وأنا على يقين من اني سأكون قد أكملت ارادة الله. فإذ اني لا أبحث ابدًا سوى عن ارادة الله، وان لي رؤساء يبحثون أيضًا عن هذه الارادة وحدَها، كان من المستحيل ألا يُظهر الله ارادته "[٦].

وعلى الفور، كتبَ إلى الأب هوفلان وعرض عليه اقتراحات، بحيث ان الكاهن يكتفي بأن يجيبه في ٢٧ كانون الثاني.

" أجل، مثلك أرى الشرق، يا ابني الحبيب... [...] وافضل كفرناحوم او الناصرة او ديرًا للفرنسيسكان - ليس داخل الدير - بل في ظل الدير فقط، ملتمسًا المساعدات الروحية وعائشا في الفقر... على الباب... هذا ما أراه ممكنًا، يا صديقي الحبيب.

---

(٦) الموضع الأخير الحبيب، ص١٥٠-١٥١.

٨- فعل الاستسلام .....

لا تفكر في جمع النفوس حولك، وخاصة لا تفكر في اعطائهم قانونا. عش حياتك، وإذا جاءتك نفوس، عيشوا معًا الحياة نفسها، بدون ان تضع قانونا لشيء. فانا واضح جدًا في هذه النقطة ".

سيستطيع ان يجد ظل دير، ولكن هل سيسعه ان يحيا دون ان يضع قوانين له وللآخرين ؟

وفي ١٤ شباط، يبرز بين يدي معرِّفه الأب روبيرت لسكان السكوتي، نذر العفة المؤبدة ونذر الفقر، واعدًا بأن لا يكون في حوزته أو في استعماله أكثر مما يستطيع اقتناءه عاملٌ فقير. وفي ١٧ شباط، أبحر السكوتي القديم نحو الاراضي المقدسة، وقد رضي بأن يستقلَ زورقًا وفّره الرهبان السكوتيون، حسب التوصية التي تلقاها من الأب هوفلان في رسالته في ٢٧ شباط : " أجب ببساطة في قبول العرض الذي يُقدَّم لك ".

- ٩ -

الإقتداء بيسوع الناصرة

حينما وصل شـــارل دي فوكو إلى الناصرة، ظن انه وجدَ المكان الذي فيه سيقتدي بحياة يسوع. وهناك تعرَّف اليه فرنسيسكاني فأرســله إلى الراهبــات الكلاريات بعد أن أخبرهن بذلك. فقبلته الراهبــات على هذه التوصية. اما هو فلم يعرف شــيئًا عن ذلك. وكان لابسًا بلوزًا أزرق وظــن انه استقبل مثــل مستعطٍ. وسيعيش هناك، في ظل الدير :

" اسكن في بيت صغير منعزل، يقع في بســتان يعود إلى الأخوات اللواتي انا ســعيد بــأن اكون خادمًا لهن - انا هنا وحــدي [...]، انه منســك عذب ومنعزل تمامًا... انهض من النوم حينما يوقظني ملاكي الصالح، واصلي حتى صلاة التبشير. وعند صلاة التبشير، أذهب إلى الدير الفرنسيسكاني، وانزل فيه إلى المغارة التي كانت تشكّل جزءا من بيت العائلة المقدسة. وابقى هناك حتى نحو الساعة السادسة صباحًا وانا اتلو وردیتي واسمع القــداديس [...] انه لمن العذوبــة بــمكان ان انظر هذه الأغلفة من الصخر التي استقــرت عليها عينا يسوع والتي كان يلمسها بيديه.

في الساعة السادسة، اذهب عند الأخوات [...] وأعدُّ هناك، في السكرســتيا وفي المصلّى، ما يلزم للقداس، وأصلي... وفي الساعة السابعة اخدم القداس... [...] ثم اعمل ما يُقال لي [...].

واذا كان ثمة مهمــة صغيرة، فأقوم بها، ولكن هذا الأمر نادر جدًا. عــادة أقضــي نهــاري فــي القيام بأعمــال صغيرة في غرفتــي الصغيرة، قــرب السكرستيا. في نحو الساعة الخامسة، أهيئ ما يلزم لبركة القربــان المقــدس،

حينما توجت [...].

منذ ذلك الوقت، أمكث في المصلّى حتى الساعة السابعة والنصف مساءً. إذ ذاك أعود إلى منسكي، واعكف فيه على القراءة حتى الساعة التاسعة. في التاسعة يُعلن الناقوس انه قد حان وقت صلاة المساء، فاقوم بها ثم أرقد. واقرأ اثناء وجبات طعامي التي اتناولها وحدي [...] لا ارى احدًا في العالم سوى معرّفي كل ثمانية ايام لكي اعترف، والأخوات حينما يكون لهن شيء يقلنه لي. وهذا لمن نادر.»[1]

هذه الفترة من حياة الأخ شارل - وهو الاسم الذي اتّخذه آنذاك - هي الفترة التي أقلّ ما تشبه الحياة التي عاشها يسوع في الناصرة. انها تشبه اكثر ما سماه، منذ اقامته في روما، في شهر كانون الأول، "حياة يسوع في البرية". ففي روما عمل تمييزًا للمرة الأولى بين انواع حياة يسوع الثلاثة : يسوع في الناصرة، يسوع في البرية، ويسوع في الحياة العلنية. كل واحد يُدعى للإقتداء بيسوع في أحد هذه انواع الحياة. اما له، فانها حياة الناصرة.

ان هذا التمييز الذي اولاه البعض أهمية كبيرة، وربما إلى حد الافراط، لا يدوم مدة طويلة، بما انه في سنة ١٩٠١ سيميز اربعة انواع لحياة يسوع، لكي يتناسب ذلك مع مختلف الدرجات الكهنوتية. ومن الصعب جدًا ان نرى في اي شيء تتميز حياة الناصرة عن الحياة في البرية. لان طريقته في تمثيل يسوع تختلف بحسب ما يعيشه في الوقت الحاضر.

وهذا يقودنا إلى استعادة بعض خواطر عن الاقتداءِ[2]، هذه الكلمة التي

---

(١) بازان، ص١٥١-١٥٢.

(٢) انطوان شاتلار، " تجديد الاقتداء "، مجلة يسوع محبة، العدد٢٦٧ لسنة ١٩٩٧، ص٤٦.

يجب ان يكون استخدامها محدودا. ونودّ ان نسترعي الانتباه لكي لا يدع قراءُ التأملات المجال للإحباط ان يستولوا عليها كأشياء ساذجة او قديمة، ولا من جراء كلام مفرط في النزعة الانجيلية نستعيد الالهام العميق والحدس الأصلي اللذين يختفيان وراء كلمات لاسيما حينما يتكلم عن الاقتداء بيسوع.

في رواية مؤرخة في سنة ١٩٢٧، يحكي المونسنيور قام بها إلى البيت الذي عاش فيه شارل دي فوكو في يكن أحد عنده، كان يخرج عند حلول الظلام ويتخطى امام منزله الرواية التي نقلها له احد معاصري شارل دي فوكو، تشد " نتخيل يسوع الناصري وهو يستريح بعض الوقت في نهاية نهاره، وه جالس على صخرة مشرفة على القرية. والاب شارل دي فوكو، يحب حياة الناصرة كثيرًا، كان يعمل مثل العامل الإلهي "

هذه الرواية تأتي تجسيدًا لما أعرضه. فنتساءل من هو النموذج الحقيقي يسوع او شارل دي فوكو ؟ من يقتدي بالآخر ؟ وحينما نقرأ كتابات شارل، يمكننا ان نتساءل غالبًا السؤال نفسه.

فهو، مثلاً في شأن الفقر، يجعل يسوع يتكلم

" تذكَّر أمثلتي واقوالي في شأن الفقر. فقد ولدت في مغارة، وعشت بيت فقير مثل طفل لوالدين فقيرين، وعشت فقيرًا مثلهما من حمل الى اليوم الذي فيه أمضيتُ أيامي كلها في الكرازة. ومنذ ذلك الوقت أعيش من صدقات المؤمنين، ولكن دون ان أقبل الا بما يقبل بفقر كما حينما كنت عاملاً "(٣)

(٣) أن أصرخ الانجيل، ص ١٢٠.

٩- الإقتداء بيسوع الناصرة .....

أين قرأ هذا إلا في القصد الذي اتخذه قبل سنة في صيغة نذور ؟

وأين قرأ ان يسـوع كان يعيـش في حصن مع مريم ويوسـف، وله أقل ما امكن من العلاقات مع الجيران ؟ إلا في القانون الذي هو الآن قيد وضعه في صريفته في الناصرة سنة ١٨٩٩.

وكيف عرف ان يسوع كان يشـتغل ثماني سـاعات في النهار ؟ انما ذلك كان سنة ١٩٠٥، قبل وصوله إلى تامنراست، إذ لاحظ أخيرًا ان يسـوع كان يعيش دون حصن، وانه لم يكن متوشحًا بزي ديني، وانه لم يكن له ممتلكات كبيرة ولا يعمل صدقات سخية. في ذلك التاريخ ما يزال يرى يسـوع عائشًا ليس في قرية، بل قربَ قرية. فهل سيترتب عليه ان ينتظر السنة الاخيرة من حياته، حينما سيسكن بالقرب من الناس، لكي يتحقق من ان يسوع كان يعيش في قلب قرية وليس بقربها ؟

ويخترع الأخ شارل لنفسه نماذج متتالية يحتاج إلى العـودة اليها، حسـب النداء الذي يشعر بهِ في داخله في كل وقت من حياته، وهو لا ينجو دومًا في رواياته من التكوين الخيالي. وطريقته في التعبير عن ارادته في ان يكون مثل يسوع تذكّرنا غالبًا بمثل ذلك الولد الذي كان يريد الاقتداء بيسوع دومًا، ولكنه كان يرفض ان يلبس سترته التي تقدمها له والدته لدى عودته من المدرسـة. فتدخل اخوه وقال له : " تدري ان يسوع كان يعلق دومًا سترته في العلاّقـة، حينما كانت امه تطلب منه ذلك "[٤].

وهكذا في ٢٢ تموز ١٩٠٥، نقرأ في كرّاسه، انه بعد ان كرّر سبع مرات " مثل يسوع في الناصرة... " ختم مقاصده : " صلِ مثل يسـوع، وبمقـدار

---

(٤) هرفي لينار دي غيرتشن، " هل ان اتّباع يسـوع هو الإقتداء بهِ ؟ " المجلة اللاهوتية في لوفان سـنة ١٩٨٤، ص١٦ حاشية ٢١.

يسوع... أتلُ بـــأمانة كل يوم صلاة الفرض والوردية ". وكنا ننتظر ان نجد هنا ايضًا " مثل يســـوع في الناصرة ". ولكنه لم يكتب ذلك هنا، مع أنه في مواضع أخرى لم ينجُ من ملاحظات لا تطابق الزمان.

ويستحيل رسم صورة ليسوع انطلاقًا من التعليمات والأوصاف التي يزوِّدنا بها تلميذه. فهل ثمة صورة تشبه من قريب او بعيد الحقيقة التاريخية للجليلي ؟ لا يهمّ، فان " النموذج الوحيد " يشبه ما كان اخونا شارل يودّ ان يكون اياه. يبقى النموذج وحيدًا، لكن الصور مختلفة، واحيانا متكاملة وأخرى متناقضـــة. اليس هكذا يتلقى كل منا كلمة الله كل يوم ؟ ليس مثل قاعدةٍ يحـــلم التطابـــق معها، بل مثل حياة يدخل اليها شيئًا فشيئًا، اذ يقرأ كلمة الله هذه ويتلقـــاها كل يوم بطريقة جديدة، لأن الحياة تضطر إلى قراءتها بنوع يختلف عن الأمـــس، لأن الخبرة تلوّن كلمات لم يكن لها ظاهر، ولأن الألم يولي صورة بارزة لما كان يبدو البارحة دون شكل، ولأن المحبة تنير صوراً كانت حتى اليوم تتركنا باردين.

لا يتوخى الاخ شارل ان يتوهم او يخدع نفسه، ولكنه في سذاجة المشاعر التي يوحيها ايمانهُ، وهذه ثمرة تجاوز العقلاني في بساطة الطفولة الروحيـــة، يعبّر لذاته عن قناعته العميقة. ويكون ذلك احيانًا لحاجته إلى التأكـــد من مدى صحة خياراته. وهكذا، في اليوم الذي يرى الكهنوت وسيلة، لحـــل مشـــاكله، يتصور يسوع متوشحًا بالكرامة الكهنوتية مع بقائه في التواضع : " لكن عليَّ ان أضع التواضع حـــيث وضعه الرب، وان امارســـه كما مارســـه، ولهذا ان امارسه في الكهنوت، على مثالـــه "[٥]. وقد يكـــون الأمر ايضًا لايلاء صفـــة الشرعية لرغباته او لتبرير تصرفاته العملية. مهما يكن من أمر دوافعه، علينا

(٥) رسالة إلى الاب هوفلان، في ١٩٠٠/٤/٢٦.

لا يحسن استعمال كفاياته، إن كانت إلى " عمل الخير إلى الآخرين "، او كانت لاستعماله الشخصي !

ان هذا الاهتمام بعمل الخير ينضمّ إلى مفردات الاقتداء، لانه واجب اعطاء المثل، ومن ثمة واجب اعطاء ذاته مثل نموذج للاقتداء. ومهما كرّر ان المرء يصنع الخير بما هو عليه، فهو لا يستطيع ان يمنع نفسه من العمل للآخرين، اذ يقوم ببعض أفعال تهدف فقط إلى اعطاء المثل. ففي نظره، كان يسوع يتصرف هكذا، وبعض تصرفات المعلم الإلهي تجد شرحها الوحيد بارادته في اعطائنا المثل.

مستل من " نصائح "

موجّهة إلى اخوة واخوات قلب يسوع الأقدس

البند ١- الاقتداء بربنا الحبيب يسوع

ان اخوة واخوات قلب يسوع الأقدس سيتخذون قاعدة بأن يتساءلوا في كل شيء ماذا كان من شأن يسوع ان يفكر او يعمل في مكانهم، وان يعملوه. وسيبذلون جهوداً متواصلة لكي يجعلوا انفسهم شبيهين اكثر فأكثر بربنا يسوع، متخذين نموذجًا حياته في الناصرة التي تقدّم الأمثلة لجميع الحالات. ان مقياس الاقتداء هو مقياس المحبة : " اذا ارادَ احد ان يخدمني، فليتبعني ". " اعطيتكم مثالا لكي تعملوا انتم ايضًا كما عملتُ انا ". " ليس تلميذ اعظم من معلمه، ويكون كاملاً حينما يكون شبيهًا بمعلمه ". " انا نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظلام، بل يجد نور الحياة ". لاجل مجد الله وخير النفوس، سيشتغل الاخوة والأخوات في ان ينموا لدى الآخرين الاقتداء بربنا يسوع المسيح.

Extrait des « Conseils » pour les frères et sœurs du Sacré-Cœur de Jésus

Article I. — Imitation de Notre bienaimé Seigneur Jésus. — Les frères & sœurs du Sacré Cœur de Jésus prendront pour règle de se demander en toute chose ce que penserait, dirait, ferait Jésus à leur place, & de le faire. Ils feront des efforts continuels pour se rendre de plus en plus semblables à Notre Seigneur Jésus, prenant pour modèle Sa vie de Nazareth, qui fournit des exemples à tous les états. La mesure de l'imitation est celle de l'amour. — "Si quelqu'un veut me servir, qu'il me suive". "Je vous ai donné l'exemple, afin que comme j'ai fait vous fassiez aussi vous-mêmes". "Le disciple n'est pas au dessus de Maître, mais il est parfait s'il est semblable à son Maître". "Je suis la lumière du monde. Celui qui me suit ne marche pas dans les ténèbres, mais il aura la lumière de la vie." — Pour la gloire de Dieu & le bien des âmes, les frères & sœurs travailleront à développer chez les autres l'imitation de Notre Seigneur Jésus-Christ.

- ١٠ -

تجارب الناصـــرة

علينا ان نتوقف - دون ان نتأخر - عند الزمان الذي أُمضي في الناصرة[١]، لكي ندخل إلى صميم هذه الانسانية الاستثنائية تمامًا، انسانية شـــارل دي فوكو. انه محبوس ضمن حـــالة خاصة لا تتناســـب كثيرًا معه، فهو في حـــالة غليان مستمر، لأن تجربة عمل شيء آخر، أو الذهاب إلى موضع آخر حـــاضرة كل حين. واذ نعيد النظر في فترة الناصرة هذه فقط من الزاوية السلبية هي زاوية التجارب ورغبته في الخروج منها، سنرى بصورة أوضح ظهور قـــوة مزاجه والدور الذي قام بهِ الأب هوفلان الذي ينكشف مرشدًا حقيقيًا، احد المرشـــدين الكبار الذين ظهروا في القرن التاسع عشر.

التجربة الاولى : الذهاب إلى الاستجداء

في الحيـــاة الخاملة مثـــل تلك التـــي كان يعيشها بالقـــرب من الراهبـــات الكلاريات منذ ثمانية اشـــهر، جاءَته التجربة الاولى من حاجته الطبيعيـــة إلى القيام بشيء نافـــع. وأُفهم بأن الراهبـــات يحتجن إلى مـــال، لاسيما راهبـــات اورشليم. فمنذ نهاية الرياضة التي قام بها في شـــهر تشـــرين الثاني ١٨٩٧، جاءَته فكرة الاستجداء لهن. واذ كان الاب هوفلان قد أوصاه بالطاعة في كل ما يطلبون منه عمله (رسالة ٩٧/١١/١٤)، فهو يرى في ذلك واجبـــه. ويُطلع الاب هوفلان على الامر. فيجيبه هذا في ٩ تشرين الثاني :

---

(١) الأب فيليب تيريز، شارل دي فوكو في الناصرة ١٨٩٧-١٩٠٠.

" آه، لا تترك الناصرة [...]، فارى المزيد من الاخطاء لنفسك في القيام بحياة السفر والاستجداء. ابذل ذاتك في هذه الزاوية الصغيرة التي فيها اشتغل ربنا [...] اعمل كل شيء للبقاء في الناصرة. ستكون فيها اكثر فائدة للأمهات (الكلاريات) ! ".

وستدوم هذه التجربة الاولى حتى نهاية سنة ١٨٩٧. وفي ١ كانون الثاني ١٨٩٨، يلحُّ الأب هوفلان اذ يقدّم تهانئه : " عسى هذه السنة تبتدئ وتنتهي في الخفاء في الناصرة، في العمل والتأمل. هذا ما أتمناه من صميم القلب لنفسك. " وفي ١٥ كانون الثاني، بعد ان تلقى الأب رسالة من الأخ شارل، كتب اليه ايضًا : " أجل، بكل ضمير، اظن ان ارادة الله كانت ان تبقى في الناصرة. هناك سيرى قلبك ازدهار ما يريد الرب ان ينميه فيك ".

التجربة الثانية : العودة إلى دير السكوتيين

الا ان الراحة كانت قصيرة الأمد. وفي ١٥ كانون الثاني ١٨٩٨، في مراجعة حياة مفصّلة جدًا، يعترف الأخ شارل بأن فكرة كبرياء تعذّبه غالبًا. في الواقع، لا يتوقف الأمر حقًا على كبرياء، بل على الحاجة نفسها إلى العمل، ليكون نافعًا. انها بداية التجربة الثانية :

" عليَّ ان اقول لك مع ذلك، انه في هذه الاوقات الأخيرة، وربما بنوع خاص في مناسبة ذكريات دخولي إلى دير السكوتيين وابرازي النذور (في ٢ شباط)، غالبًا ما تعذّبني فكرة كبرياء. فاقول لنفسي احيانًا انه كان في وسعي ان اعمل خيرًا للنفوس ببقائي لدى السكوتيين، ولكنت اصبح رئيسًا بعد سنتين، واني بعون نعمة الله لكنت اعمل خيرًا في هذا الدير الصغير في اقبس، هذا الدير الذي بموقعه يناسب تقديس رهبانه والشعوب التي تحيط به... وأرى ان هذه تجربة : فلا شيء فيّ مما يؤهلني لأكون رئيسًا، لا السلطة ولا العزم

ولا الحكم الاكيد، ولا الخبرة، ولا العلم، ولا النباهة، ولا شيء آخر... وروح السكوتيين، الروح الحالي ليس روحي ابـدًا [...] في صريفتي الخشبـية، عند اقدام بيت القربان لدى الكلاريات، في ايام شغلي وليالي صلاتي، فانا حـاصل على كل ما كنت أبحث عنه واتوق اليه منذ ٨ سنوات، حـتى انه واضح ان الله كان قد أعدَّ لي هذا المكان، في قريته الناصرة التي كانت تسـتهويني منذ زمان طويل. هذا هو حقًا الاقتداء بحياة الرب الخفية، في خفائها وفقرها... الا ان التجربة واردة "[٢].

فهو يرى بوضوح انها تجربة وحيلة من الشـيطان، وان هذه الحـياة كان يجب ان تكفيه، كما كفت ليسوع. لكن التجربـة ماثلة لا مفرَّ منها. فهل يجب إلغاء القرارات اللاهوتية التي تغريه بتجارب العظمـة ؟ أيجب عليه ان يقـرأ ايضًا كتب الفلسفة التي تعرّضه لخطر الطموح ؟ أيجب إلغاء صلاة الفرض ؟ كل هذه مشاكل وهمية وكلها تساؤلات غير مجدية. القضية الحقيقية هي الحاجة إلى القيام بعمل ما. إن كلاريات اورشليم يطلبنه، فهل يجب القيام بشـيء من أجلهن ؟ فهو لا يرى ان ثمة تكمن مشكلته الوحيدة وهي : عملُ شيء !

في ١ شباط، كتبَ رسالة اخرى إلى الأب هوفلان لكي يكرّر فرحه في ان يكون في الناصـرة، وفي ان يقرأ ويتأمل، الا ان رغبـة الرجوع إلى ديـر السكوتيين ماثلة دومًا : " كما قلتُ لك، يبدو لي أحيانًا أني سـأعود إلى دير السكوتيين... ثمة شيء يدفعني، ولا أدري أهي نعمة ام تجربة ". ان تجربـة الخروج من الناصرة لا تأتيه مثل رغبة في استعادة ما اعطاه، بل مثل ارادة في التقدّم إلى أبعد، " أودّ الا استرجع شيئًا، والا اعيد شيئًا من هذا كله، بـل في محاولة الاحتفاظ بكل شيء، ان أذهب إلى أبعد ".

---

(٢) رسالة إلى الأب هوفلان في ١٨٩٨/١/١٦.

١٠- تجارب الناصرة .....

بالعكس، فان العزلة التي يعيش فيها تصبح قمة سلبية : " يبدو لي انه يجب العمل احسن، النضال عند الحاجة، لكي ينعم به آخرون، اكثر مما ننعم بهِ وحدنا... ".

ان واقع الوجود في موضعه ينقلب ضده : " انا بخير ههنا ! والتجربة تُظهر الحياة التي نعيشها مثل تبرجُز، وبالنتيجة كشيء أفضل العمل في خدمة الله قدر الامكان، ومن الافضل في موضع آخر. ان هذه " الأُمنيات المبهمة " مظهر نموذجي للتجربة. وهو يواصل في رسالته :

" وحينما آتي إلى وسائل خدمة الله اكثر ما امكنني، يبدو لي اولاً اني لا استطيع القيام بذلك بصورة ناجعة الا بالعودة إلى دير للسكوتيين [...]، ثانيا ان الله يريدني في دير للسكوتيين في الشرق، ثالثًا ان عليَّ قبل ذلك ان امكث ههنا، في هذه الناصرة الحبيبة والمباركة... ".

وبدون ان ينتظر الجواب على رسالتيه الأوليين، كتب الاخ شارل رسالة ثالثة، في ٣ آذار، أطول من المرات السابقة، فيها اعادَ بنوع آخر كل ما كتبه في الحالة التي تكون فيها رسائله قد ضاعت. وللتعبير عما يشعر به، فهو لا يتكلم فقط عن هذه " الدفعة " التي تظهر له " شيئًا خارجيًا "، وكانت الكلمة تتردد ثلاث مرات في ملحق رسالة ١ شباط، بل " وكأنهم رموا من الخارج حلقة اوشعنا على نفسي [...]، فايقظت فيها الحلقة الرغبة في العمل من اجل الله ".

فهو يرى أن سعادته في ان يكون في الناصرة، يبقى غير نافع بدون انتاج. " العمل "، " الشغل "، " النتائج "، هذه كلمات ترد عشر مرات في صفحة واحدة. وفي ١ شباط، أورد الكلمة المفتاح : " الفاعلية " لنرَ الأربعة او الخمسة ثقوب اتاحت للشص ان يتشبّث :

١٠- تجارب الناصرة .....

١- الرغبة في العمل لخير النفوس.

٢- الرغبة في الكهنوت، وهذا اول ظهور لهذه الرغبة، اذا استثنينا الرغبة التي شعر بها سنة ١٨٩٦ حين وقعت مجزرة المسيحيين الأرمن في أقبس. لماذا الكهنوت ؟ للشغل في عمل الله.

٣- الثمن هو ضمان الطاعة الديرية، وهو الحجة القصوى او قمة التجربة.

٤- ان عمل السكوتيين والعمل الذي يستطيع الرهبان تحقيقه في العالم، ففي البلدان المسلمة، لا يمكن الاشتغال بعمل الله بنوع افضل من تأسيس اديرة للسكوتيين، " مراكز الفضيلة والنور ".

وكتب إلى الأب هوفلان في ٣ آذار سنة ١٨٩٨ : " عليك ان ترى هل هذه الدفعة وهل هذه الحلقات هي تجربة أم نداء ".

والأب هوفلان، في جوابه في ١٩ شباط، لا يتوقف الا عند التوجيه الأخير :

" اجل، لتعشْ، لتعشْ الناصرة لكل شيء [...] أجل، امكث فيها بعد [...] اما دير السكوتيين، فسنرى، ربما... ولكن ما تزال محتاجًا إلى نظام الناصرة، حيث يمنحك المعلم الكثير لكي يجدّدك ! [...] اني لا أبدي رأيي بعدُ حول هذه الفكرة المتعلقة بدير السكوتيين... ولكن في جميع الأحوال، يجب ان تتأكد وان تقدم براهين على أصلها. صدّقني، ان ما تشعر بهِ في الناصرة هو علامة على ان الله يريدك فيها.

وكان الأخ شارل متأكدًا من ان الأب هوفلان سيكون سعيدًا بأن يراه يعود إلى دير السكوتيين، لذا كانت هذه الرغبات تملأ قلبه. ولكنه حينما قرأ هذه الرسالة، تلاشت رغباته بغتةً. فكتب حالاً رسالة جديدة في ٨ آذار جاءَ فيها :

١٠- تجارب الناصرة .....

" كنتُ مندفعًا بملء شراعي نحو هذا الاتجاه. ولدى قراءة رسالتك، انطوت الأشرعة كلها من ذاتها، وظل الزورق راسيًا [...] بدون حركة ظاهرية، وهو مستعد ليبقى هنا إلى ما لا نهاية ".

إذ ذاك يتّسم الاستسلام ببُعد واقعي، في متناول الانسان، وتجتاز ارادة الله عبر ارادة انسان.

" ما أعذب ان يتعرف الانسان إلى ارادة الله [...] قد سلمتُ نفسي بين يديك "، اعمل فيها افضل ما سيظهر لك، في سبيل تعزية قلب يسوع... هذا كل ما اشتاق إليه، كل شيء تمامًا ".

ولكنه يضيف : " ان الحزن الوحيد هو ان أرى كم من النفوس تهلك او تتألم "، ويعني ضمنًا : بدون ان اعمل شيئًا من أجلها. لقد انتهت الحرب تقريبًا والقضايا التي وردت في نهاية الرسالة تبدو صغيرة مقارنة بها.

وموازاة لهذا، يمكننا ان نقرأ " الاعتبارات في أعياد السنة " التي بدأها في ١ تشرين الثاني ١٨٩١. وخلال شهر آذار، شهر التجربة، وحتى الفصح، تؤدي تأملاته الطويلة كلها، أيًا كانت كلمات يسوع أو الأفعال التي يتأمل فيها، كلها إلى المقصد الذي أشارَ إليه مرة ومرتين وثلاث مرات : " الطاعة لمرشده ".

ومن ١٤ حتى ٢١ آذار، دون ان يترك الأخ شارل صريفته، يتبع يسوع في منطقة افرائيم، وعلى ضفاف الأردن حيث كان قد اعتزل فترة. طوال هذه الرياضة، كتب الأخ شارل تعاليم طويلة في الطاعة للمرشد الروحي[٣].

وستدوم هذه التجربة أكثر من ستة أشهر في تلك السنة ١٨٩٨. وهي دومًا

---

(٣) أن نصرخ الانجيل، ص٨٤-٨٩.

ماثلة في ١٧ حزيران، عيد قلب يسوع الاقدس[٤]. وفي ٢٤ حزيران، يمكننا ان نقرأ قناعاته عن الناصرة[٥]. وكذلك في ٢٩ حزيران :

" احذر تجارب الطموح، بأي صيغة تمثلت، وايا كان الذي يقدّمها. لا تترك مجالا للانجراف خارج الاقتداء بحياة يسوع الخفية، وخارج مقاسمة هذه الحياة، بأي اعتبار، وبأي نصيحة، وبأي فكرة، وبأي شخص. واحد له الحق ان يأمرك باسمي، هو مرشدك : " من يسمعه يسمعني "[٦].

فان الذي يريد ان يكون الاخ الصغير ليسوع خلال هذه الأشهر الستة، الحاضر دومًا ضمن عائلة الناصرة او على قدميه خلال الحياة العلنية، لا يخرج من التجارب، تجربة الطموح او تجربة الارتفاع، وتجربة التهرب من اللحظة الحاضرة، عوضًا ان يعمل في كل لحظة ما هو الأكمل :

" فكرّ قليلاً في نكران الجميل الفظيع الذي سيكون في الشوق إلى شيء آخر عدا حياة الناصرة هذه التامة والكاملة إلى حدّ ان يسوع تنازل وعملها لك بيده. ستُجرَّب ضد هذه الحياة الجميلة والإلهية إلى حد كبير. وبقدر ما تكون عظيمة الهبة التي عملها لك يسوع، بقدر ذلك سيحسدك الشيطان وسيستخدم أذكى حيَله وربما أعنف وسائله لكي ينتزعها منك. وسيُكلّم اذنك وآذان الآخرين. ولكن " لا أحد يُجرَّب فوق طاقته ". لا تعجب من التجارب، ولا تعجب من المعاكسات : بقدر ما تكون طريقة حياتك شبيهة بطريقة حياة يسوع، سيفهمك العالم أقل "[٧].

---

(٤) شارل دي فوكو، اعتبارات في اعياد السنة، باريس ١٩٨٧، ص٤٤٠.

(٥) الموضع نفسه، ص٤٥٥.

(٦) الموضع نفسه، ص٤٦٤.

(٧) الموضع نفسه، ص٤٦٥.

في التأملات في الانجيل، في اليوم نفسه كتب ايضًا صفحتين لكي يُقنع نفسهُ ان عليه ان يحيا في اللحظة الحاضرة، وليس في المستقبل[٨].

التجربة الثالثة : أخطار اورشليم

في شهر تموز ١٨٩٨، نعود فنلقى الأخ شارل معرَّضًا لِما يمكننا أن نسميه بتجربة أورشليم أو تجربة الظهور. وسنفهم حالا أن اورشليم تعارض الناصرة من هذه الزاوية. وجاءت هذه التجربة من الخارج : فان رئيسة راهبات أورشليم، الأم إليزابيث، مدفوعة بفضولية رؤية هذا النوع من القداسة التي تكلّمها عنها أخوات الناصرة، تحثُّه على المجيء إلى أورشليم. وكان الأمر على وشك أن يحدث في شهر تشرين الأول السابق، ولم يكن الأب هوفلان، في رسالته المؤرخة في ١٦ أيلول ١٨٩٧، قد رضي بهذا الأمر إلا على مضض : " عليك أن تُترَك في الظلام، مع صلاة فرضكَ والطاعة، وفي دفن حياتك. وإني أتمسك بهذا الرأي، يا بنيَّ، وقلْ إني متمسك بهِ ". وحينما علم ان المغادرة لم تتحقق، فرح وعبَّر عن فرحه في الرسالة التي كتبها في ١٦ تشرين الأول : " أنا سعيد جدًا لبقائك في الناصرة. ولم أكن بغير قلق لإقامتك هذه في أورشليم ". وبماذا كانت هذه الإقامة تُقلقه ؟ سنرى كم أن نظرته كانت صائبة.

في ٨ تموز، كُلّف الأخ شارل بحمل رسالة مهمة إلى أورشليم، ربما كانت تلك مجرّد ذريعة، ولكنه يجهل ذلك. وأُطلع الأب هوفلان المريض على ذلك برسالتين فقدتا، فأجابه من فراش مرضه في ٢٦ آب، دون أن يخفي تفضيله للناصرة، ولكنه يخضع للظروف التي تبدو ملزِمة. فان الأم إليزابيث تقترح

(٨) شارل دي فوكو، جودة الله، مونتروج ١٩٩٦، ص١٧٤.

على الأخ شارل أن يأتي ويسكن في أورشليم، وأن يستقبل هناك رفاقًا. وغيابه عن الناصرة لم يدم سوى اربعة أيام.

وستدوم إقامة أخرى خمسة أشهر. فترك الأخ شارل الناصرة من جديد في ١١ أيلول للذهاب إلى أورشليم. وإذ أنمت فيه الأم اليزابيث الرغبة في ان يكون له رفاق، فهو يفكر في شاب كان قد عرفه في دير أقبس. ثم ترك هذا الشاب الدير، وأبحر الأخ شارل في نهاية أيلول للذهاب إلى الكسندريت. وهناك التقى بالسكوتي القديم الذي لا يريد أن يترك والدته لكي يتبعه. وحينما عاد في ٤ تشرين الأول إلى أورشليم، أطلع الأب هوفلان على خيبة أمله. فأجابه الأب حالا في ١٥ تشرين الأول : " أنا سعيد جدًا [...] بألا يكون هذا التلميذ قد أراد أن يتبعك [...] وأعرب هنا عن قناعتي العميقة [...]. امكثْ في ظل دير أورشليم، كما كنت في ظل دير الناصرة، حيث كنتُ أحبك كثيرًا – حيث كان الله قد قادك – في ظل، هذه هي الكلمة المناسبة.

وفي هذا الوقت نفسه، وقد استعاد غريزة المؤسِّس، بدأ الأخ شارل بكتابة قانون جديد[٩]. وفي ١٥ تشرين الأول، في أقل من عشرة أسطر، يعرض للأب هوفلان طريقة جديدة للعيش بحسب القديس بندكتس. ولكنه في نهاية تشرين الأول سيتخلى عن القديس بندكتس لكي يتبنى قانون القديس أوغسطينس الأكثر مرونة : " بضعُ نفوس مجتمعة للعيش حسب حياة الناصرة [...]، عائلة صغيرة، بيت رهباني صغير، صغير جدًا، وبسيط جدًا، ليس بندكتيًا أبدًا "[١٠].

في نظر الاب هوفلان، تمثّل أورشليم خطر الخروج من الخفاء والظلمة

(٩) " لقد بدأتُ هذا القانون حينما كنتُ في ارجيلا قبل عشرين شهرا لكني أعيد هذا الوعد " (رسالة الى الاب هوفلان في ١٩٠٠/٤/٢٠).

(١٠) رسالة إلى الاب هوفلان في ١٨٩٨/١٠/٢٢.

وكان على حق حينما كان يقلق لهذا الأمر. يتمثل الحظر في الأم أليزابيث. إنها ليست اختًا مثل رئيسة الناصرة التي صارت لها مودّة للأخ شارل. انها أم. انها ليست " نفس جميلة " فحسب، بل هي " قديسة "، ويجد فيها " رأس الجليد وقلب النار " كما عند تريزا الأفيلية. أليست مؤسسة لخمسة ديورة، منها أديرة بيريغو، باراي لو مونيال، الناصرة وأورشليم ؟ وبقوة طبعها الحاد، تريد على الفور أن ينزع بلوزه الزرقاء، وأن توشحه بزيّ راهب، وأن تراه كاهنا في خدمة الكلاريات الدينية. وهي تريد ايضًا ان يقبل رفاقا، وتعتبر انه في الأربعين وقد حان له الوقت للخروج من حياة الناصرة، ليجتاز إلى حياة عامل انجيلي. هذا كله يُقدَّم لنا في رسالة إلى الأب هوفلان بصيغة " هي " و" أنا "، وكأنه ينقل الحديث بكل دقة[١١].

ان الرهبان الأولين كانوا يحذرون تلاميذهم من خطرين رئيسيين كانا يهدّدان بإخراجهم من برّيتهم : " على الرهبان أن يحذروا من النساء والأساقفة حذرهم من الشيطان "[١٢]. وهنا التجربتان متّحدتان في شخص واحد نفسه[١٣]. وفي شهر كانون الثاني ١٨٩٩ فقط يتلقى الأخ شارل جوابًا متأخرًا من الأب هوفلان الذي ما كان يدري ماذا يجيب على هذا المشروع الجديد. والرسالة المؤرخة في ٣٠ كانون الأول. كما كان الشأن في العودة إلى دير السكوتيين، جاء الرفض هنا أيضًا قاطعًا : " أمكث !... أمكثْ في عزلتك وصمتك وفي الخفاء العميق [...]. أمكثْ، أمكث أيضًا، وقل ذلك للسيدة الرئيسة. وانتظر علامة لن يتأخر ظهورها ". هذا ما يكرّره المرشد الذي يقول انه " قلق جدًا "

---

(١١) رسالة إلى الاب هوفلان في ١٨٩٨/١٠/١٥.

(١٢) كاسيان في تعاليمه ١١، ١٨.

(١٣) كان الاساقفة يجوبون البراري لكي يجدوا كهنة بين الرهبان.

أمام عاصفة العروض. ولكن حينما تلقى التلميذ هذه الرسالة، كان قد سبق وكتبَ قانونين جديدين : أحدهما مؤقت، ما دام وحيدًا، والأخر نهائيًا، حينما يصبحون كثيرين. والقانونان مؤرخان في ٦ كانون الثاني، عيد الظهور.

في هذا الوقت اظهر الاخ شارل رغبة في الاستقرار، ويخترع نذرا للحصن يمنعه من التنقلات في خدمة الآخرين. ويحسب ان هذه هي الوسيلة الوحيدة لمقاومة إلحاح الكلاريات اللواتي يطلبن خدماته. ألم يطلبن منه ان يرافق أبًا دومنيكيًا إلى الناصرة، الا أن هذا السفر كان قد أُرجئ[١٤].

في ٢٠ شباط ١٨٩٩، عادَ الاخ شارل إلى الناصرة، وهو عازم على البقاء فيها. من اتَّخَذَ هذا القرار ؟ وما إن علم الاب هوفلان بهذا الخبر، حتى أسرع وأيده، وكتب اليه في ١٣ آذار :

" كم أحبُّكَ في الناصرة ! وكم اقول لك من كل قلبي ان تظل في الناصرة ! [...]. رأيتك بألم وانت تترك هذا العش الحبيب، وبالفرح اقول لك ان تعود إلى هناك ! ".

وحينما نقرأ رسالته المؤرخة في ٨ شباط إلى الاب هوفلان، وقد كتبها قبل مغادرته اورشليم، قد نعتقد بأن الوقت حان له للعودة إلى الناصرة :

" ما أشقاني ! لو كنت تعلم كم ان تقدّمي قليل، وكم انا ضعيف ومتكبّر، وقليل الحب، وأناني، وطائش ومتشتّت بأمور تافهة !... كم اني خجلان بأن اكون في هذه الحال وانا في هذا العمر، وبعد نِعَم كثيرة !... اودّ ان ابدأ بأن أحب الله، ولكن وا أسفاه، ما أبعدني عن ذلك ! تكلّمْ اذًا غالبًا، ايها الاب الحبيب، بما ان صوتك يعمل خيرًا كبيرًا، وانه ضروري جدًا لهذا الكائن

---

(١٤) رسالة إلى الاب هوفلان في ١٨٩٩/١/٢٢.

المسكين، العاجز، والضعيف، الذي هو حقًا " طفل صغير "، ولكن ليست بالبراءة والتواضع، انه صغير بالحكمة وبنفس لم تتثقّف ولم تنمُ، وظلت صبيانية وزاحفة ".

واذ ذاك بدأ برياضة كبيرة من ٦٠ يومًا، من ١٩ آذار حتى ٢١ ايار، وهو عيد العنصرة. وخلال هذه الرياضة " في التجارب والقلق "، تلقى بطاقة من الاب هوفلان وهي مؤرخة في ٢٧ نيسان، فيها يجيب على رسالة ضائعة لا بدَّ انها كانت مليئة بمشاريع مستقبلية :

" لا تتعذب من الخيالات والرؤى الغريبة ومن تساؤلات مثل هذه : " إلى متى ؟... لا تقلق ! امكثْ، امكثْ ! الناصرة تحسن معاملتك، وتشبعك ولا أجد شيئا أفضل اقوله لك ".

وانتهت الرياضة في السلام واسفرت عن مقصد البقاء في الناصرة مع " العامل ابن مريم " وفي فعل الشكر :

" لا يسعني ان ابارك الله بكفاية على انه اتاح لي القيام بهذه الرياضة، وانه أعادني إلى الناصرة، وقادني بواسطتك، ايها الاب الحبيب، بنوع لا يُضاهَى وسط صعوبات هذا الشتاء، وانه بواسطتك أعادوني بهدوء إلى دعوتي، وانتزعني من اخطار اورشليم... لن اذهب إلى اورشليم من بعد... سأحاول الاستفادة من هذا الدرس لكي اتعلق بمزيد من الأمانة وبشكر اعمق بدعوتي المباركة جدًا ".

ان هذه الرسالة إلى الاب هوفلان، المؤرخة في ٢٢ ايار، وهو الاثنين التالي للعنصرة، تؤشر إلى نهاية العاصفة التي اثارتها اورشليم وكل ما تمثّله هذه المدينة من التناقض مع الناصرة.

انتهى أمر المشاريع، وزال الحديث عن التأسيسات وعن الكهنوت، وعن ارشاد الكلاريات وعن الثوب الرهباني الظاهر. وسيدوم هذا السلام شهورا طويلة. ولكن للأسف فان جميع رسائل الاخ شارل قد ضاعت. ان رسائل الاب هوفلان وحدَها تطلعنا على ما كان تلميذه يكتبه اليه. وهذه الرسائل تعطينا زبدة رسالة الاب هوفلان. فهو يكتب في ١٨ تموز :

" أجل، ان سكوت الناصرة - والمرءُ في الناصرة لكي يطيع في الصمت - والخير الذي يجب صنعه ؟ يعمل المرءُ الخير بما هو عليه، اكثر منه بما يقوله... يعمل الخير اذ يكون من الله ولله ! اجل الاستقرار. ان يبقى الانسان حيثما هو، وان يجمع الرغوة، وان يدع نعم الله تدخل اليه وتنمو فيه وتترسَّخ، وان يمنع عنه الحركة المفرطة والبدايات الدائمة. صحيح اننا من المبتدئين وسنظل هكذا دومًا، ولكن في الأقل في الاتجاه نفسه دومًا ! ".

وكتب ايضًا في ١٤ آب :

" يا للسعادة [...] ان تكون حقًا في موضعك، وان تشعر فيه بالسعادة، وان تتم لك الحياة التي ترغب فيها، حياة الناصرة في الداخل وفي الخارج.

وكتب في ٢٦ تشرين الاول :

" اشعرْ بشقائك العميق جدًا وتواضَعْ. اخجلْ ثم توارَ في الثقة بالله. ان محبة الله توجد في وسط شقائنا [...] لا تقلق بشأن اليبوسة، وانتظرْ ساعةَ الله ".

وسيدوم هذا الهدوء حتى شهر شباط ١٩٠٠. وفي رسالة مؤرخة في ٨، يعبّر الاخ شارل من جديد عن شكره للأب : " انتَ الذي دافعتَ عني ضد هذه تجارب عدم الاستقرار والعودة إلى دير السكوتيين، والكهنوت، التي تعرضتُ لها والتي لكنتُ اسقط فيها بدونك ! " وتتمة هذه الرسالة تبيّن علاقته

١٠- تجارب الناصرة .....

بمرشده حول موضوع " التجربة "، حتى اذا توقف الامر على امور صغيرة.

" اريد ان اكشف لك عن تجربتين اتعرض لهما منذ وقت طويل وتسبّبان لي الطياشة غالبًا. اني اطردهما دومًا، مثل تجارب، ولكنهما تعودان، وأُفضي بهما اليك لكي اتخلّص منهما، لأني اعلم اني ما إن أبوح لك بتجربة حتى أنجو منها. وانا غالبًا مجرَّب لكي اقرأ شيئًا من القديس توما... وان احاول غالبًا ايضًا ان احصل على الكتاب المقدس بلغات عديدة الذي نظّمه الاب فيفورد، لكي اقرأ فيه قراءَة الكتاب المقدس ".

فهاتان التجربتان الجديدتان هما اذًا اللاهوت وشرح الكتاب المقدس !

التجربة الرابعة : موضع آخر أفضل

ان هذه التجربة الرابعة تقع في فترة زمنية قصيرة في شهر آذار سنة ١٩٠٠. وأَصلُ هذه التجربة يكمن في رغبته في الهرب من هذا العش الطيب الذي يعيش فيه. ولا تنقص الأسباب التي تدفعه إلى الابتعاد عن الراهبات الكلاريات.

" أرى ان وضعي ههنا ليس صحيحًا، اذ اني غير نافع للكلاريات. فأنا اشتغل. ولكني اعمل ما ليس أشغالاً (يرسم ايقونات)، أُخدَم ولا أَخدُم، وأَصلُ الشر هو اني معروف، وهذا ما يوليني وضعًا غير محدَّد وغير صحيح ! "[١٥].

وفضلاً عن هذا، فان علاقته بالرئيسة اصبحت مزعجة. فهي تصرّ على الاحتفاظ بهِ، وتظهر له انتباهًا اكثر مما للآخرين. وتظهر هذه المعضلة قليلاً، لان المقاطع التي يتكلم عنها قد حُذفت في طبعة الرسائل. ومع ذلك فان هذا

---

(١٥) رسالة إلى الاب هوفلان، ١٩٠٠/٣/٢٦.

أحد الاسباب الكبرى لرغبته في الذهاب إلى موضع آخر. والتجربة كلاسيكية : الاعتقاد بـــأن التغيير سيحـــلّ جميع المعضلات. الذهاب إلى موضع آخر لكي يعيش الناصرة بـــنوع أفضل. وهذا " الموضع الآخر " يأخذ شـــكلين متتاليين ومختلفين كل الاختلاف الواحد عن الآخر.

فهو يفكر اولاً في موضع غير بعيد كثيرًا حيث سيتسنى له العيش وحـــيدًا وغير معروف، فـــي قرية مجـــاورة، وليـــس في مدينـــة[١٦]. ثـــم يفكـــر في " الاستقرار في احد الحقول، على التلال المشرفة على الناصرة، لكي يحـــمل فيها صليبَ يسوع، في الفقر والشغل "[١٧]. ان هذا الأمر يظل مبهمًا وطارئًا، كما جاءَ تعبيره في رسالته المؤرخة في ٢٢ آذار :

" افكر اكثر من مرة في الذهاب، والاستفادة من هذا الانطلاق للذهاب إلى موضع فيه اكون أنا حقًا، وحيث ابقى غير معروف تمامًا [...] ولكن على أي حال، اني لا أرى انطلاقًا الا لكي ادخل إلى المزيد من العمق في الخفاء وفي اوضع حياة واحقرها، في الصلاة وفي العمل.

(ان ما أفكر فيه هو أن اذهب واطلب من راهبـــات القـــديس منصور دي بول، في احد مستشفياتهن في الاراضي المقدسة، ان يأخذنني خادمًا لكي اعتني بالمرضى) ...[١٨] ".

اما الشـــكل الثاني، فانه يتطعم على فكرة العمل في مستشـــفى. وهي فكرة هيمنت عليه بعد ان سمع قصـــة أرملة عجوز ليس لها مورد رزق، والتي لا يستطيع ابنها ان يدخل الديـــر لان عليه ان يعيل والدته العجـــوز. وهو يعطي

---

(١٦) كان قد فكر في حل مشابه في اورشليم فوق قمة جبل الزيتون، في مغارة، في ١٨٩٩/٢/٨.
(١٧) رسالة إلى الاب هوفلان، ١٩٠٠/٤/٢٦.
(١٨) رسالة إلى الاب هوفلان، ١٩٠٠/٣/٢٢.

١٠- تجارب الناصـرة .....

المجال لهذه الحالة ان تستحوذ على فكره، وكان من الممكن ان تجد لها حـلاً بسيطًا دون تدخلّه، كما ستظهر الاحداث ذلك في وقت لاحـق. ولكنه لا يفكر في ذلك، انما يرى في هذا الامر فقط نداءً موجهًا اليه ووسيلة لكي يخرج من حالته الحاضرة. فمرتّبه من شأنه ان يتيح ضمان معيشة الام. وفي ٢٦ اذار، يعرض مشروعه بـالتفصيل ويبـرهن عن ان هذه هي دعوته وارادة الله فيه. وهو لا ينتظر سوى موافقة الاب هوفلان. الا ان حـدثًا آخر يضع حـدًا لهذا المشروع الذي لم يدم سوى اسبوع واحد.

الا ان فائدة هذه البراهين يجـب ألا تُهمل، اذ ان هذا منظور جديـد كليًا ينفتح امامه. وهذا المشـروع الغريب هـو على طرفي نقيض من المشـروع السابق الذي تخيلّه على تلال الناصرة.

ان حياة الممرِض او خادم ردهـة في مستشفى ستكون مختلفة جدًا. فهـو سيضيع كل شيء، ولكن الامر سيكون اخيرًا في سبيل شخص واحد. حتى هذا اليوم، الم يكن له قـط فرصة او فكرة في ان يعمل شـيئًا لاجل شـخص ؟ بالتأكيد، لقد فعل كل شيء لأجل يسوع، والآن ايضًا يبـرّر فكرته اذ يقـول لنفسه انه لا يفعل ذلك من اجل هذه المرأة ولا من اجل ابنها، بـل من اجل يسوع وحدَه. انه يظهر القليل من المحبة لهؤلاء الأشـخاص الذي لا يبـدون سوى ذريعة. ولكن لا ننخدع بهذا النوع من الأقوال ولنحذر من انواع الكلام هذه الخالية من المعنى لغير المطّلعين. لتقديم حقيقة ايمانية : " كل ما تفعلونه لأحد هؤلاء الصغار، فلي تفعلونه "، ينكرون بداهة الافعال والمشاعر.

لنلاحظ بالأحرى الثلمة المفتوحـة في الجدار الايديولوجي للحـصن الديري التي بها سيتدفق سيل الحب الذي يُغرق قلب الاخ شـارل. انه لن ينتهي قـط من تكرار الجمل المفتاح لجميع دوافعه : " اعمل للآخرين ما توّد ان يعملـه الآخرون لك.. كـل ما تفعلونه لأحـد هـؤلاء الصغار، لي تفعلونه ". بهـذه

البراهين، هو متأكد من نفسه، وفكرته جيدة، اذاً فهي تأتي من الله، ولكن يجب ان تؤيده الطاعة. وهو يُقنع نفسه بينما هو يكتب، ولا يرى في الامر تجربة ترمي إلى حمله على التخلّي عن طريقه. يرى مشروعه مطابقًا جدًا للانجيل، وفائق الطبيعة ومفعم بالايمان والرجاء والمحبة إلى حدّ انه يظهر له مثل " كنز لا يُضاهَى ". فليس له اي تردُّد من بعد : ان هذه حياة العمل في خدمة المرضى من شأنها ان تحل جميع المعضلات.

ولكن ماذا سيكون من شأن القيم المنسوبة إلى حياة الناصرة، مثل التأمل والصمت والعزلة ؟ مسبقًا، يجيب لكي يدافع عن هذا الشكل الجديد من الحياة التأملية. ربما تكون رؤية عابرة، غير مختبَرة، ولكنها رؤية نبوية تفتح منظورات جديدة، لن تتحقق إلا جزئيًا في الحياة الخاصة به. الا ان الذين في اثره سيتخذون طريق الناصرة هذه، يمكنهم ان يجدوا فيها تأكيدًا لخيارهم وكلمة تشجيع :

" لا اظن ان الصلاة الصامتة تفقد فيها شيئًا [...] ولا ينبغي ان نبحث عن عذوبات الصلاة الصامتة، بل الأمانة في عمل إرادته... وسيعطيني نعمته لكي اراه في الفقراء المرضى ولكي احتفظ بحضوره في وسط اشغال المستشفى ".

لا شك ان ساعات الصلاة تُقلّص، ولكنه سيستفيد منها اكثر : " اني الآن أقضي ساعات كثيرة، ولكن بنوع رديء ". ومهما يكن من امر " سأربح كثيرًا من هذا تغيير الحالة، وذلك بالنسبة إلى النفس " وستربح الكلاريات ايضًا من ذلك : " ان ذهابي سيكون خيرًا لهن من بقية حياتي كلها التي أمضيتها عندهن في الصوم والصلاة ".

ان تقديم هذه القضية من قوة الاقناع بحيث ان الاب هوفلان - كما يعتقد - لا يمكنه الا تأييدها. لكن هذا - للأسف - لن يكون له وقت للجواب. وتجربة

أخرى ستنشأ وتُنسي هذا المشروع. ولا يسعنا الا ان نأسف لهذه الفرصة التي لم تُستَغَلّ، ولهذا " الكنز ذي القيمة التي لا تُقدَّر " الذي تُرك في سبيل سراب جديد. ان مثل هذه الفرصة لن تحضر قط بأن يشتغل بأجرة، ليس في خدمة الآخرين فحسب، بل في خدمة مستشفى.

التجربة الخامسة : او انتصار " الروح الذاتية "

تحت مظهر " البذل والتقوى "

من كان يتجاسر ان يضع مثل هذا العنوان، لو لم تكن الكلمات تلك التي استخدمها الأب هوفلان نفسه، في رسالته المؤرخة في ٢٠ أيار ١٩٠٠ ؟

انها ستكون أخطر التجارب. وسيكون لها نتائج متعددة، لأن الأخ شارل بلغ إلى نقطة من النشاط الخلاّق العارم بحيث انه مستعّد للرضوخ لجميع النداءات التي ستجعله يخرج من الناصرة، وهذا أمر ربما يكون للخير، بل من دعوته أيضًا في الإقتداء بحياة يسوع في الناصرة.

وهذه التجربة الأخيرة، أو هذا الوهم الأخير، يمتد على زمان أقصر من تجارب دير السكوتيين وأورشليم، ولكنه سيُلزم حياته نهائيًا على طريق جديد سيقوده بعيد جدًا عن المشروع الأولي، بل سيكون مناقضًا له. ويمكننا أن نقدّمه سريعًا فنوجز شهرين من المراسلة المحمومة مع مرشده، وأربعة أشهر من حياته حيث يعتقد انه " يقوم بشؤون الله ". في " الرسائل إلى الأب هوفلان "، تشغل هذه المراسلة خمسين صفحة، وفي أطول هذه الرسائل، يقول انه لم ينتسخ إلا جزءاً من تفكيره لئلا يُتعِبَ مرشده.

لقد علقَ " الشصُّ " هذه المرة في " ثقب " غيرته وفي صلابة طبعه الذي يجعله دومًا يرغب في القيام بما لم يفلح الآخرون في عمله. فهو يكتب :

" لقد حاول الناس مراراً عديدة الحصـــول على ملكية هذا الموضع المقـــدس والمبـــارك (جبـــل التطويبـــات)، دون البلوغ إلى ذلك [...]. أشـــعر بكونـــي مدفوعًا، كما لم أُدفَع قـــط في حـــياتي (أي اكثر من اندفاعي إلى استكشـــاف مراكش، وأكثـــر من دخولي إلى دير الســـكوتيين والخروج منه، وأكثـــر من تأسيس رهبانية جديدة) لكي أعمل كل شيء في سبيل تأسيس هذا بيت القربان والحصول على هذا الموضع المقدس. والأمر جيد في ذاته حتى اني لا أشـــك في ان الله يريده "[١٩]، وهو يعتبر هكذا، كالمعتاد، رغبته بمثابة إرادة الله.

وللحصـــول على هذا الموضع بشـــرائه، عليه أن يجد المبلغ الضـــروري، سريعًا وسرًا. وبواسطة الأب هوفلان، سيطلب من أخته، ثم من بـــنات عمته كاترين وفلافينيي وماري دي بـــوندي، ومن اشـــخاص آخرين عند الضرورة. وإذا ما حصل على المكـــان، عليه ان يعطيه لرهبانيـــة ما. أي رهبانية ؟ انه يرى خمس رهبانيات ممكنـــة. وإذا لم يرد احـــد ذلك، فهذا لن يكون علامـــة للتخلّي عن هذا الشراء. كلا، عليه ان يستقر هو نفسه فيه. وعليه والحالة هذه أن يكون كاهنًا، وان يتهيأ للكهنوت. وعليه أخيرًا أن يجد حـــلاً آخر للأرملة وابنها بجمع المال اللازم لأجلها. هذا كله مكتوب في ٣٠ آذار. والأب هوفلان لا يتوقف إلا عنـــد المعضلة الماليـــة، ولا يرى كيف يوافق بين هذه الفكـــرة الجديدة وبين السابقـــة : ان يبـــيع نفســـه مثل ممرّض. ولما رفضت العائلة بحكمتها ان توفّر له المـــال الضروري، ظن الأب هوفـــلان ان الأخ شـــارل سيتخلى عن شراء جبل التطويبات، فلا يكتب إذ لا يعرف أي مشـــورة يعطيه في هذا الشأن. وأمام رفض العائلة، لن يرى الأخ شارل علامة بها لطلب الله منه التخلي عن مشروعه. على النقيض من ذلك، ســـتكون هذه له علامة على

---

(١٩) رسالة إلى الاب هوفلان، ١٩٠٠/٣/٣٠.

١٠- تجارب الناصرة .....

انه يترتب عليه أن يجد المبلغ الضروري بوسائل أخرى، أكثر فقرًا، ولكن أقل سهولة، إذا بالذهاب والإستجداء. وسيكون هذه المنظور بمثابة مساومة للعائلة التي سترسل أخيرًا المبلغ المطلوب بصفة قرض.

في ٢٥ نيسان. أمضى الليلَ أمام القربان المقدس ليجري اختياراً خطيًا بشكل مسوَّدة رسالة، في نحو عشرين صفحة مطبوعة[٢٠]. وفي ٢٦ ينتسخ أهم ما فيها في رسالة من ست صفحات إلى الاب هوفلان : " دعوتي هي أن اقتدي بأكمل نوع ممكن بالرَّب في حياته الخفية في الناصرة... " يجب ان يدخل هذا الاستقرار في جبل التطويبات في منظور الناصرة وان يتناسب مع دعوته تناسبًا جيدًا. عليه أن يبرهن عن ان جميع فضائل الحياة الخفية ستُمارَسْ بنوع أفضل هناك، على ذلك الجبل، منها هنا في الناصرة، لدى الكلاريات. وهو يواصل في هذه الرسالة :

" اني أوجز لئلا أتعبك : إذ أفحص هكذا الصلاة، ومحبة الحقيقة، والهوان والتوبة، والشجاعة، والطاعة لله، والبحث النزيه عن خير الله، والرياضة، ومحبة الله، والإقتداء بالرب، والرجاء، استنتج اني في كل شيء سأكون هناك أفضل مما أنا عليه ههنا... ".

لا يظهر ان للأخ شارل وعيًا بأن هذه الحياة الجديدة للإقتداء بيسوع في الكهنوت، والأعمال الخيرية، وتوزيع الأسرار، لا شأن لها مع حياة يسوع في الناصرة. فهو يرينا هكذا اننا نستطيع ان نضع كل شيء في " الناصرة "، حينما نريد أن نبرّر اختياراتنا الخاصة. مهما يكن من امر، فيبدو أن الروح القدس يدفعه نحو شيء، ولكننا لا ندري نحو ماذا.

---

(٢٠) ان أصرخ الانجيل، ص١٣١-١٤٩.

ان جبل التطويبات، أكثر من تلال الناصرة، يصبح الموضع الأمثل ليحيا " ناصرتَه ". وليس الكهنوت ضرورة للعبادة الأفخارستية فحسب لكن الكرامة الكنسية تصبح له وسيلة فضلى لممارسة التواضع كما مارسه يسوع :

" يبدو لي ان هوان ربنا وفقره اللذين يمارسهما الانسان بثوب رهباني أو يمارسهما الكاهن، هما، بالنظر إلى كل شيء، أمثلة خلاصية أكثر من هذه الفضائل التي يمارسها علماني في العالم "[٢١].

ان " الحلم الرهباني " الذي يستمر دومًا يمتزج بهذين الأمرين الضروريين (الكهنوت وجبل التطويبات) لكي يشكل شيئا موحَّدًا. وفي الرسالة التي يكتبها في ٢٦ نيسان إلى الأب هوفلان، يعود إلى قانونه لنسّاك القلب الأقدس، وهو يحتوي على ٤٠ فصلاً، وقد بدأه من عشرين شهرًا، وكتبه منذ سنة، وانتسخه بنسختين، ولم يكن يتكلم عنه بعدُ مع مرشده. وهو يخبره بأنه سيرسل إليه قريبًا ملاحظة توجز هذا القانون. ولن يكون للأب سوى التتمة العملية التي سيُعطيها.

بعد قراءة هذه الرسالة، لا يتردد الأب هوفلان من بعد. انه رفض قاطع وواضح ونهائي يجلبه له بريده في ٤ ايار : " امكثْ في الناصرة [...] ولا استطيع أن اعطيك نصيحة اخرى امام الله ". ربما لم يكن ضد فكرة العمل في مستشفى، ولا ضد الرسامة الكهنوتية، بل كان يتمنى هذه الرسامة لتلميذه. الا ان نبرة الرسالة والغليان وعدم الصبر لدى الأخ شارل أظهرت له ان هذه المشاريع لا تأتي من الروح. ان الأب المسكين مريض وعاجز عن الإمساك بريشة، وهو الآن مضطرب بشأن الأخ شارل. وسيزداد اضطرابه حينما سيتلقى الرسائل اللاحقة، لأن الأحداث تتسارع. وحينما تلقى ثلاث رسائل في آن واحد، لن يسعه سوى أن يلاحظ : " ان الكرة قُذفت، فمن سيوقفها ؟ ".

---

(٢١) الموضع نفسه، ص ١٣٤.

وبالفعل يبدو ان ناسك الناصرة، في غيرته الساذجة، قد علق بفخّ مالي. وليس ذلك لأول مرة، ولكن هذه المرة بمال الآخرين. فهو يظن انه لا يسعه التراجع، وهو يريد كالعادة الذهاب إلى نهاية مشاريعه، تحت خطر الضياع فيها. وهو لا يريد أن يرى هذا الخطر ويجد ذاته مبحرًا رغمًا عنه، ولكن بذنبه، في أمر سيكلف عائلته غاليًا جدًا، وبصورة غير مباشرة. سيغيّر حياته كليًا. " الوقت الحاسم " يُعاش الآن، ويُتّخذَ منعطف جديد. لقد كُتب الكثير في محاولة تبرير تصرّف الاخ شارل في هذا الوقت. ولكن لا شيء يستطيع ان يعذره، الا القوة التي تدفعه، وتجعله اعمى وأصمّ.

لم يتلقَّ جوابًا من الأب هوفلان في مطلع شهر آيار، ويعزو ذلك إلى العواصف التي تعصف بالمراكب. ولكن في الحقيقة لا يكتب الاب، اذ يعتقد انه قد عبَّر عما كان يريد ان يقوله. فرسالته الواضحة جدًا وصلت إلى الناصرة في ١٧. والرفض القاطع لم يؤثر في الأخ شارل الذي يجاوبه في اليوم نفسه :

" لقد تلقيت الكثير من الرسائل مني منذ ٤ آيار... قد تفلح في تغيير نظرتك [...] ولقد جاء رفضك متأخرًا جدًا، ليس نتيجة اعمالي، بل نتيجة احداث غير متوقعة... ".

ثم يضيف :

" ان الناصرة لم تكفَّ عن ان تكون موضع تنعمي وتفضيلي، ولكن، كما اقول لك، اظن أن خدمة يسوع تدعوني إلى جبل التطويبات، مؤقتًا ولوقت قصير، وقت قصير.

فهو لا يستطيع ان يرى ان هذا الأمر قد رُتب لانتزاع مالٍ منه. وسينتهي الأمر بالسيد ريموند دي بليك بالرضوخ إلى مطلب ابن حميه الناسك المتكرّر. ولن يعاد اليه المبلغ ابدًا، وستدوم هذه القضية المعقّدة جدًا سنوات عديدة.

اما الأب هوفلان، في رسالته في ٢٠ آيار، فلن يهتم من بعد بالقضية المالية، ولكنه يتمسك برفضه فيما عداها :

" اني مرتاعٌ لمشاريعك [...] افضّل ان تشتري، اذا لا يسعك غير ذلك، ارض جبل التطويبات، وان تهديها إلى الفرنسيسكان، وان تقف عند هذا الحد [...] لا اعتقد ان هذه فكرة الكاهن الناسك تأتي من الله [...] ".

وفي غضون ذلك، يستمر الاخ شارل في تصميم مشاريع، وهو يتردد بين باريس واورشليم كموضع ممكن لرسامته.

ان وجهة نظر الاب هوفلان، كما لاحظنا، واضحة. لكن في رسالته نوعًا من القبول، وان كان قد أُعطي على مضض. فهو يواصل قوله :

"ولكن، اذا أحسست بحركة لا تُقاوَم، فخذْ قانونك واذهب إلى بطريرك اورشليم، وانطرح عند قدميه والتمس منه النور. اما انا، يا ابني، فلا نورَ لي في هذا الشأن، فلا ارى سوى معارضات، واخشى ان يندسّ الروح الذاتي تحت بذلك وتقواك... وكلما افكر في الأمر، أرى الأمر هكذا [...] ان ابنة عمتك مضطربة جدًا، وانا كذلك ".

واذ كانت الحركة لا تُقاوَم، حضر الاخ شارل في ٢٢ حزيران عند المونسنيور بيافي بطريرك اورشليم اللاتيني، وأخضعَ له قانونه لنساك القلب الاقدس. ونعرف انه تعرّض لسوء المعاملة. وقد اضطر إلى إطلاع الأب هوفلان على ذلك في رسالة فُقدت. فأجابه الاب هوفلان في ٢٥ تموز وهو لا يُخفي غبطته بهذا الإخفاق :

" ان ما حدث هو بالضبط ما كنت اشتاق اليه [...] في هذا كله، رأيتُ يدَ يسوع [...]. ففي غمرة الافكار غير الواضحة التي كنتُ فيها وقتًا، ما كنت

ادري ماذا أقول ".

وهو مبتهج بعودة الاخ شارل إلى الناصرة. ولكن للأسف فان هذه الرسالة لن تبلغ إلى الاخ شارل الذي قد غادر الناصرة، وهو يكتب من يافا ويخبر الاب هوفلان بأنه سيصل قريبًا إلى باريس. وهو يعتذر مسبقًا لأنه لم يفعل ما طلبه منه الأب.

وإخفاقه في مسعاه لدى البطريرك لم يكن له علامة تدعوه إلى التخلي عن مشروع الكهنوت الذي هو ظاهريًا مخالفًا لدعوته. ولكنه لن يجدّد مسعاه، ولو انه دُعي لذلك. فهو يرى ان هذا الرفض علامة على ان عليه أن يقوم بهذا الطلب في فرنسا، عند اسقف مونتمارتر. أخيرًا يبتهج لأن البطريرك لم يسمعه. فانه منذ بعض الوقت، يبدو ان عليه ان يذهب إلى فرنسا لكي " يعزّي " اخته وصهره. انه " واجب جديد "، ولاسيما انه، في سبيل الحصول على مبلغ المال، قد وعدهما تقريبًا بأن يصبح كاهنا. فكانت الفرصة مؤاتية ليقوم بزيارة لهما. ومتى سيكون الأمر ممكنًا ؟ انه يجهل ذلك. لكن الأحداث تتسارع. ولا ندري لماذا جاءَ إلى اورشليم في نهاية تموز ثُم أبحرَ إلى فرنسا في ٨ آب. لقد عهدت كلاريات اورشليم إليه بمهمة في روما.

وهناك جملة من الأب هوفلان وردت في الرسالة المؤرخة في ٢٥ تموز من شأنها أن تختم هذه قصة التجارب الطويلة.

" كنت أعرف ان المعلم سيقود كل شيء. لم تكن فكرة كان يجب العمل على إنجاحها. بل كانت إرادة الله التي يجب البحث عنها، وتركها لكي تكمل بهدوء في الهوان والصغر، فكرة يسوع التي ابتدأت في بيت لحم، وتواصلت في الحضانة الطويلة التي تمت في الناصرة ".

في ٢١ تموز، كتب الأخ شارل إلى اخته رسالة أخرى ذات معنى أكبر،

وهو لا شك لا يقيس مدى تطابقها مع ما عاشه في الآونة الأخيرة : " لا نولينَّ أهمية لأحداث هذه الحياة، ولا للأمور المادية، انها احلام لليلة فندق "[٢٢]. وماذا بقي له من هذه الأحلام المتتابعة ؟ رغبة واحدة، وكان قد عبَّر عنها بوضوح لأخته في ١٠ تموز : " ان شوقي إلى الدرجات المقدسة يبقى ثابتًا، أما ما سوى ذلك ففي الشك "[٢٣]. فهل كان يجب كل هذا الدوران وهذه المآزق لدفعه إلى أن يريد ويطلب ما كان يرفضه بإصرار منذ سنوات ؟

ما إن وصل إلى باريس في ١٧ آب، حتى ذهب إلى زيارة الأب هوفلان. وقد وصف الأب هوفلان لماري دي بوندي هذه الزيارة :

" لقد تعشى ونامَ في البيت، وتغدّى معي، واتّخذ طريق سيدة الثلوج وروما. كان لباسه غريبًا، وكان يبدو تعبًا ومنشغل البال. اظنه مريضًا، ولكنه كان رقيقًا جدًا. انه نفس قديسة جدًا. وهو يريد أن يكون كاهنًا. وقد أشرت له إلي الوسيلة. كان له القليل جدًا من المال، فأعطيته شيئًا منه. وكان يعرف جيدًا فكرتي : كنتُ قد أرسلتُها إليه في برقية. الا ان شيئًا أقوى يدفعه. وهل قام مرشد قط بإرشاد اي كان ؟ ولكني لا أحتاج إلى ان أقوده، فما عليَّ سوى ان اتعجب منه وأن أحبه ".

ان المكان الذي سيذهب إليه بعد رسامته مذكور أيضًا. ولِمَ لا تكون الجزائر ؟ ان الأب هوفلان يفضّل الأراضي المقدسة، في الناصرة أو في أي مكان آخر، كاهن تحت ظل دير، ولكن ليس في جبل التطويبات. وسيكتب من روما في ٣ أيلول إلى ماري دي بوندي :

" حسب رأي الأب، أنا في روما لبعض الوقت، ثم أذهب لأُمضي بعض

---

(٢٢) بازان، ص ١٧٨.

(٢٣) الموضع نفسه، ص ١٧٨-١٧٩.

الوقت في دير سيدة الثلوج، حيث أكمل استعدادي للرسامة الذي بدأته ههنا... لقد حكم الأب أن عليّ، رغم عدم استحقاقي، ان أقتبل هذا سر الكهنوت المقدس جدًا وأن أقدم الذبيحة الإلهية. ولأن أُرسم في ظروفي هذه، شيء صعب بشريًا. ولكن الله سهَّل كل شيء بوساطة رئيس دير سيدة الثلوج الطيب والممتاز : فهذا سيوفر لي الضيافة حتى الرسامة، وسيهيئني لها هو نفسه، ولقد رتّب كل شيء مع اسقفه... لا يسعني ان أُعبّر له عن شكري العميق ! [...]

فلا تُطرح لي من الآن قضية السكن على جبل التطويبات. أظن اني كتبت لك عن هذا. وحسب رأي الأب (هوفلان) سأعود بعد الرسامة إلى الناصرة، حيث استمر في العيش مثل كاهن تحت ظل هذا دير القديسة كلارا المضياف والهنيء الذي استقبلني استقبالاً جيدًا[٢٤] ".

ان الانطلاق من الناصرة والعودة إلى فرنسا لا يمكن أن يُعتبر افعالَ طاعة للأب هوفلان. وهذا لا ينخدع : " كان يعرف فكرتي جيدًا، وكنتُ قد ارسلتها إليه في برقية. " لا يهم الأمر. فالأب يرى ما وراء الأمور ويحاول الدخول إلى منطق يتجاوزه. وهذا المنطق الذي لا شرحَ له سيدفع شارل دي فوكو إلى الكتابة بعد سنة : " اتخذت طريق فرنسا ايضًا، حسب نصيحة معرّفي، لكي أقتبل منها الدرجات المقدسة[٢٥]. " وحينما سيكتب هذا، سيعتقد ذلك حقًا بما ان الأب سيكون قد أيد أجراءُه بعد فوات الأوان. ولا أهمية كبيرة للتسلسل الزمني في روايات الدعوة ! " ان إرادة الله ستكمل : سواءً بالبشر أو ضدهم، سيعمل لنا ما هو الأفضل " : هذا ما كتبه إلى أخته في ١٠ تموز، وهكذا ستنتهي " أحلامه في ليلة فندق ". لقد بدأت في حياته

---

(٢٤) ارشيف (التماس دعوى التطويب). نشرة رابطة شارل دي فوكو، العدد١٤٢، نيسان٢٠٠١، ص١٠.
(٢٥) رسائل إلى هنري دي كاستري، في ١٩٠٨/٨/١٤.

مرحلة جديدة. فهو لا يحلّل ما جرى. فهل هو واعٍ بهذه الحقيقة التي اكتشفها فيه الأب هوفلان والتي تشرح كل شيء : " ان شيئا أقوى يدفعه، فليس لي سوى ان أتعجب منه وأن أحبه ".

هل يمكن تمييز هذا " الشيء الذي يدفعه " والذي من شأنه أن يشرح لنا مسيرته المعقدة في هذه السنوات الثلاث ؟ ليس الأمر سهلا، لكن في هذه التجارب المختلفة عناصر ومن شأنها أن تمهّد الطريق.

فإن دير السكوتيين، وأورشليم، والمستشفى، وجبل التطويبات، تتمثل كموضع آخر يتعارض مع الإستقرار والتجذّر في الناصرة، ومع دفن الحبة في الأرض.

العمل، والخلق، والشغل في شيء، والخدمة، وأن يكون المرء نافعًا، وأكثر فاعلية : انها أفعال جيدة وأشواق شرعية، ولكنها كانت مضادّة للفاعلية السامية في الناصرة في عدم الجدوى الظاهري، وتتاكد هذه الفاعلية دومًا في رسائل الأب هوفلان، وكذلك في رسائل الأخ شارل.

فأن يكون مستجدًيا، ورئيس دير السكوتيين، وخادمًا في مستشفى، وكاهنًا في هيكل، ومؤسس رهبانية : ليست هذه حالات رديئة في حدّ ذاتها، ولكنها لناسك الناصرة، كانت كلها أحلامًا تمنعه من أن يعيش الحالة الحاضرة بملئها، الحالة الوحيدة التي تحمل قيم حياة الناصرة. ان هذه البدايات المتكررة دومًا لا تتوافق مع الاستمرارية التي تقتضيها الناصرة.

ان اورشليم، والكهنوت، وجبل التطويبات كان من شأنها ان تضع الأخ شارل في حالة ظهور متناقضة مع الحياة الخفية التي تحدّد حياة الناصرة.

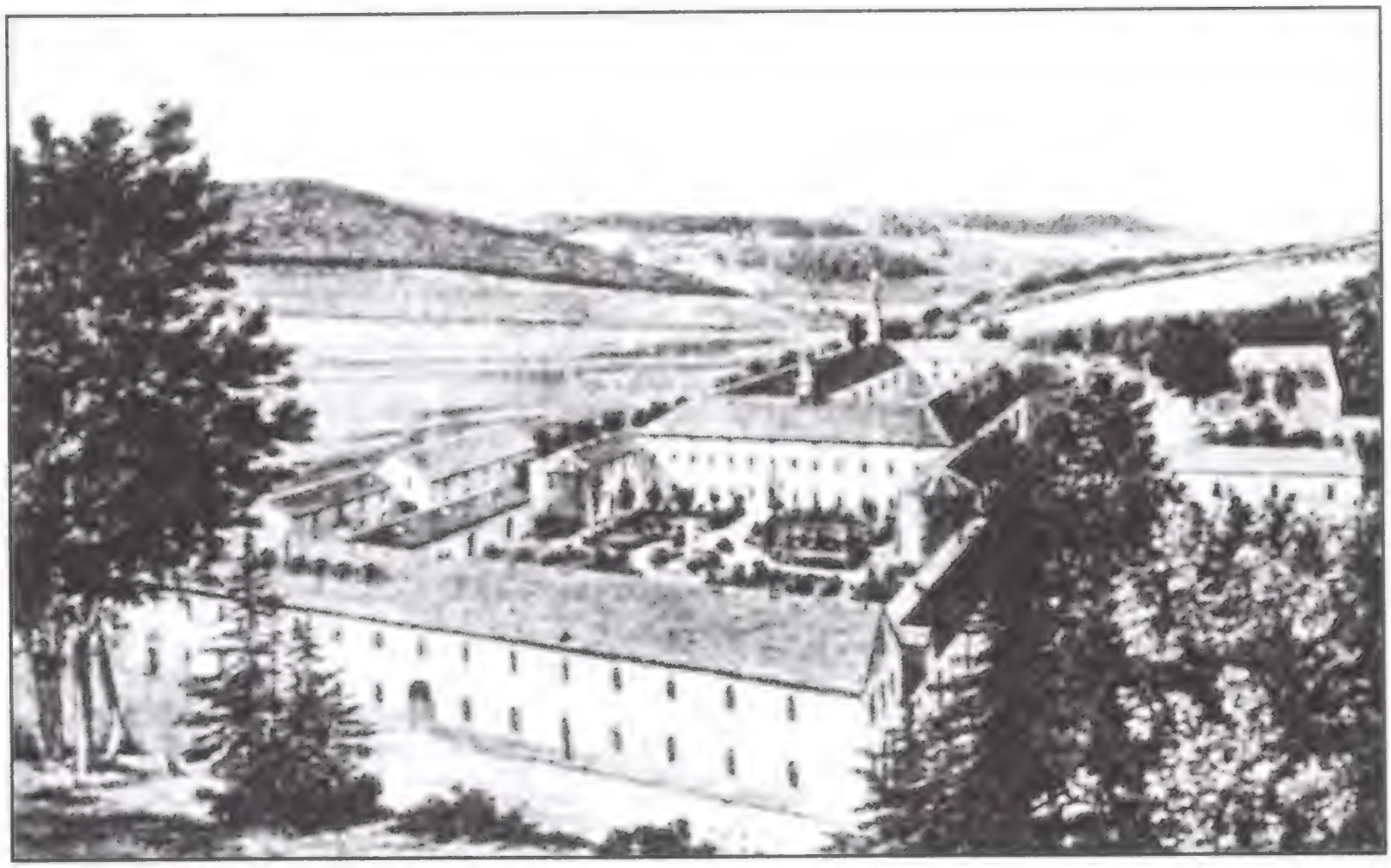

صورة دير سيدة الثلوج

- ١١ -

تغييرات في التوجّه

اننا نجد شارل دي فوكو من جديد في روما حيث يقيم خلال شـــهر أيلول سنة ١٩٠٠. وكان الاب هوفلان قلقاً للأبعاد التي قد تأخذها " مهمته من اجل الكلاريات "، فكتب اليه في ١٣ أيلول :

" اخرج سريعًا من هذه القضايا والمعاملات، بما امكنك من الســرعة. لا تنجرف بهذه قضايا المال. امنعك من هذا، يا صديقي العزيز. وحــتى لا تتكلم مع ابنة عمتك في شأن ضمان قرض. اذهب إلى بربــيري، وامنح اختك هذا الفرح. هذا خير من ان تأتي هي إلى دير سيدة الثلوج !... والآن الكهنوت ! انظر إلى هناك. ولا تنظر إلا إلى هناك، حالما تكون قــد انجزت المهمة التي كلفتك بها رئيسة دير اورشليم ".

وما إن قام بأداء المهمة للكلاريات، حــتى ترك روما وتوجه إلى منطقــة بورغونيا حيث أمضى بضعة ايام عند أخته، وتعرّف إلى اولادها وبناتها، قبل الدخول إلى دير سيدة الثلوج في ٢٩ أيلول.

في قلاية صغيرة من الزاوية الشمالية الغربية من الدير، واصل الاخ ماري - ألبيريك، الذي استعاد اسمه السكوتي حياته النسكية. في ٢٢ كانون الأول، رُســم شماسًا انجيليًا في فيفييه، وفي نهاية الرياضة الأستعدادية[١]، كتب، حســب عاداته، اختياراً فيه يؤكد على توجيه حياته، كما كان الامر قد تقرّر من الأب هوفلان.

في هذا الاختيار، يقــول انه عامل فقيــر مخصص للإقتداء بحياة يســوع

(١) شارل دي فوكو، وحيد مع الله، باريس ١٩٧٥، انظر الرياضات الاستعدادية للرسامات التي وضعها في دير سيدة الثلوج، ص٢١-٨٣.

الخفية. انه يشبّه واجباته كشماس رسائلي : بناء النفوس وخدمة المذبح المقدس، بواجبات الزوجة التي عليها ان تحب الزوج، وتطيعه، وان تعتني بالاولاد وبالبيت. وهنا يُطرح سؤال : أين سيقوم بهذه الواجبات ؟

" الآن في فيفييه، وبعدئذ حيثما يرتئي مرشدي [...] حيث سيدعوني العريس... حيث سيتمجد بحضوري... حيث سيتسنى لي عمل اكبر خير للنفوس... حيث سأتمكن من تأسيس نسّاك القلب الاقدس في الأرض المقدسة اولاً، لانها بلاد يسوع، ولأنه من ثمة أتتنا " كل نعمة "[٢].

وكما رأينا، فان هذا التأسيس، الذي كان يشغل باله منذ سنة ١٨٩٣، اخذ شكلاً في نهاية سنة ١٨٩٨. وكان قد كتب قانونه خلال سنة ١٨٩٩ وقام بنقله آنذاك في نسختين.

أين سيتسنى له ان يعيش هذا القانون ؟ ربما مع آخرين ؟ انه يفكر فيه من جديد في نهاية سنة ١٩٠٠. واذ استبعدَ الأب هوفلان جبلَ التطويبات، فهل سيتم ذلك في الناصرة ؟ وكان ثمة موضع آخر عزيز على قلبه " أحد أقدس المواضع المقدسة وأكثرها عرضة للتخلي "[٣] ويمثل في فكره : بيت عنيا. لماذا بيت عنيا ؟ وكان قد كتب في تأملاته :

" بوركتَ بين جميع المواضع الأخرى من الأرض، يا بيت عنيا قلبي، انت وحدَك الذي منحت مخلصَ البشر ما رفضته عليه جميع المواضع الأخرى من الأرض ".

وكان يتصور إذ ذاك " هذه الزاوية الوحيدة حيث استُقبل الخالق استقبالا

---

(٢) الموضع نفسه، ص٢١-٢٢.

(٣) الموضع نفسه، ص٢٢.

حسناً : بيت عنيا، موضع الصداقة حيث عرف الناس ان يكونوا في صحبة يسوع ".

ولكن ليست هذه الاعتبارات العاطفية هي التي تستوقفه من بعد، لأن فكرة اخرى تسكنه : بيت عنيا تبدو له الموضع " المتروك اكثر من جميع الاماكن المقدسة ". ولكن كيف يستطيع ان يفكر في " موضع متروك " دون ان يفكر في مواضع اخرى متروكة اكثر من جميع اماكن الأرض المقدسة ؟ وهكذا تظهر لأول مرة في إحدى كتاباته " أفريقيا الصحراوية ". وفي وقت لاحق، سيكتب إلى الأب كارون، في ٢٢ آب ١٩٠٥ :

" في شبابي كنت قد تجولت في الجزائر وفي مراكش، مراكش ذات مساحة تعادل مساحة فرنسا، ونفوسها ١٠ ملايين نسمة، ولا وجود لكاهن فيها، وفي الصحراء الجزائرية التي مساحتها تعادل ٧ أو ٨ مرات مساحة فرنسا، وسكانها أكثر مما كان يُعتقد سابقا، وفيها نحو ١٢ مرسلا. يبدو لي ان ليس ثمة شعب متروك أكثر من هؤلاء "[٤].

انه يرى هذه الأرض حيث لا يوجد أحد لكي يحب يسوع أكبر محبة، وحيث من شأن نساك القلب الأقدس ان يحققوا خيرًا كبيرًا.

ان هذا ليس سوى حلم للمستقبل، ولكنه يكشف لنا ان ثمة فكرة جديدة تتكوّن في رأس المستكشف القديم. كان قد انطلق إلى " أقبس " سنة ١٨٩٠ لكي " يذهب ويعيش بعيدًا عن كل ما كان يحبه، في أرض غير مسيحية ". وهو يريد أيضًا ان يعيش الآن في موضع يسعه فيه " ان يكون له حصن وصمت وابتعاد عن كل شيء زمني، حياة كلها تأملية ". ولكنه يريد ان يحيا

---

(٤) ٢٥ رسالة غير منشورة للأب دي فوكو، باريس ١٩٤٧، ص١٣-١٤.

١١- تغييرات في التوجّه .....

" في بلاد الرسالة ". فهل ذكّرته مناظر منطقة " أرديش " بمناظر الصحراء ؟ في شهر أيلول، هل أيقظ اللقاء بأسقف مرسَل في شوارع روما حبَّه لأفريقيا ؟ وهل فكّر من جديد في نهاية هذه السنة، في عيد الميلاد الذي أمضاه سنة ١٨٨٣ في زاوية تانسينت، جنوبي مراكش، حيث يبدو أنه قد شعر بأول يقظة للإحساس الديني. وفي وقت أقرب، ربما ان لقاءَه في سيدة الثلوج بالأخ أوغسطين، وهو جندي سابق، قد جعله يعيش من جديد الذكريات الصحراوية. انهما فعلاً يكشفان الواحد للآخر مسيرات مشتركة في الجزائر الجنوبية في سنة ١٨٨١. ألا يمكن ان يكون هذا المبتدئ الأول بين نساك القلب الأقدس ؟

ان الأخ اوغسطين، وهو أيضًا غريب الأطوار قليلاً، كان قد أراد الدخول عند السكوتيين في ١ كانون الثاني سنة ١٩٠٠، وهو اليوم الأول من القرن. ولكنه كان قد ضاعَ في الثلج ولم يستطع الوصول إلى دير السكوتيين إلا في ٢ كانون الثاني. وفي شهر آب، حينما حضر الأخ شارل إلى دير سيدة الثلوج ليطلب إليهم قبوله بعض الوقت ليستعد للدرجات المقدسة، التقى، لدى ذهابه عند الرئيس، بالأخ أوغسطين. فشعر هذا بحاجة إلى التحدث إليه وتهنئته لكتابه " استطلاع في مراكش " الذي كان قد قرأه أو سمع عنه. فأجابه الأخ شارل بتواضع : " آه، أجل، سيكون نافعًا جدًا لي في يوم الدينونة الأخيرة ". انها ردة فعل تلقائية سنعود إليها في وقت آخر.

فكرة جديدة

خلال شهري نيسان وايار سنة ١٩٠١، تظهر أيضًا فكرة جديدة، اضطرَّ إلى إطلاع الأب هوفلان عليها. الا ان الرسائل قد ضاعت. أما أجوبة الأب هوفلان فقد احتُفظت وهي تتيح لنا ان نعرف شيئًا عن محتوى بعض رسائل شارل دي فوكو. ففي شهر نيسان، لا بدَّ انه كتبَ في الأقل مرتين. ولدينا

جواب في ٧ آيار يذكرّنا برسائل الناصرة :

" أمكث، يا ابني، في دير سيدة الثلوج، تحت حماية الأب الرئيس. واني اوافق في هذا الشأن على ما كتبته إليَّ في رسالتك الأخيرة. وهذه سنة التثقيف التي تمضيها هناك، في ظل الدير المبارك، لا تبدو لي سنة ضائعة. ستعمل هناك ايضًا للناصرة، وستملأ الإناء الذي منه ستأتي النفوس وتشرب. وستقوّي الايادي التي سيستند اليها الآخرون. وليس هذا تخليًا عن رسالتك في الارض المقدسة - بل استعدادًا لها - انتظرْ سنة، ولكن بدون التخلي عن فكرتك عن الشرق. وهناك رؤية يبدو ان الله يريدها ماثلة امام عينيك. انها فكرة هذه الرسالةَ وهذه العائلة المجتمعة حول المعلم الإلهي. وهذا يتطلب، يا ابني، نضجًا واستعدادًا. وهذه السنة ستوفّر لك هذا، وما ستفعله هناك، ستفعله للأرض المقدسة التي تجتذبك وتسترعي نظرة روحك، وتوجّه قلبك ".

ان هذا الامر مهم جدًا، لأن الاب هوفلان، للمرة الاولى، يعترف بأن لشارل رسالة مزدوجة : من جهة للأرض المقدسة، ومن جهة اخرى لجمع عائلة حول يسوع في الناصرة. فلا يسعنا ان نقول، كما كُتب مؤخرًا، انه كان دومًا معارضًا لهذا المشروع. وهنا ايضًا سنرى ما طرأ من التطور لدى الاب هوفلان.

في رسالته التالية المؤرخة في ٢٩ آيار، نرى ان الاخ شارل لا بدَّ انه قدَّم عرضًا آخر.

" اختلِ لأجل الرسالة التي يبدو انك قد قبلتها. لا تتبع أي فكرة اخرى، الفكرة التي تكلّمني عنها، ما لم تدفعك إليها حركة لا تُقهر. ان هذا لا يبدو لي لأول وهلة، يا ابني الحبيب، مثل أمر محبَّذ. اما بعض الوقت بعد كهنوتك، فسترى ! ان ثمة استعدادًا نشطًا لن استهين به، اذا جاءتك الحركة التي

لا تُقهر. ولكني من حيث المبدأ لأفضّل اختلاء الدير ".

ان هذه " الفكرة الأخرى " لا يمكن ان تكون سوى فكرة صحراء افريقيا، حيث سيسعه ان يذهب ويستعد بنشاط لرسالته المزدوجة، عوض بقائه سنة اخرى في دير سيدة الثلوج. وحسب الأب هوفلان، يجب الا تُتبَع هذه الفكرة الا " اذا دفعته إلى ذلك حركة لا تُقهَر تقريبًا ".

ولكن في مطلع شهر حزيران، يبدو ان هذه " الحركة التي لا تُقهَر " تسكنه اكثر من اي وقت آخر، ويشعر بكونه مرسلا، وإلى رسالة خاصة. ولقد رأينا كم مرة في الناصرة او في اورشليم، ظنَّ أنه مكلّف برسالة، ولكن الأمر أخفق كل مرة، فهل نحن هنا ايضًا امام مجرد وهم ؟ او يتوقف الأمر على نداء اكثر رصانة ؟

فلقد ظهرت هذه الفكرة الجديدة في شهر نيسان، وأدَّت إلى نوع جديد من قراءة الكتاب المقدس. وقراءته لا تقتصر على الإنجيل، بل يقرأ ايضًا اعمال الرسل ورسائل القديس بولس وسفر الرؤيا. وإذ يقرأ النصوص العديدة المكتوبة آنذاك، وملاحظات ونقل جمل من الانجيل، نرى ان اختيار الجمل ذو دلالة. وبالإضافة إلى ذلك، فهو يجري انتخابًا في هذا الاختيار، ثم انتخابًا للانتخاب. ونرى فيها جملاً اكثر تميّزًا :

" جئت لألقي ناراً على الأرض ". " ان اخلص ما كان هالكًا " و" لكي أنير لجميع الذين هم في الظلمات وظلال الموت "، " لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى "، " اذهبوا إلى العالم كله واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها "، " كما ارسلني أبي، أنا أيضًا أرسلكم "، " ها أنا أرسلكم مثل خراف بين ذئاب "[٥].

---

(٥) وحيد مع الله، ص٧٧-٧٨.

النسّاك يصبحون اخوة

ان هذه " الفكرة الجديدة " تقوده ايضًا إلى القيام بقراءة جديدة لقانونه الذي كتبه سنة ١٨٩٨ لنسّاك القلب الأقدس. وهو يضع كلمة " اخوة صغار " عوض " نسّاك ". وهذا التغيير يضطره إلى اعادة النظر في نسختي قانونه، لكي يصحح فيهما جميع المقاطع التي لم تعد تتناسب مع المنظور الجديد. وكل مرة يمسح كلمة " نسّاك " ويضع عوضها " اخوة صغار ". وهذا ما يظهر واضحًا في المخطوط الأصلي. وهذا عمل التصحيح شغله بعض الوقت، إذ يضع ايضًا نصَّ المشترعات بالفرنسية ويترجمها إلى اللاتينية. وهكذا لدينا ٤٠ مقطعًا من المشترعات وهي تتناسب مع ٤٠ فصلاً من القانون. في القانون، يبدأ كل فصل بسلسلة من الاستشهادات بالإنجيل. وفي بدء هذه المجموعة، يُدخل " النموذج الوحيد "، هذا الكتيّب الذي كان قد استنبطه في الناصرة.

ان التغيير اكثر بكثير من تغيير في الإتيكيت، وهذا يقوده إلى القيام بتصحيحات اخرى واحيانًا إلى لصق ورقة على بعض السطور او على نصف صفحة. وهكذا تظهر كلمات أخرى ستتخذ أهمية، خاصة صفة " الشامل ". وسيكون لدينا هكذا " المحبة الشاملة "، " الاخ والصديق الشامل ". وستجد هذه التعابير نفسها في الرسائل المكتوبة خلال الشهور اللاحقة، للتحدث عن مشروعه الجديد للحياة. وسنجد ان استخدام مفردات " الأخوّة الشاملة " سيتحدد واقعيًا في هذه سنة ١٩٠١، في دير سيدة الثلوج وفي الشهور الاولى التي امضاها في بني عباس، حتى بداية سنة ١٩٠٢.

ان العبور من " النسّاك " إلى " الاخوة الصغار " هو أهم تغيير لسنة ١٩٠١ هذه. فانتهى الحديث عن ناسك وعن متوحد، وهو من الآن يفكر بألفاظ " اخوة " للحديث عن رفاقه في المستقبل، وعن " الأخوّة " للحديث عن بيتهم.

١١- تغييرات في التوجّه .....

وكان هذا البيت يُدعى في القانــون الأول " الناصرة "، وفي القانون الكبيــر لنسّاك القلب الاقدس " منسك ". لا شك انه هكذا يستطيع التعبير بنوع أفضل عن ماهية رسالته الجديدة. فالســكوتي القــديم يريد ان يكون دومًا راهبًا، لكن الناســك القــديم يريد ان يكون أخًا، أخًا ليســوع، وأخًا للناس. وكأن الاهتمام بالأخرين قد دخــل واقعيًا ضمن مشــروعه، وسيكون مــن الآن الدافــع إلى اختياراته. فلكي " يكون - مع - يسوع " لا يكفي ان يكون " وحيدًا - معه "، وان يذهب بــعيدًا عن كل شــيء لكي لا يكون الا معه، بــل يجب ان يعمل أفضل ما يرضيه. وما يريده يسوع، فوق كل شيء، انما هو خلاص البشر[٦].

وهل هذا جديد ؟ كلا. يسعنا ان نعود إلى ما كتبه إلى هنري دوفيرييه في ٢٤ نيسان سنة ١٨٩٠، بعد ثلاثة أشهر من دخوله إلى دير السكوتيين :

" جميع البشر هم ابناء الله الذي يحبهم حبًا لا متناهيًا : فمن المستحيل ان نحب او ان نريد ان نحب الله بدون ان نريد ان نحب الناس [...] فان وصية الرب يسوع المســيح الأخيرة، قبــل ســاعات من موته كانت : " يا ابــنائي الصغار، أحبوا بعضكم بعضًا. بهذا يعلم الناس انكم تلاميذي اذا احببتم بعضكم بعضًا "[٧].

الفرق هو انه كان يستطيع الكتابــة في الدير وهو يفكر في الذين كانوا في الخارج. كان يفكر إذ ذاك خاصة في الابتعاد عنهم ونســيانهم، وفي ألا يراهم

---

(٦) هذا هو السرد الأخير، المرقم ٧٤، " لمقاطع بنّاءة مستلّة من مؤلفين اتقياء " وقد نقــله في دير ســيدة الثلوج، وهو القديس يوحنا الذهبي الفم : " ان أفضل وسيلة لكي تكون مع المسيح، هو ان نكمل ارادته. ويريد المسيح قبل كل شيء ان تحصل على خلاص اخوتك " موعظة في القديس متى ٧٧. وســيكتب هذه الجملة بخط بارز في بداية الكلام الذي سيفتتحه عند وصوله إلى بني عباس.

(٧) رينيه بوتييه، أمير صحراوي مجهول هنري دوفيرييه، باريس ١٩٣٨، ص٢٢٦.

الا في الحلم، كما كان يكتب ذلك إلى الأب جيروم، منذ الناصرة في ١٩ أيار سنة ١٨٩٨.

" ان ارادته لك هي الا تنشغل الا به وحدَه. ولا اقول الا تحب الآخرين، بل ان تحب بعمق محبة مضطرمة لأجله. ولكن مؤقتاً ولمدى سنوات طويلة، ان تتساهم تمامًا، دون ان تراهم نوعًا ما الا في الحلم، وان تعيش، ولا يسعني ان اكرّر ذلك بكفاية، في العالم كما لو كنت وحيدًا مع الله وحده [...] انظر إلى جميع الناس، إلى جميعهم، وكأنهم غير موجودين "[٨].

كانت إذ ذاك هذه طريقة محبتهم والعمل على خلاصهم مع حرمان رؤيتهم والامتناع عن الكتابة إليهم، وتقديم هذا الألم لأجل خلاصهم.

من الآن، ليس " الآخرون " مجرَّد مثاليات، بل هم اناس يجب الذهاب اليهم، والتنقل للالتحاق بهم، وان يجعل ذاته " قريبًا " منهم، والدخول في " احتكاك " معهم، وعقد " علاقات " متينة معهم. انها المفردات التي سنراها تظهر في ما بعد. ان يصبح اخاهم وصديقهم. ولا يكفي من بعد الحب من مسافة، والانعزال ليكون مع يسوع بنوع أفضل، لكي يخلص النفوس بنوع أفضل، ان الانقلاب كبير، ولكن كل شيء لا يُرى بوضوح. فان الاخ شارل، الذي قبلَ هذا التوجيه الجديد لحياته، لا يشك بنتائج التغيير الذي حدث. يلزمه بقية حياته كلها لكي يعي هذا الأمر ويرى إلى أين سيقوده. لا ننسَ انه يحمل القوانين التي كتبها للنساك، وبالرغم من التصحيحات التي اجراها. لا نتعجب من ان الأمر لا يسير حسناً بعد بعض الوقت.

---

(٨) " الموضع الأخير الحبيب "، ص١٨٣.

إلى أين يذهب ؟

لقد رُسم كاهناً في فيفييه في ٩ حزيران سنة ١٩٠١. وفي الاختبار الذي يجريه بعد ذلك بوقت وجيز، فانه على السؤال : إلى أين يجب ان يذهب لكي يؤسس اخوة القلب الأقدس الصغار ؟ يجيب :

" ليس إلى حيث تزداد الحظوظ البشرية بأن يكون لنا مبتدئون وإجازات قانونية، ومال، وأراضٍ ومساعدون. كلا ! بل حيثما يكون الأمر اكمل في ذاته، الأكمل حسب اقوال يسوع، والاكثر تطابقاً مع الكمال الانجيلي، والاكثر تطابقاً مع إلهام الروح القدس : حيثما كان من شأن يسوع ان يسير، إلى الخروف الأشد ضلالاً، إلى أخ يسوع الأشد مرضاً، إلى الاكثر عرضة للاهمال، إلى الذين لهم أقل رعاة، إلى الذين هم " جالسون في اكثف الظلمات "[٩].

وهكذا تتزايد المعقفات وتكثر الاستشهادات في فكره، لكي يصل إلى هذا الاستنتاج، وهو ان عليه الذهاب " اولاً " إلى مراكش.

انه يتكلم عن مراكش لأول مرة، ولكنه في هذه البلاد كان يفكر منذ اولى اشاراته إلى الصحراء الافريقية. يعلم ان الامر لا يتوقف على الدخول إلى مراكش، بل على الدنو منه اكثر ما أمكن في " المناطق الحدودية ". وبعد ايام قليلة، يطرح على نفسه من جديد السؤال عن " اولاً " : " أليس من الافضل الذهاب اولاً إلى الأرض المقدسة ؟ " فالذهاب إلى الأرض المقدسة من شأنه ان يُتيح له ان يستعد. لكن الجواب هو " كلا ". انه لأمر واضح ونهائي : " يجب الذهاب لا إلى حيث الأرض هي الأقدس، بل حيث النفوس هي في أشد حاجة ". انه يعارض الأشخاص من جهة والأرض من جهة اخرى ويعبّر بألفاظ " الشحّة " و" أقصى

---

(٩) وحيد مع الله، ص٧٩-٨٠.

القحط " إزاء " الغزارة الكبـيرة ". وهو يؤكد ذلك كله باستشـهاد أخير، وهو له برهان عن إرادة الله :

" حينما تقيم غداء أو عشـاءً، لا تدعُ اليه اصدقاءَك ولا اخوتـك ولا أقرباءَك، ولا جيرانك الأغنياء... حينما تقدّم وليمة، ادعُ بالعكس الفقراء والمقعدين والعـرج والعميان "(١٠).

وبعد ذلك، في ٨ نيسـان ١٩٠٥، سيستخدم الألفـاظ عينها لكي يشـرح للأب كارون تغيير وجهته :

" ان رياضاتي للرسـامتين الانجيلية والكهنوتية اظهرت لي ان حـياة الناصرة هذه، التي كانت تبـدو لي انها دعوتي، كان يجـب ان اعيشـها ليس في الأرض المقدسة المحبوبة جدًا، بل مع النفوسِ الأشـدّ مرضًا، والخراف المهملة اكثر. ان هذه الوليمة الإلهية التي اصبحتُ خادمًا لها، كان عليَّ ان أقـدّمها ليس للأقـارب والجيران والأغنياء، بل للعرج والعميـان والفقراء، اعني للنفـوس الاكثر حرمانا من الكهنة ".

ان هذا التغيير في الوجهة تغيير في التوجيه، كما جرى الأمر في شبابه إذ كان يقررّ الذهاب إلى مراكش وليس إلى الشرق.

ولكن على شـارل دي فوكو، منذ بضعة اشهر، ان يفكر تفكيرًا آخر عن هـذه البلاد التي عرفها هو الأول. ففي الرابعة والعشرين من سنه، كانت له الجـرأة في التصميم لهذا الأستكشاف والشجاعة لتحقيقه إلى النهاية، مجازفا بحياته. الا يترتب عليه أن يكون له الجرأة نفسها الآن، محبةَ ليسـوع، وليس لأجل هواه ؟ أليس هذا واجبًا يفرض ذاته ؟ وإذ يشـعر جيدًا ان مزاجه يدفعه دومًا إلى عمل ما لم يعمله

---

(١٠) الموضع نفسه، ص٨٣.

١١- تغييرات في التوجّه .....

الآخرون بعد، يتساءل هلا يكون ثمة شـــيء من المحبـــة الذاتية، او من الكبـــرياء الخفية ؟ ويجيب وهو يستشهد بتريزا الأفيلية :

" كلا ! فان مفعوله في هذه الحياة لن يكون التعزية ولا الكرامة، بـــل كثير من الصلبان والهوان : " إما ان تُحتقَر أنت، أو أن أُمجّد أنا، وفي كلتا الحالتيـــن تكون أنت الرابح "[١١].

يبقى السؤال : متى ؟ وهو يكتفي بسرد لوقا ٣٩/١ بمثابة جواب :

" وقامت مريم وذهبت مسرعة " : حينما يكون المرءُ مليئا بيسوع، يكون مليئًا بالمحبة... إذا، حالما اكون مستعدًا بنوع معقول، وحينما، بنفحـــة الروح القـــدس، يقول لي مرشدي : " اذهبْ "[١٢].

ومنـــذ ٢٢ حزيران ١٩٠١، كتب شـــارل دي فوكـــو مع الأب الرئيـــس إلى المونسنيور ليفينهاك، الرئيس العام للآباء البيض، ليعرف أين يمكنه الذهـــاب وإلى من يتوجّه[١٣].

أين سيسعه الاستقرار ؟ وإذ ذاك تبدأ مراســـلة مع هنري دي كاســـتري. وهو يوجه الكلام إليه كما إلى صديق حبيب جدًا، وهو يكبـــره ثماني ســـنوات، ويعرفه قليلاً جدًا[١٤]. ففي ٢٣ حزيران سنة ١٩٠١، كتب اليه :

" أي نقطة اختار لكي احاول القيام بهذا التأسيس الصغير ؟ [...] نقـــطة يمكننا

---

(١١) الموضع نفسه، ص٨٣.

(١٢) الموضع نفسه، ص٨١.

(١٣) الموضع الاخير الحبيب، ص٢٤٢.

(١٤) استنادا إلى وثائق اخبارية، يوازي ميشيل دي سورمان بين مســـيرة هنري دي كاســـتري، ومســـيرة شارل دي فوكو، واستطاع ان يستنتج ان بداية العلاقات بين هذين الرجلين تقع سنة ١٨٨٤.

فيها الدخول في علاقة مع المراكشيين [...] نقطة ماء منعزلة بيـــن عين الصفراء وتوات [...] لا أحـــد يعرف هذه المنطقـــة أحســـن منك. فالتجئ اليك، وارجو ان تتفضّل، أنت الذي غمرتني دومًا بألطافك، فتُســـدي إليَّ هذا الفضل ايضًا، وهو ان تقول لي أي نقطة من الجنوب الاقصى يبدو لك موقفا أفضل لأول تأسيس صغير".

لقد اشرنا إلى تغيير الأب هوفلان الذي كتب في ٢٦ حزيران : " اني انضمّ إلى فكرتك عن افريقيا المهمَلة. " ولكنه كان يودّ كثيرًا ان يراه باقيًا وقتا أطول في دير سيدة الثلوج لكي يحسن استعداده. وسيكتب إليه أخيرًا في ١٥ تموز :

" إتبعْ هذه الحركة التي تدفعك، يا ابني الحبيب، ليس هذا ما كنت احـــلم بـــهِ، ولكني اعتقد انه ما يقوله الله لك، بما انك لا تستطيع البقـــاء في دير الســـكوتيين. اذهب حيثما يدعوك المعلم. ابارك نواياك ومشاريعك التي لا ترمي الا إلى اعطاء ذاتك له وإلى القيام بعمله على الأرض. سأعمل كل ما في وسعي لكي اساعدك ".

وفي اليوم نفسه، أرسل الأب مارتن الطلب الرسمي للكاهن الجديد وقـــدَّمه إلى المونسنيور ليفينهاك : " لم أرَ قط في حياتي رجلاً يحقق المثال الأعلى للقداسة إلى هذه الدرجة[١٥] " وفي هـــذا الطلب، يعرض شـــارل دي فوكـــو بوضوح نوايـــاه ومشاريعه. ولكننا في رسائل اخرى نجد دوافعه الحقيقية.

وليس الحنين إلى الصحراء ومحبـــة أرض هما في الاصل من هذه " الحـــركة التي لا تُقهَر " التي تدفعه، بحيث انه لا يستطيع ان يصلّي من بعد دون التفكير في مراكش، كما كتبَ ذلك إلى هنري دي كاستيري في ٢٣ حزيران.

" نحن بضعة رهبان لا نستطيع تلاوة صلاتنا الربية دون التفكير بألم في هـــذا مراكش الواسع حيث يعيش الكثير من النفوس بدون " تقـــديس الله والانضمام إلى

---

(١٥) الموضع الاخير الحبيب، ص٢٤٣.

ملكوته، والعمل بارادته وبدون ان تعرف الخبز الإلهي للافخارستيا المقدسة ".

ألم يكن له واجب الشكر نحو أولئك الذين كانوا قد " كشفوا له شيئًا اكبر وأصدق من الانشغالات العلمية ؟ "[١٦].

وهذا ما يقوله للأب جيروم، في الرسالة التي كتبها اليه في ١٧ تموز :

" لا يمكنني ان امارس وصية المحبة الأخوية، بدون ان أخصص حياتي لعمل كل الخير الممكن لهؤلاء اخوة يسوع، الذين يعوزهم كل شيء، بما أن يسوع ينقصهم. فلو كنت في موضع هؤلاء البؤساء [...]، الذين لا يعرفون [...] ولا شيئًا من كل ما يكوّن كل سعادتنا ههنا وكل رجائنا هناك (فوق). فلو كنتُ اعرف حالتي التعسة، آه كم اودّ ان يفعلوا الممكن لانتشالي منها ! ان ما اريده لنفسي، عليَّ ان اعمله للآخرين : " اعمل ما تريد ان يفعله الآخرون لك ".

ان الاستعداد المادي يجند بعض رهبان سعداء للمشاركة في عمل ذاك الذي لا يفتأون يعتبرونه قديسًا : المذبح القابل للتفكيك، بيت القربان، شمعدانات خشبية، صناديق لنقل الكتب، الثياب، أواني المطبخ. ومنذ شهر ايلول ١٩٠٠، تصنع ماري دي بوندي بدلة قداس والملحقات الليتورجية. وقدمت كاترين دي فلافيني الكأس وحقة القربان والمبخرة والكثير من الكتب[١٧].

في ٢٢ آب، إذ لم يتلقّ جوابًا على طلبه، وعلم ان المونسنيور بازان قد عُيّن على رأس النيابة الرسولية، كتب اليه رسالة أخرى. وفيها يلحّ ويضيف حجة يظنها كافية للاقناع بضرورة طلبه :

" ان ذكرى رفاقنا الذين ماتوا بدون اسرار وبدون كاهن، قبل عشرين سنة، في

---

(١٦) رسائل إلى هنري دي كاستري، في ١٩٠١/٧/٨.

(١٧) شارل دي فوكو، كراس بني عباس، باريس١٩٩٣، ص٦٦.

حملاتهم، ضد أبـــو عمامة، وقـــد شـــاركت فيها، يضطرني كثيرًا إلى الذهاب إلى الصحراء حالما تكون قد منحتني الاجازات الضرورية، دون تأخير يوم واحد "[١٨].

وإذ تلقى المونسنيور غيران[١٩] رسائل شارل دي فوكو، وقد تعين حديثًا مدبرًا رسوليًا للصحارى، كتب في سبيل الحصول على معلومات. واذ كان على وشـــك مغادرة الجزائر للالتحاق بمقره في الجنوب، في غرداية، أرســـل برقيـــة إلى دير سيدة الثلوج فيها يطلب من الاخ شارل ان يأتي سريعًا جدًا لكي يكلّمه. وبعكس ما كتبه رينيه بازان[٢٠]، فهو ينطلق بدون أمتعة، وقد احتُفظ بهذه الامتعة في دير سيدة الثلوج، وستُرسل اليه في وقت لاحق، اذا ظلَّ في الجزائر. انه مستعد للانطلاق في أول باخرة. وقد كتب العديد من الرسائل لكي يعلن عن ذهابـــه، وغادر يوم الجمعة ٦ ايلول باستيد سان لوران بالقطار إلى مارسيليا. وهناك أقام عند آبـــاء القربـــان المقدس، وقام بحَجَّة إلى " ســـانت بوم " في نهار ٨ أيلول، وأبحـــر يوم الاثنيـــن ٩ أيلول ظهرًا شطر الجزائر.

وقد كتب الأب هوفلان، في ٢٥ آب، رســـالة مقنعة اكثر ما امكـــن إلى الاب غيران.

" ستجد فيه بذلاً بطوليًا، وجَلَدًا دون حد، والدعوة للتأثير في العالم الاســـلامي، والغيرة المتواضعة والصبورة، والطاعة في الغيرة والحـــماس الذي يمتلكه، وروح

---

(١٨) شارل دي فوكو، المراسلات الصحراوية، باريس١٩٩٨، ص٢٧.

(١٩) لقد قسمت النيابة الرسولية في الصحراء والسودان إلى قسمين، وأنشئت المحافظة الرســـولية لغرداية. وسيعلم شـــارل دي فوكو بعـــد ذلك ان أبًا شابًا من الآباء البيض قد عُين على رأس هذه المحافظـــة الرســـولية، وهو الأب شـــارل غيران، الذي لا يتجاوز عمره ٢٩ ســـنة. وهو الذي ســـيجاوب على الرسالتين اللتين كان شارل دي فوكو قد كتبها لاعلان قدومه.

(٢٠) بازان، ص١٩٧.

الإماتة دون أي فكرة للذم والقساوة ضد كائن من كان "[٢١].

وبعد اسبوع، في ١ أيلول، كتب جوابًا على سؤال جديد تلقـــاه من المونســـنيور غيران : " جميع الاعتراضات التي تراودك، ما اكثر ما وردت إلى خاطري ! ولم استسلم إلا إلى الخبرة، وإلى اختبارات طويلة. " وكان قد أوضح قبل ذلك :

" ان دعوته جذبته دومًا نحو العالم الاسلامي. واقامته في الجزائر، وسفره إلى داخل مراكش، والسنوات التي امضاها في فلسطين هيأته وقوّته لهذه الرسالة. لقـــد رأيت مجيء هـــذه الدعـــوة، ورأيت انه كان يختمر بها، وانها كانت تجعلـــه اكثر تواضعًا وبساطة وطاعة [...] ففي نفســـي ووجداني، اظـــن انها آتية من الله [...] لا شيء من الغريب ولا من خـــارق العادة، بل قوة لا تُقاوم تدفعه، مثـــل آلة قوية لعمل شـــاق [...]. ثبات، ورغبة في المعني حتى النهايـــة في الحب وفي العطاء، واستخلاص كل النتائج منها. لا اثر للإحباط عنده ابدًا. وإذا كان لديه سابقًا شـــيء من حدّه الطبع، فانه قد لانَ الآن كثيرًا ! دعه يأتي وسترى ! "[٢٢].

ان الأب هنـــري، الذي أصبـــح رئيس دير الســـتاولي، كتب في ٥ أيلول إلى المونسنيور غيران واوصلَ اليه الرسالة التي تلقاها من الأخ شارل في شهر تموز :

" انها اجمل نفس أعرفها. انه ذو سخاء لا يُصدَّق، وهو يتقدم بـــخطى جبـــارة على طريق التضحية وله رغبة عارمة في بـــذل ذاته لعمل خلاص غير المؤمنين. انه قادر على كل شيء، ربما، عدا القبول بارشاد ضيق جدًا - [...] كل ما يمكنني ان أُضيفه هو اني عشـــت ســـتة اشـــهر في ألفته، وكنت دومًا متأثرا تأثيرًا عميقًا بفضيلته البطوليـــة. ففيه قماش قديسين كثيريـــن. ومجرد حضوره كرازة بليغـــة.

---

(٢١) الموضع نفسه، ص١٩١.

(٢٢) الموضع نفسه، ص١٩٤.

وبالرغم من الغرابة الظاهرية للرسالة التي يعتقد أنه مدعو اليها، يمكنك بكل أمان ان تقبله في محافظتك الرسولية ؟[٢٣].

وفي اليوم نفسه، كتبَ ايضًا المونسنيور بونيت أسقف فيفييه :

" ان الأب دي فوكو ضابط قديم وبارز، قطع مهنته لكي يعطي ذاته لله تمامًا في الكهنوت. وقد جعلته يرتسم كاهنًا. وهو عائد إليّ، واحسب انه فضل كبير لأبرشيتي ان يكون لي بعض الوقت كاهن من هذا الطراز ومن هذا الطبع [...]. لقد اكتسب ههنا شهرة قديس، ويحسب كهنتنا نعمة عظيمة سعادة الدنو منه بعض اللحظات "[٢٤].

ان الاخ شارل، وقد سبقته جميع هذه التوصيات وشهرة قداسة كان من شأنها ان تفزعه لو علمَ بها، في وسعه الآن ان ينطلق واثقا بالعناية الإلهية التي ستجعل جميع السبل سهلة.

---

(٢٣) الموضع الأخير الحبيب، ص٢٤٦.

(٢٤) الموضع نفسه، ص٢٤٥.

- ١٢ -

من التباعد إلى التقارب

نجد شارل دي فوكو، الذي استعادَ اسم شارل يسوع، على متن الباخرة التي تحمله من مارسيليا إلى الجزائر في ٩ أيلول ١٩٠١. وقد توشح بالقميص الأبيض الذي يحمل على صدره القلب والصليب. انه الوقت لكي يسعى في الاشراف على الوضع في مسيرته. فقد استعادَ الايمان منذ خمس عشرة سنة، ويبقى له من الحياة خمس عشرة سنة. ثم أليس البحر المتوسط المحور الجغرافي لحياته كلها ؟ ولكي نفهم معنى السفر الذي يقوم به الآن، يمكننا ان نقابله بسفر آخر كان يقوده من مرسيليا إلى أقبس في سنة ١٨٩٠.

ان هذا السفر الأول كان يقوده بعيدًا عن كل شيء، أبعد ما امكن. والسنوات الخمس عشرة التي قطعناها تحدّ جميعها في هذا الاتجاه نفسه : الابتعاد اكثر ما امكن، ونسيان ماضيه، واسمه، ومهنته، وصداقاته، بترك عائلته، وبيته، وامواله، وبلاده. هذا كله لكي يتبع ربَّه، ولكي لا يكون سوى واحد معه، ولكي يبحث عنه حيثما هو، في الموضع الأخير، وليقدّم له اكبر تضحية ممكنة. وبتخلّيه عن حضور تلك التي كانت قد أعطته كل شيء، وكانت قد اعطته الله نفسه، كان يقدّم اكبر تضحية يمكنه عملها لربّه الحبيب. ولن تكون أي اماته من القوة بحيث تتجاوز تضحية هذا الفراق. ولن يمنع الفرحُ بالعيش مع يسوع ولأجله وحدَه والتعبد لحضوره والبحث عن أُلفته ابدًا ألم الابتعاد. وسيظل الجرحُ نازفًا طوال نحو عشرين سنة.

وإذ يذهب دومًا إلى ما وراء الممكن في البحث عن الكمال، وارادته البشرية ممتدة نحو لا متناهٍ لا يمكن البلوغ اليه، عاش طوال نحو ١٥ سنة في هذا الاتجاه الوحيد الذي يذهب نحو الأوطأ، ونحو الأبعد، لكي يكون أقرب وأكثر ألفة مع قلب

١٢- من التباعد إلى التقارب .....

يسوع. لقد شاهدنا هذا الميل إلى الإفراط الذي كان الاب هوفلان يريد تحذيره منه، لأنه خطِر جدًا ما لم ينفصل عن بحث عن كماله الخاص به.

" انك تحتاج إلى حماية ضد هذه الحركة الرامية إلى اللامتناهي التي تجلب القلق ولا تدع الانسان يستقر في اي مكان. ان هذه الحركة ليست ممكنة الا في القلوب التي لا يكون لديه اي افراط أبدًا "[١].

وفي هذا الاتجاه، انتهى به الأمر سريعًا جدًا إلى تقييم دوافع هي بالاحرى سلبية، مثل قيم مطلقة : التخليات، الفراق، احتقار الخليقة، نكران الذات حتى هدمها وبغضها ! وكان هذا الاتجاه المعنى لسفره نحو " أقبس " الذي قاده بعيدًا عن كل شيء، لكي يتخلى عن كل شيء.

وإذ نعود فنراه في هذا السفر إلى الجزائر، يمكننا ان نشاهد ان الاتجاه مختلف تمامًا، بل معاكس. خلال السنوات الاولى من حياته الايمانية. كانت ارادته في " ان يكون مع يسوع " تتسم بألفاظ مثل هذه : الذهاب بعيدًا، الابتعاد عن كل ما كان يشكل حياته، الافتراق، الخروج من الذات ليكون وحيدًا مع يسوع. وفي سنة ١٩٠١، نما فيه الوعيُ بأن " يكون مع يسوع " هذا يعني " ان اعمل كل ما يريده يسوع مني ". ومنذ ذلك الوقت تظهر ارادة في الذهاب إلى البشر، وان يجعل نفسه قريبًا منهم.

مع هذا " البعيد " الذي كان يشير إلى معنى السفر الأول، يمكننا ان نقابل "نحو" : نحو بلاد، نحو شخص، فهو لا ينشغل من الآن بأمر ترك شيء او شخص، بل بأمر الذهاب " إلى " شخص. وإذ ذاك يأتي التعارض بين " البعيد " و" القريب ". من الآن، انطلاقًا من إرسالٍ يكون يسوع في أصله، انها حركة

---

(١) رسائل إلى الأب هوفلان، في ١٨٩٦/٨/٢

تقارب وليس تباعـــد. واذ يريد ان يجعـــل ذاته قريبًا مـــن الذين هم في بُعـــد، فقد اختلط الأمـــر لدى البعض فمزجوا مع " البعد " الآخر معنى التباعد. يبـــدو لنا ان هذين الاتجاهين، التباعـــد والتقارب، يقســـمان إلى جزئين الســـنوات الثلاثين من حياته الايمانية.

وهكذا نرى ظهور هذه التعابير الجديدة. فلا يتوقـــف الأمر على " ان يكون مع يسوع " فحسبُ، بل " ان يكون مع الناس "، ومن ثمة العيش اكثر فأكثر " قـــربًا " منهم، والدخول في علاقة، وفي الاحتكاك، وخلق روابط. ولو استعرضنا بقية حياته كلها، لرأينا كيف ان هذا القـــرب الكبـــير اكثر فاكثر، يتجســـد في المواضع التي سكنها، بتأسيس وشكل مساكنه. .وســـيكون هذا نوعًا جديدًا من التواري، ليس مثل ذلك الذي كان يحلم بهِ في الناصرة، بل التواري في شعب.

وسيتوقف الأمر على ان يكـــون " صغيرًا وسهـــل المنال "، وعلى ان يكـــون " أخًا "، وليس ابًا، للذين يريد ان يكون قريبًا منهم. وسيكون بدراسة لغة، وبالتعلق بالناس بروابط الصداقة والمودّة. والكلمة المفتاح لكل هذا هي كلمة " علاقة ". فهو سيحاول الدخول في علاقة وعقد هذه العلاقـــة مع اناس اكثر فاكثر عددًا، كما كان قد فعل وهو لا يفتأ يعمل مع يسوع.

ويبدأ هذا الأمر منذ وصـــول الباخرة إلى الجزائـــر. وكان هناك الأب هنـــري صديقه في دير السكوتيين، وكذلك الأب غيران، هذا الشاب من الآباء البيض الذي تسلم مهمة الاسقف، وسيكون رئيسه وسيصبح صديقًا له. ولنا الدليل على ذلك في الرسائل المنشورة في " المراسلات الصحراوية "[٢]. وسيكون اللقاء بـــزميل له كان في سان - سير، هو القـــائد " لاكروا " في مركز المكتب العربـــي، وهو خير من

---

(٢) المراسلات الصحراوية، باريس ١٩٩٨.

يستطيع ان يساعده ليجد له مكانًا للسكنى، وليحصل على الاذن للذهاب اليه. وهذا الرفيق كان في صحبة عائلته المكوّنة من زوجته وابنته، وهذا ما يضطر الاخ شارل إلى الاحتكاك بالعالم، في الأقل من اجل الأطعمة التي تُعدّها السيدة لاكروا لمن يُظن انه لن يكون له شيء للاكل حينما يكون قد ذهب إلى الصحراء.

وفي طريق ذهابه إلى بني عباس، سيتوقف في " عين الصفرا " لكي يشكر الجنرالات على انهم سمحوا له بالسكنى في بني عباس. ولما استقبله الضابط، اضطر إلى السكنى عندهم، ولدى وصوله إلى بني عباس، وضعوا فرسًا تحت تصرّفه ليمتطيها في المراحل الأخيرة من سفره. وهو الذي كان يريد الوصول هناك مثل حاجّ فقير سيرًا على الأقدام، سيجد نفسه محاطًا بحماية، وسيأتي العسكريون العرب ويقبّلون عباءَته. انها لقاءات وظروف لم يستدركها قانونه !

وبين العسكريين الذين سيلتقيهم، بعضهم سيصبحون اصدقاءَه، مثل بعض الضباط في بني عباس، ثم لابرّين الذي سيقدم لمشاهدته وسيجذبه نحو الجنوب، وضباط من الهوجار ومن الطوارق. وتأخذ هذه العلاقات أهمية في حياته، ليس بالتأثير الذي يستطيع ان يمارسه على الآخرين فحسب، بل كذلك بالتأثير الذي سيكون لهم عليه. فالجميع، بنوع أو بآخر، سيُسهمون في تأنيس هذا الرجل الذي كان إلى ذلك الوقت يميل إلى ان يكون انسانًا خارقًا في إفراطاته النسكية[٣]. وطريقة التأنيس هذه هي تمامًا حسب معنى تجسّد الله الذي جعل ذاته اكثر فأكثر قربًا من البشر في انسانية يسوع.

---

(٣) طالع رسالة الاب مارتن إلى الاب غيران في " الموضع الاخير الحبيب "، ص٢٨١ : " ان السيطرة الروحية التي يفرضها على نفسه [...] تبدو لي فوق انسانية إلى حدّ اني اخشى الا يجعل تلميذه مجنونًا من جراء هذه السيطرة الروحية المفرطة، قبل ان يميته من فرط الاماتات.

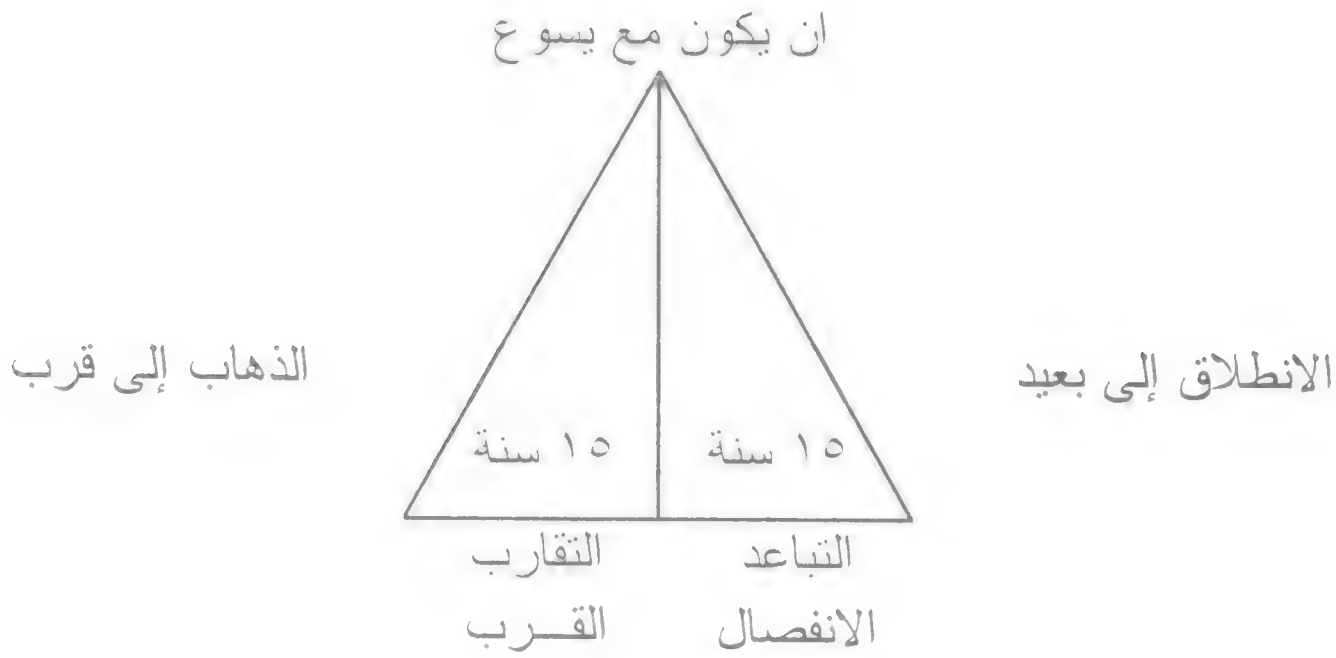

ان هذا الرسم الذي يرمي إلى تجيسد ما قرأناه الآن يمكنه أن يساعدنا لكي نتصور حياة الاخ شارل. ويمكننا استخدامه ايضًا لكي نزداد تفهمًا لعبادته للافخارستيا. حسب نهج المجمع التريدنتيني، يرى فيها اساسًا سرَّ الحضور الذي يجعل " الكون مع " ممكنا. ومن لحظة اهتدائه إلى القديس اوغسطينس، يمكننا القول انه قد وُضع في حضور الله، وفي علاقة معه. ان عبادة الحضور هذه لن تكون اولاً عبادة حضور الله في النفس، وان كان له الأمر بديهيًا، بل ستكون بخاصة حضور يسوع في السرّ. فيسوع ثمة، مثل حضور موضعي. ونستطيع ان نفهم كلامه، لأن الهدف هو " ان يكون مع يسوع " وان يبقى في صحبته، وان يكون اقرب ما أمكن.

ان مظهر التباعد السلبي كله، والفراق، والتضحية، تُظهر جانبًا آخر من الافخارستيا، ذكرى ذبيحة يسوع الذي جعل ذاته حاضرًا باستمرار في حياتنا. والعودة الدائمة إلى ١٥ كانون الثاني ١٨٩٠ خلال هذا الزمان كله، تؤشر تأشيرًا واضحًا إلى هذا المظهر من الافخارستيا : آلام تُقدَّم بالاتحاد مع آلام يسوع. ولكن هذا ايضًا لكي " يكون معه اولا في شدائده وفي ألمه ".

اخيرًا، ان حركة التقارب في سبيل " الذهاب إلى الناس " يقودنا إلى مظهر

ثالث للافخارستيا التي هي مقاسمة، طعام نتناوله معا، وليمة نحملها إلى الآخرين. ومنذ ان صار له الوعي بكونه خادمًا للافخارستيا، كان عليه ان يحملها إلى الذين لا يعرفون هذه العطية. والرغبة في نقل حضور يسوع وترسيخه، تُرى بنوع موضعي جدًا : يتوقف الأمر على تأسيس بيوت القربان اكثر فأكثر بعيدًا. ولكن يجب الاشارة من الآن إلى انه سيتطور ولن يتوقف عند هذا المفهوم الفضائي. وحينما سيجد ذاته مع بيت قربان فارغ، فسيظل بالرغم من ذلك، ولن يكون له ليقدّم للآخرين بمثابة حضور افخارستي سوى حضوره هو وحياته المقدَّمة، حياته المعروضة.

ان هذا عبور التاسع من ايلول سنة ١٩٠١ يشير إلى توجّه جديد، وإلى تغيير في الاتجاه. ومن الآن لن يحلم بـ " عزلة مع يسوع وحدَه " في منسك، بل مع امنيته في ان يكون له رفاق، سيحتمل العيش وحدَه وسط اولئك الذين اذا عمل لهم شيئًا فانما يعمله ليسوع.

وسيؤدي الامر عنده إلى عدم الانشغال من بعدُ بكمال مثالي، مستحيل، بل ان يترك المجال للروح لكي يصوغه، بحسب الأحداث واللقاءات. وهذا سيقوده إلى ان ينسى نفسه. وواحد من المقاصد الأولى التي سجّلها في كراسه، حال مجيئه إلى تامنراست سنة ١٩٠٥، سيكون : " ان ابذل كل ما في وسعي في سبيل خلاص شعوب [...] هذه المناطق، في نسيان كلي لذاتي "[٤]. وعوض التأمل في نسيان ذاته، سيعمل ما يريده الله له، في الحاضر، حتى اذا بدا له هذا الامر مخالفًا لما يدعوه دومًا " دعوته ". ولن يفتأ الاب هوفلان يشجعه في هذا الاتجاه. فهو سيكتب إليه في ١٨ أيار سنة ١٩٠٢ :

" يا صديقي العزيز، يا ابني الحبيب، أحتملْ ذاتك ! كن متواضعًا وصبورًا مع نفسك، وأقلّ انشغالاً بالقضاء على النوم منك بالقضاء على القلق وعلى هذا

(٤) شارل دي فوكو، كراريس تامنراست، باريس ١٩٨٦، ص٦٣.

البحث القلق عن الأفضل الذي يعذّبك. كن هادئًا لتلقّي نِعَم الله، واذا عندك او تحتفظ بحقد ذاتك، فليكن حقدًا هادئًا مثل ماء عميق ".

" انه لأسهلُ مما نعتقد ان نبغض نفسنا، كتب جرنانوس في " صحيفة خوري الريف "، ان النعمة هي ان ينسى المرءُ ذاته. واذا كانت كل كبرياء قد ماتت فينا، فان نِعمة النِعَم تكون ان يحب المرءُ ذاته بتواضع، مثل أي من أعضاء يسوع المسيح المتألمين ".

نستطيع ان نتساءَل هل سيبلغ شارل دي فوكو إلى ان يحب نفسه كما يحبه الله ! في الاقل لن يبحث من بعدُ عن هدم ذاته وملاشاتها. واذا ما يزال يتكلم عن ذلك، فذلك بمعنى آخر، إذ يسرد القديس يوحنا الصليبي، ولكي ينسحق بالاحداث وبمعاكسات الحياة، وبالشغل المكثّف والهموم العديدة.

لدى دخوله إلى الرهبنة السكوتية، كان قد قطع علاقاته بأصدقائه. ولكن الظروف، منذ دخوله إلى دير سيدة الثلوج، اضطرته إلى اعادة الارتباط بهم، ومن الآن لن يخاف من بعد ان يتبادل علاقات الصداقة والمليئة بالحرارة الانسانية مع الذين يلتقيهم. ورسائله – وقد كتب الالوف منها – تُثير إعجابنا. وأيًا كان الشخص الذي يكتب إليه، فهو دومًا الشخص نفسه الذي يكتب بمعنى العلاقة الانسانية نفسها.

كان قد تخلى عن رؤية ابنة عمته على هذه الأرض. وسيجدها في سنة ١٩٠٩، بعد تسع عشرة سنة من الفراق، دون ان تكون العلاقات قد ارتخت لحظة واحدة. وخلال هذه الفترة الطويلة والأليمة من التباعد، كانت له سندًا حقيقيًا، ويجب الا ينسى ذلك قط. فهل كان يسعه حقًا ان يعيش في عزلته بدون هذه المراسلة المتبادلة معها ومع اشخاص آخرين ؟

لقد كان قد قطع كل مراسلة مع معظم أصدقائه في سبيل محبة الله، ولكنه يستأنف هذه المراسلة " لكي نساعد بعضنا بعضًا لنقضي بقداسةٍ السنوات القليلة

التي بقيت لنا لنحياها، ولكي نتبادل المساعدة لنحيا ونموت في قلب يسوع "[٥].

ولدى وصوله إلى بني عباس، سيحاول ايضًا الاختباء، ولكنه سرعان ما سيعمل كل ما في وسعه لكي يعرّف الناس إلى ما يقوم به هناك. واذا اراد ان يهتم الضباط بمراكش وأُتيح له يومًا الدخول اليه، فهو مضطر إلى التكلم عن كل ما شاهده فيه خلال جولته السابقة. وحتى لقد أدى الأمر بهِ إلى عدم اخفاء اسمه وماضيه. ويسعنا ان نلاحظ ذلك في تطوّر توقيعه. فانطلاقًا من سنة ١٩١١، يوقع : " الاخ شارل دي فوكو "، ومنذ سنة ١٩١٣، لا يوقع سوى " شارل دي فوكو " او " شارل " او حتى " ش " للرسائل الاكثر أُلفة.

في ١٩ آب ١٩٠٠، كان قد أجاب على الأخ اوغسطين الذي كان يهنئه لجولته في مراكش : " نعم، ولاسيما ان هذا سينفعني كثيرًا في الدينونة الأخيرة ". وبعد بضع سنوات، كتب إلى ماسينيون ليشجعه على إنهاء عمله، ووضع كتابه، كما كان هوفلان قد فعل له بعد اهتدائه :

" اذا استطعتُ ان أعمل شيئا، واذا قررت الاستقرار في الصحراء، فذلك، بعد يسوع، لأني كنتُ ضابطًا وسافرت إلى مراكش. فالله يهيئ الامور من بعيد، ويستخدم لخلاص النفوس الأخيار والأشرار، والأفعال التي قمنا بها ونحن أقل ما نفكر فيه "[٦].

واذا ما منعه الأمر من الإسراع إلى الموضع الأخير الذي يحلم بهِ دومًا، والذي سيرتّبه حسب ذوقه، فان هذا يضطره إلى القبول بالمكان الذي يعطيه الله اياه. والعجيب هو ان، في هذا الموضع، وقف مثل خادم متواضع، وهذا ما لم يخفَ على معاصريه.

---

(٥) رسالة في ٢ آذار ١٩٠٢ إلى الدكتور بلتازار.

(٦) جان فرنسوا سيكس، مغامرة محبة الله، باريس ١٩٩٣، رسالة إلى لويس ماسينيون في ١٩١١/١٢/٣ ص١١٥.

-١٣-

بني عباس وزمان الأخوّة

حينما غادر الاخ شـــارل الجزائر ليذهب إلى بني عباس، ترك للأب غيـــران قانونَه الذي يعتبره في صيغتـــه النهائية، لكي يتمكـــن من قراءته وتأمله وتأييـــده. وبالفعل، بعد بضعة اشهر، سيتلقى في بني عباس السماح باستقبال اشخاص يأتون للعيش معه، تحت قانونه. والاعجاب الذي كان لدى الاب غيران للأخ شارل يشرح أنه لم يرَ في التفاصيل أنه كان من المستحيل العيش بحسب هذا القانون. ولعلّه كان من الآن يفكر في اتّباع الأخ شارل.

ولما وصل الاخ شارل إلى بني عبـــاس في نهاية سنة ١٩٠١، ستُحدَّد إقامتـــه هناك عن طيبة خاطر بسنتين ١٩٠٢ و١٩٠٣، بما ان سنة ١٩٠٤ ستُخصَّص كلها بسفر إلى الجنوب. وهذه الفترة هي الفترة النموذجية للمرسل الناشـــئ، الذي وصل حديثًا وهو يحمل الكثير من المشـــاريع في رأسه، والذي ســـيقع في جميع فخـــاخ المبتدئين الممتلئين سخاءً. وهكذا كل شيء سيتحول إلى اعمال يجب خلقها، ومنها دزّينة في بنـــي عباس يُرتّب لائحتهـــا لأسقفه. وبيـــن هـــذه المشاريع، مشـــروع افتداء العبيد.

خلال الســـنة الاولى، كان بعض الجنـــود الاتقياء يأتـــون كل مساء ليســـمعوه وليحضروا بركة القربان المقدس. وهو يقرأ لهم مقطعًا من الانجيل ثم يشرحه لهم. انها كانت فترة قصيـــرة توقفت على بضعة شـــهور من سنة ١٩٠٢. الا ان هـــذه الحالة حدته إلى إنشاء أربع او خمس اخويات ما تزال لائحتها معروفة. وهو نفسه سجَّل اسمه بين كهنة القلب الأقدس في مونتمارتر، ونشر عدداً من أخويات القـــلب

الأقدس. واحداها هو الوحيد المسجَّل فيها، واخرى لا تذكر سوى مشترك واحـد، هو السـيد عبد يسـوع وهو في الثالثة من سنه. ويمكننا ان نعدّد الكثيـر من هذه الامثلة، وهي تكشف عن وجه من شخصيته.

وبين اعماله في ذلك العصر، عمله في سبيل تحرير العبيد هو المعروف اكثر. والرسائل التي كتبها آنذاك إلى الأب غيران او إلى الاب مارتن، رئيس دير سـيدة الثلوج، تتسم بطابع قوي جدًا، ولا يمكن ان تُسرد في أي سـياق كان، لأنها ثمرة هذا الافـراط في الغيرة، حسـب عادته. في ١٧ ايلول ١٩٠٢، كتب اليـه الأب غيران، حسب انشاء الأب هوفلان :

" اما في شأن العبودية، فماذا اقول لك، ايها الأب الحبيب ؟ اكثر من أي نقطـة اخرى، انا مستعد ان اقول لك : احذر من غيرتك وكن فطناً جدًا، ضع عند قـدمي يسوع احزانك [...] ولكن حذارِ من اندفاعات غيرتك في شـأن العمل الخارجـي. لا شك ان العبودية شر اجتماعي لا يمكننا شجبه بكفاية - ولا يسعنا قـط ان نكون ممتلئين بكفاية من محبة يسوع - ولكن لمحاربة الاستعباد، يجب الانتباه الكثير إلى ظروف الأشخاص والاماكن التي نوجد فيها، والحرص على الا نلغي الوسائل التي يمكن ان تكون لدينا لعمل بعض الخير، وذلك بـعمل امور بـاهرة لن تأتي بـأي نتيجة. وهذه هي الفكرة العميقة للمونسنيور ليفينهاك - فان الإنحاء بـاللائمة علنا على كل ما يجري في الجنوب ليس من شأنه في الوقت الحاضر سوى التسبّب في جميع انواع القيود لعملنا الحاضر ".

على الصعيد الرسمي، أُلغي الاستعبـاد على جميع الأراضي الفرنسـية، ومن ضمنها اراضي المستعمرات. ولكن، على الصعيد العملي، هناك ضبـاط لم يعيروا الأمرَ اهتمامًا، ولئلا يغيروا شيئا في العادات المحـلية، اسـتمرّوا على إبقـاء هذه الحالة. ألم تبقَ هذه الحالة طوال عشـرات السنين، حتى استقلال البلدان، وحتى ما بعد هذا الاستقلال ؟ ففي سنة ١٩٠٢، شعر الآباء البيض بكونهم مهدَّدين بالانحلال

من جراء قوانين الجمهورية (الفرنسية)، ولهذا فانهم يظهرون ردود فعل فطِنة ازاء الغيرة العارمة التي يبديها الأخ شارل. ويجيبهم هذا برسالة كتبها في ٣٠ ايلول :

" سأطيع بدقة المخطط الذي ترسمه لي... ان الاسباب التي تفضلت وقدَّمتها لي بكل مودّة والتي لها وزنها الكبير، سواء أتت منك ام من المونسنيور ليفينهاك [...] لا تتركني – واقولها للمرة الأخيرة، لكي لا يكون لنفس الولد اي سرّ لنفس الأب وتتدفق كلها وبدون تحفظ في نفسه – بدون ان أتأسف، لأن ممثّلي يسوع يكتفون بالدفاع " في الاذن " (وليس " على السطوح ") عن قضية هي قضية العدالة والمحبة ".

وفي غيرته واندفاعه للقضية العادلة، يبدو انه نسيَ أنه قد حدَّد مهمته مثل اعلان للبشرى السارة، ليس بالاقوال، بل بالصمت، وذلك بصراخها على السطوح بحياته كلها وليس بالخطابات.

ولكننا لا نستطيع التوقف اكثر عند معضلة الاستعباد هذه التي تشغل مكانًا كبيرًا في بعض سِيَره. علينا الآن ان نحاول ان نفهم معنى وأبعاد الكلمات التي يستعملها في مطلع إقامته في بني عباس للتحدث عن الأخوّة الشاملة.

شموليـة الأخوَّة

في بدءِ إقامته في بني عباس، نلقى سروداً كثيرة عن " الأخوّة الشاملة ". وهناك بخاصة هذه الرسالة التي كتبها إلى ماري دي بوندي في ٧ كانون الثاني ١٩٠٢ :

" لقد طلبتِ مني وصفَ المصلّى... ان المعبد – وهو مكرس لقلب يسوع الاقدس – يُدعى " معبد أخوّة قلب يسوع الأقدس "، ومنزلي الصغير يُدعى " اخوّة قلب يسوع الأقدس "... أريد ان أعوّد جميع السكان، من مسيحيين ومسلمين ويهود ووثنيين، على النظر اليّ مثل أخيهم – الأخ الشامل... لقد بدأوا بتسمية المنزل

باسم " الأخوّة " وهذا أمر عذب لي... ".

ويشرح لصديقه " لاكروا " : " لقد اخترتُ هذا الاسم الذي يشير إلى أني اخوهم واخو جميع البشر بدون استثناء ولا تمييز "[١]. ولقد شاهدنا ظهور هذه الكلمة في القانون للتأشير إلى منزله. انه المعنى الأول للكلمة، وهذا أمر جديد.

كان يودّ ان يُدعى " الاخ شارل "، وهو يترجم إلى العربية الالفاظ الدالة على " الأخ " " والأخوّة " ولكن، مهما قال فيها، فانها لن تُستخدم قط. ففي بني عباس كما في تامنراست، لن يعرف الناس سوى اسم " مارابو " (مرابط). وهذه اللفظة الفرنسية ذات الأصل العربي، تُستخدم لدى المسلمين للاشارة إلى المثقفين في الامور الدينية وإلى رجال الدين وإلى اولياء الله الصالحين المتصوفين. والكلمة الفرنسية التي عادت فأصبحت بالعربية " مارابو " لا تشير الا إلى الكهنة والرهبان المسيحيين، وإلى الراهبات. وتشير اللفظة إلى فكرة " الربط معًا "، الربط بشخص او بمكان، مثل الكلمة الفرنسية التي تعني " مرتبطين ". والاخ شارل راضٍ بهذه التسمية التي سيستخدمها هو نفسه. وليس بعدُ لهذه الكلمة المعنى الجديد السلبي الذي ستأخذه لاحقًا في أفريقيا والدال على السحر والشعوذة.

وماذا يعني " الشامل " ؟ وتوضع النبرة على " جميع " :

" كل انسان، صالحًا كان أم شريرًا، صديقًا أم عدوًا، محسنًا أم جلاّدًا، مسيحيًا أم وثنيا [...] سيجعلون انفسهم " كلا للكل ليخلّصوا الجميع " [...] سيكونون اصدقاء شاملين، وليكونوا مخلّصين شاملين "[٢].

وجاءَ شرح هذه الشمولية في الفصل ٣٠ من القانون : " المحبة نحو الاشخاص

---

(١) جورج غوري، الجزء٢، ص٢٦.

(٢) قوانين ومحضر، ص٢٢٨.

الذين هم في الخارج "[٣]. ونقرأ في المشترعات ما يأتي :

" لا يكون لديهم " محاباة للوجوه ". [...] لتشعَّ محبتهم الشـــاملة والأخوية مثل فنار. لا يجهل أحد، حتى الخاطئ وغير المؤمن، ضمن محيط واسع، انهم اصدقاء شاملون، واخوة شاملون، يحرقون حياتهم في الصلاة من اجل جميع الناس بـــدون استثناء، وفي عمل الخيـــر اليهم، وان اخوّتهم هي مينـــاء وملجأ حيث يُدعَـــى كل انسان، ولا سيما الفقير والتعِس، اخويًا في كل ساعة، ويُشتاق اليه ويُستقبـــلَ، وإن البيت، كما يدل عليه اسمه، هو بيت قلب يسوع الأقـــدس، وبـــيت المحبـــة الإلهية المشعّة على الأرض، والمحبةُ المحرِقة، محبة المخلّص للبشر "[٤].

لقد كُتبت هذه النصوص اثناء إقامته في دير سيدة الثلوج، بينما كان يتهيأ لاقتبال الدرجات الكهنوتية، وهو يصحح قانونه، مجيزًا اياه من قانون النساك إلى قـــانون الإخوة الصغار. ومنذ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٠١، في رسالة إلى هنري دي كاستري، كان يعلن نفســـه " الأخ الشـــامل "، وهو يتمنى ان يرى الجميع فيه أخًا. " الجميع " وهذا يعني اولاً الفقـــراء، ولكن جميع الآخرين أيضًا، دون اســـتثناء ولا تمييز. ثم يضيف : " صلّوا إلى الله لكي اكون حقًا الاخ لجميع النفوس في هذه البلاد ".

وهنا يجب ان نلاحظ ان السرود العَديدة عن الأخوّة الشاملة يعود تاريخ جميعها تقريبًا إلى هذه سنة ١٩٠١ ومطلع سنة ١٩٠٢. وهذه المفردات تميل إلى الاختفاء بعد بضعة أشهر في ملاحظات الرياضة التي قام بها سنة ١٩٠٢ نفسها والسنوات التالية. ومنذ سنة ١٩٠٢ اختفت كلمات وتعابير في النسخة النســـائية لهذا القـــانون للأخوات اللواتي لسن من بعد شاملات في صداقتهن.

---

(٣) الموضع نفسه، ص٢٣٥ وما يتبع.

(٤) الموضع نفسه، ص٨٧.

فمن المهم ان نـــرى ماذا تغطي هذه مفردات الأخوّة الشاملة " لمرابط " بنـــي عباس وتامنراســـت. بعد ذلك، في سنة ١٩٠٨، لن يُعيد في المحضر التعابير التي تبدو لنا مميزّة جدًا في مشـــترعات سنة ١٩٠١ : " صديق شامل "، " أخ شامل "، " مخلّص شامل ".

أن يصبح أخًا

ربما ننسى بسهولة ان حياة شـــارل دي فوكو كانت، مثل حـــياة جميع الناس، صيرورة طويلة وتطوراً متواصلاً. فحينما يعلن نفسه " أخًا شـــاملاً " لدى وصوله إلى بني عبـــاس، فان هذا مثـــل أعلى جميل. إلا ان لادّعائه هذا ما يبـــرّره، وهي الصلاة التي يلتمسها حالاً : " صلوا إلى الله لكي اكون حقا أخا لجميع النفـــوس في هذه البلاد "[٥]. واذا لا نجد من بعد كلمات " الاخ الشامل " في بقية حياتـــه، فذلك ربما لأنه اصبح واقعيًا اكثر. حينما نقول اننا صديق شامل فى الانطلاق، تظهر كل محبة خاصة مثل تقليص للمحبة الشـــاملة. ولكن لكي يصبح الانســـان أخًا للجميع، عليه ان يبدأ بأن يكـــون أخًا لبعض الناس، ولا يســـعه ان يحب الجميـــع بالطريقة نفســـها. كان يعلم جيدًا انه لا يحب ابنـــة عمته كاترين مثـــل محبته لماري. واذا أصبح " لابرّين " الصديق الذي لا يُضاهى، فهذا لم يمنعه من ان يحب " رينيـــو " و" نييجـــر " بصداقـــة حقيقية، مختلفة عن تلك التي كانت له للمســـاعد " جويو " و" سورو ". هذا أمر بديهي، ولكننا لا نفكر فيه دومًا، وحينمـــا نراه يَعدُّ اصدقاءَه الطوارق، يمكننا ان نتحقق من انه لم ينجـــرف وراءَ وهم الشـــامل مدة طويلـــة. ويمكنا التأكد مـــن ذلك بالسرود التالية :

---

(٥) دي كاستري، رسالة في ١٩٠١/١١/٢٩.

" بضع صداقات نزيهة في مختلف الصفوف. بضع نفوس لها ثقة حقـــة، ومع كثيرين علاقات غير حميمة، ولكنها صداقات. وهذا أمر ذو قيمة، بالنظر إلى البُعد الكبير لهذا الشعب عنا "(٦).

" لقد قضيتُ سنة ١٩١٢ كلها هنا، في هذه قرية تامنراســـت. والطوارق هم لي مجتمع يعزّيني كثيرًا. لا استطيع ان أصف مدى طيبتهم لي، وكم أجد في ما بينهم نفوسًا مستقيمة. وواحد او اثنيـــن منهم هم اصدقاء حقيقيـــون، الأمر الذي هو نادر ونفيس جدًا في كل مكان "(٧).

" لي هنا في الأقل اربعة " أصدقاء " استطيع الاعتماد عليهم تمامًا. كيف تعلقوا بي ؟ مثلما نرتبط في ما بيننا. لم أقدّم لهم أي هدية، ولكنهم فهموا انني صديق لهم، واني كنتُ مخلصًا تجاههم، وان في وسعهم ان يثقوا بي. وقد قابلوني بمثلمـــا كنتُ لهم... ان الذين ههنا احتفظ بهم واعاملهم مثل اصدقـــاء حقيقيين وصالحيـــن هم : أكسم أك أوغار، زعيم قبيلة " داغ - غالي "، وهنـــاك آخرون أحبهـــم وأكنّ لهم التقدير ويمكنني الاعتماد عليهم في اشياء كثيرة. واســـتطيع ان اطلب منهم كل ما شئتُ وكل نصيحة او تعليمات او خدمة، وانا متأكد من انهم سيؤدونه لي على خير ما يُرام "(٨).

نحن بعيـــدون عن الجموع التي كانت تجتـــاح بيته في بني عباس لتوزيعـــات الشعير. فلأن يرى ستين ولدًا في نهار واحد وان يستقبل المئات من البالغين، فهذا لا يعني حتمًا أنه أخو كل واحد منهم. كيف يمكنه ان يكون له علاقات حقة مع هذا العدد من الناس ؟ وعلى مرّ الأيام، وفي خبرات متلاحقة، تعلَّمَ ما معنى " ان يكون

---

(٦) ارشيف قضية التطويب، رسالة إلى الأب لوران في ١٩١٠/١١/٢٧.
(٧) دي كاستري، رسالة في ١٩١٣/١/٨.
(٨) ارشيف...، رسالة إلى الأب غارنييه، ١٩١٣/٢/٢٣.

أخَا " و" وأخًا لكل انسان ".

الجميع، بدون استثناء

أن يكون الانسان أخًا شاملاً، ذلك يعني ان يكون أخًا للجميع دون استثناء احد. وفي الناصرة، عند كتابة القانون، لم يكن يرى سوى نظريًا " الفقــراء، والاغنياء، والخطأة وغير المؤمنين " الذين كان يجب توفير الضيافــة لهم، بدون رفض أحــد منهم، ودون اعطاء للواحد اكثر من الآخر، ودون محاباة للوجوه. في بني عباس، اناس من لحم وعظم يأتون إلى بابه، ولفظة " بدون اســتثناء " تأخذ كل يوم وجهًا واقعيًا ومختلفا. فلا محبة شاملة الا في الواقــع، في محبــة هذا الشــخص الماثل امامي، وليس في فكرة من هو بعيد ولم أرَه قط.

واذا ليس من السهل ان يصبــح الانســان أخًا. فمن الأصعب ان يصبــح أخًا للجميع بدون استبعاد أحد. وقد نتعرض للخطأ السائد لدى واضعي السيَر اذ نصدّق ان الأمر كان بدون صراع وتقدّم. فهذا العبد هو أخوه، ولكن ان يريد الانســان ان يكون في الوقت نفسه أخًا للسيد الذي يطالب بــهذا العبــد مُلكًا له، فان الأمر ليس سهلاً. وهذا اليهودي هو أخوه، هو شارل، الذي يعكف على قراءَة كتاب " يســوع الصبي " الذي وضعه الاب كــارون، والذي تظهر النزعة اللاســامية في جميــع صفحاته. وهناك السود، وهناك البيض، وردود فعل " المرابط " ليســت هي ذاتها في بني عباس كما في تامنراست. واننا لنعجب كثيرًا اذ نسمع قول الضبــاط الذين كانوا لا شك ينسبون اليه مشــاعرهم الخاصة، إنه لم يكن يحب بعض فئــات من الناس. فهل هذا صحيح ؟ مهما يكن من أمر، فعلينا ان ننتبــه أكثر لكي نكتشــف كيف تعلم ان يعرف هؤلاء الناس ويحبهم، وربما لم يكن يحبهم غريزيًا، وقــد تأثر بثقتهم ومودّتهم.

وبين الضباط، كان بعضهم يعادي بعضًا بنوع واضح، وليس من السهل في هذه

الأحوال ان يعلن شارل انه صديق الآخر ايضًا. وقد التقى اناسًا استهزأوا بهِ، وآخرين لم يولوا نصائحه وآراءه اعتبارًا. وبعضهم وقفوا مثل عوائق في طريقه. وهو لم يقيّم الذين ما كانوا يسيرون بالعدل، او لا يؤدون واجبهم. وقد وجدَه البعضُ قاسيًا وصارمًا. وقد ناضل ضد البعض في سبيل خير البعض الاخرين[٩].

ان يكون أخًا شاملاً، لم يكن هذا الأمر عذرًا له يعفيه من ان يكون لأي شخص، بحجة انه يحب الجميع :

" في كل انسان، صالحًا كان ام شريرًا، صديقًا أم عدوًا، محسنًا أم جلادًا، مسيحيًا أم غير مؤمن، فان ما يرونه هي نفس يجب خلاصها. سيجعلون أنفسهم " كلاً للكل، لكي يخلصوهم أجمعين ". سيبغضون الشر، لكن هذا البغض لن يمنعهم قط من محبة الناس، فيحملونهم جميعًا في قلبهم، حتى أردأ من فيهم، ومثل قلب يسوع، سيكونون الأصدقاء الشاملين لكي يكونوا المخلّصين الشاملين "[١٠].

ربما ليس من قبيل المصادفة ان يحمل ذكر القانون هذا بمثابة عنوان " شجاعة تجاه البشر " بجانب " محبة وسلام وتواضع ". وكان من السهل ان يكتب في عزلة دير، ولم يكن من السهل العيش وسط الخلافات المتنوعة في بني عباس ولا سيما في الهوجار، وحتى في قلب الصحراء وسط التنقلات. يمكن معارضة مواقفه، شريطة البقاء في التواضع، لأنه من ذا الذي يفتخر بالعمل احسن من ذلك ؟ ولكن علينا ان نعترف بشجاعة خياراته : فهو لم ينخدع بهذا الوهم الآخر من الشمولية الذي يمكن ان يتواجد في حصن دير، سواء كان الوهم أدبيًا او صلب البناء، اذا ما عزلَ عن الناس وعن خلافاتهم.

---

(٩) ولاحظ منذ سنة ١٩٠٢ : " ان اتغلب على هذه القساوة الطبيعية التي اشعر بها ضد الخطأة وهذا الاشمئزاز، واستبدالهما بالرأفة والاهتمام، بالغيرة والعناية السخية التي ابذلها لنفوسهم " راجع شارل دي فوكو، وحيد مع الله، ص١٠٠.

(١٠) قوانين ومحضر، ص٢٢٨.

الأقربون أم الأبعدون

اذا كان للمحبـــة نظام يذهـــب من الأقرب إلى الأبعـــد، ابتداءً من " الأقـــارب والأصدقاء والجيران والمعارف "، كما يذكّرنا بذلك هو نفسه في الكتابـــة الأخيرة للقوانين لجمعيته، فكيف قاده نداؤه إلى بعيد، ولمدة حياته كلها ؟ ان حيـــاة الناصرة يمكن عيشها في كل مكان، وحتى في بلاده وفي وسط أسرته. فليس من الأساســـي للتعريف الذي يعطيه ان تُعاش هنا او هناك. ولكنه اخترع بأن يجعلها اسلوب حياة في البعيد، في مكان آخر، في الغربة الطوعية وخـــارج الوطن، وبالأخص وســـط غير المسيحيين. ان ثمة علامة مميّزة لدعوتـــه التي لا يمكن تجاهلهـــا دون بتـــر رسالته او تشويهها.

في البدءِ، كانت دوافعه شخصية. انه يريد الذهاب إلى بعيد، وان يترك تعلّقـــاته وجذوره. ان هذه لحاجةُ المحبة، ضرورة القطع النهائي لكي يقـــدّم ليســـوع أكبَر تضحية يمكنه تقديمها إذ يذهب ويعيش بعيدًا عن كل ما كان يحبه. وحينمـــا يكتب قانونه، يفترض وجود الدوافع نفسها لدى اولئك الذين سيتبعونه.

ولم تصبح هذه الدوافع موضوعية الا في ســـنة ١٩٠١ : " ان هذه الوليمة التي اصبحتُ خادمًـــا لها، كان يجب حملها إلـــى الأفقريـــن... إلى الذين هـــم الأكثر اهمالاً... "[١١] ان الارادة في عدم استبعاد أحد تصبح نداءً إلى الذهاب إلى الذين هم في الأبعد، وتفضيلاً للذين هم الأكثر احـــتياجًا. وهنا ايضًا، انما الظروف هي التي تقود اختياره. ان رحلته في مراكش كانت قد انشأت لديه واجبات الشكر نحو اولئك الذين كان قـــد التقـــاهم هناك. لذا فكان يرى من واجبـــه أن يفكر فيهم. كانوا قـــد أصبحوا قريبه المباشر، لأنه كان قد جعل ذاته الأقربُ منهم. كذلك في وقت لاحق، إذ لا يستطيع الذهاب إلى مراكش، يشـــعر بأن من واجبـــه الذهاب عند الطوارق،

(١١) ٢٥ رسالة غير منشورة للأب دي فوكو (إلى الاب كارون)، باريـــس ١٩٤٧، رســـالة ١٩٠٥/٤/٨، ص١٣.

لأنهم بعيدون عن كل شيء، ولأنه الوحيد الذي يقدر ان يذهب ويصبح قريبًا من " هؤلاء الاخوة البعيدين "[١٢].

وكذلك اخيرًا حينما يناشد مواطنيه بأن يخرجوا من عالمهم لكي يهتموا بشعوب افريقيا، ذلك لأن الاحتلال الاستعماري خلق حالة طارئة في المسؤولية. ان هذه الشعوب المستعَمرة يجب ان تصبح قريبة منكم، وواجبكم المباشر هو ان تعملوا لها ما يجب على الوالدين ان يعملوه لأولادهم.

أخ أو شامل

بعد موته، حُمّلت ألفاظ " الاخ الشامل "، التي عُزلت عن سياقها، محتوى أوسع من الذي كان هو يضعه فيها. ولقد اصبحت عنوان مجد أعطوه له من الخارج، وكأن هذه الكلمات لم تكن منه بل عنوان نُسب اليه بعد وفاته، وهذا نص رسمي يشهد لذلك، وقد ورد في الرسالة البابوية العامة " تقدّم الشعوب " (العدد ١٢) :

" يكفي ان نذكّر بمثال الأب دي فوكو، الذي اعتُبر اهلاً لأن يُدعى " الأخ الشامل " لأجل محبته، والذي وضع معجمًا نفيسًا للغة الطوارقية ".

ان هذا مثل تكريس رسمي لكرامته كأخ شامل يجعله " الأخ الشامل "، والنموذج الكامل للمحبة الشاملة، ذاك الذي لم يحب قط إلا حبًا شاملاً. وهكذا عبرنا إلى مفهوم مبهم صار له هو تجسيدًا واقعيًا. ومع الزمان، فصلوا " الاخ " عن " الشامل "، وأدى الأمر إلى عدم التحدث الا بعبارات الشمولية : " ان النعمة الكبيرة للأخوّة في فكر الاخ شارل تكون شموليتها ".

واكثر من ذلك، فان هذه النظرة الشمولية تكون مقرونة عادة بمنظور دولي كان يتجاوز كليًا شارل دي فوكو، مثلما كان يتجاوز معظم معاصريه. ولكن ليس من

---

(١٢) رسالة إلى " لاكروا " في ١٩٠٤/١٢/١٥، الجزء ٢، ص٣٩.

السهل ان نجعل منه " أخَا بدون حـــدود "، ومن الأجدى لنا ان نبحـــث لكي نفهم ذهنيته الوطنية ووطنيته الحـــارة، دون ان ننســـى تنشـــئته العســـكرية ولا جذوره الألزاسيه، لكي لا نتفاجأ كثيرًا لدى قراءتنا رسائله التي كتبها اثناء الحرب.

وليس لأن صفة " الدولي " ظهرت مرةً في كتاباته، او لأنه قال يومًا إنه مستعد ان يذهب إلى اقاصي العالم، ولأنه صلّى مرة من اجل اليابان، نســـتطيع ان نجعل من الشمولية محور رسالته. كلا ! فان نعمة شـــارل دي فوكو وموهبـــته ليســـت الشمولية. انها قبل كل شيء الأخوّة التي هي ايضًا صداقة " صديق واخ شـــامل ". فلأن يكون اخًا شاملاً، فهو ان يكون اولاً اخًا قبل ان يفكر في الشامل.

ان يكون أخًا

في بني عباس، لا يتوقف الامر من بعد على ان يكون ناسك القـــلب الأقـــدس فحسب، وأخا يسوع والذيـــن سيستطيعون العيش معه فـــي هذا البيت الذي يُدعى " أخوّة "، بل يجب ان يكون أخا الذين هم في الخارج. وبالفعل حينما يستخدم كلمة الاخ هذه، فهو يفكر بخاصة في الناس الذين يعيشـــون في الخارج اكثر من تفكيرة في الذين يعيشون داخل الأخوّة. صحيـــح انه يعيش وحدَه، وهمـــه ليس " الحيـــاة الأخوية " ولا " انظروا كم انهم يحبون بعضهُم بعضًا ". إن إشـــعاع الأخوّات هو قبل شيء إشعاع " انظروا كم انهم يحبّون ! ".

ان يكون أخًا، فذلك يعني ايضًا ان يضع نفسه في علاقات التساوي التي تستبعد موقف السيد او الرئيس، وكذلك موقـــف الأب والمحســـن. ولم يكن هذا التصرف الأخوي طبيعيًا لدى شخص خُلق للأمر والتنظيم. ولم ينجُ دومًا من هذه التجربـــة. فلا يكفي ان " يُظهروا انهم اخوة، وان يكرّروا ان جميعهم اخوة في الله [...]، وان يشتغلوا في عمـــل التآخي هذا "، كمـــا كان يعتقـــد ذلك اذ كان يكتـــب إلى هنري دي كاســـتري في ٢٧ حزيران ١٩٠٤. كان أعمـــق وعيًا حينمـــا كان يكتب إلى

ابنة عمته، في ٣ تموز :

" نذهب من عين إلى عين، إلى مواضع المراعي التي يُكثر الرحّل من التـــردد اليها، ونسكن فيما بينهم، ونُمضي عدة ايام معهم، ونحـــاول ان نجعلهم أليفين معنا، وان نضعهم في جو من الثقة والصداقة [...]. ان سكان البلاد يحسنون استقبـــالنا، ولكن الأمر ليس نزيهًا، اذ انهم مدفوعون إلى ذلك بالحاجة. كم من الوقت سيلزمهم لكي يكون لهم المشاعر التي يتظاهرون بها ؟ ربما لن تكون لهم هذه المشاعر ابدًا [...] وهل سيعرفون ان يفرقوا بين الجنود والكهنة، وان يروا فينا خدامَ الله وخدام السلام والمحبة واخوة شاملين ؟ لا أدري. واذا قمتُ بواجبي، فان يســـوع سيسكب عليهم غزير نعمه، وسيفهمون "[١٣].

ولكي " يفهموا "، كان عليه ان يصبـــح " صغيرًا وســـهل المنال "، بعيدًا عن الجنود. وجاءت نعمة المرض في مطلع ســـنة ١٩٠٨ وجعلته عاجزا وغير قـــادر على الحركة، مسلَّم دون دفاع ولا قوّة إلى ضيافة الذين كانوا يستطيعون أخيرًا ان يعاملوه مثل اخ. واضطر إلى القبول بالخبرة التي لا تضاهى، خبرة التضامن التي لا تتوقف له على الإعطاء للآخرين فحســـب، بـــل إلى التلقّي بالمقاســـمة ما كان يستطيع الآخرون ان يعطوه. ان يكون أخًا فهذا يعني ايضًا ان يقبل بأن يُحَبّ[١٤].

أخٌ وصديق

وهكذا توصل إلى ان يحيا هذه الأخوّة في علاقات الصداقـــة، كما كان قـــد فهم ذلك من حيث النظرية حينما أوصى الآخرين ان عليهم ان يكونوا " اخوة واصدقاء شاملين ". وهكذا من زاوية علاقات الصداقة، سيشرح بعد ذلك ماذا يجب ان تكون

---

(١٣) بازان، ص٢٩٨.

(١٤) انطوان شاتلار، في تامنراست، اهتداء شارل دي فوكو، طالع " يسوع محبـــة " العدد ٢٢٤، الفصل الرابع لسنة ١٩٨٦، ص٤٧-٥٩.

الأخوّة بين الناس[١٥]. وخبرته الشخصية للصداقة ترتقـي إلى عهد طفولته، ولكن نحتاج إلى كتاب بكامله لكي نتكلم عن جميع صداقاته التي بدونها لا يمكن شـرح حياته. وهو يعود اليها باسـتمرار، بنـوع صريح او بغيـر وعي. وحينمـا يريد شرح صداقاته مع الطوارق، لا مقارنات اخرى لديه سـوى الطريقة التي نرتبـط بعضنا ببعض.

أخ في التفاصيل الصغيرة

ان يكون أخًا شاملاً، هذا لا يعني ان يكون أخًا للنفوس فحسب، كما كان يعتقده في البدء، وكان بذلك يقع في فخاخ لغته الخاصة بهِ. كما ليس ان يحـب بـصورة إجمالية وعامـة. " اذا أحبُّ جميع البشـر، فلكي اقول لك، يا عزيزي ويا صديقي الحبيب، كم اني احبك انت الصديق القديم، الصديق المختار، وصديق القلب "[١٦].

هذا ما كتبه إلى الدكتور بلتازار في ٢ آذار سنة ١٩٠٢.

ويجب ان نذكّر ههنـا بتعليم يرقى إلى زمـان الناصرة والـذي وضعه حيـزّ الممارسة في بني عباس وفي تامنراست، كما كان قد فعل لدى الراهبات الكلاريات :

" لنكن رقيقين إلى غير حدّ في محبتنا. ولا نكتفينَّ بالخدمات الكبيرة، وليكن لنا هذه الرقة الحنونة التي تدخل إلى التفاصيل، والتي تعرف بأمور صغيرة ان تُدخل بلسما كبيرًا إلى القلوب. قال يسـوع : " أعطوها لتأكل ! ". لندخل كذلك مع الذين هم بقربنا إلى التفاصيل الصغيرة المتعلقـة بالصحـة او بـالتعازي، والصلوات، والاحتياجات. لنسلِّ ولنلطِّف بانتباهنا الدقيق. ليكن لنا للذين يضعهم الله بقربنا هذه المبادرات الحنونة والرقيقة، مثـل تلك التي تكـون بين الامهات لأولادهـن، لكي نعزّي قدر المستطاع كل الذين يحيطون بنا، ونكون لهم موضع التعزية وبلسـمًا،

---

(١٥) قوانين ومحضر، ص٦٤٨، ٧ .

(١٦) ارشيف التطويب.

كما كان الرب دومًا للذين دنوا منه، سواء للعذراء القديسة وللقديس يوسف، او للرسل والقديسة المجدلية وجميع الآخرين... كم كان سببَ التعزية والعذوبة للذين اقتربوا منه ! فعلينا، بمقدار ما هو فينا، ان نحاول التشبّه به في هذا كما في كل شيء، وان نجتاز في هذا العالم ونحن نعزّي ونقدّس اكثر ما نستطيع إلى ذلك سبيلاً "[١٧].

وكان علينا ان نروي احداثًا مختلفة من حياته في تامنراست لكي نسلّط الأضواء على هذا التأمل في الانجيل. ومراسلته برهان متواصل على هذه الرقة المنتبهة التي هي نعمته الخاصة.

صلاة وخلاص شاملان

اذا كانت صفة الاخ الشامل تضعه على أبعاد العالم، علينا ان نقول ان صلاته وحدَها كان لها هذا البُعد : " يا إلهي، اجعل جميع الناس يذهبون إلى السماء ! " وهذه الصلاة الشاملة لم تكن فقط صلاة بني عباس حينما كان يكتب هذه الجملة في رأس كلٍ من دروس التعليم المسيحي. فسنجِدُها منذ بدءِ حياته الرهبانية. ففي سنة ١٨٩٦، كان يوصي في قانونه الأول :

" كل صباح وكل مساء يقوم الاخوة، بصلاة صامتة مدة نصف ساعة، لكي يطلبوا من الله خلاص جميع البشر، الذي طلبه ربنا منه بحرارة كبيرة طوال حياته كلها "[١٨].

وفي الوقت نفسه، كان يشرح الصلاة الربية :

" لا أرفع طلبًا من اجلي وحدي كل ما أطلبه في الصلاة الربية، أطلبه لله او

---

(١٧) جودة الله، ص١٢٤-١٢٥.

(١٨) قوانين ومحضر، ص٢٨-٢٩.

لجميع الناس [..]. فالغفران، مثل النعمة، نطلبه ليس لنا وحدنا، بل لجميع الناس"[١٩].

وفي قانون سنة ١٩٠١، الاخوة هم " الاصدقاء الشاملون، الاخوة الشاملون الذين يحرقون حياتهم في الصلاة من اجل جميع الناس دون استثناء "[٢٠] وهذا هو ايضًا معنى نداء الروح الذي يدعو اليه جميع اصدقائه من الكهنة والعلمانيين، في الساعات الثلاث الرئيسية من النهار " مصلّين من اجل جميع البشر دون استثناء ". وقبل موته بمدة وجيزة، كان يوجز ايضًا فكرته :

" محبة اخوية لجميع الناس [...] ان نرى في كل انسان ابنًا للآب السماوي : ان يكون المرء محبًّا، هادئًا، ومتواضعًا، وشجاعًا مع الجميع : ان يصلي من اجل الجميع، من اجل جميع الناس، وان يقدّم آلامه من اجل الجميع "[٢١].

اليست هذه الصلاة من اجل جميع البشر التعبير عن قلقه في شأن خلاص جميع الناس. ويُظهر لنا تصرّفهُ العملي وصلاته انه كان واعيًا بأن في وسع جميع الناس ان يخلصوا، وانه سيجد في ملكوت الله كل الذين كان يحبهم. الا ان علمه اللاهوتي لم يكن يسمح له بالتصريح بهذه الفكرة، وهذا ما يمكن ان يشرح المسافة التي نستطيع ان نلاحظها بين كتاباته في هذا الموضوع وبين تصرّفه العملي.

انسان واحد اعتُبر اهلاً ليُدعى الاخ الشامل، انه ذاك الذي هو أيضًا المخلّص الشامل، الوحيد الذي يستطيع ان يحب جميع الناس وكلاً منهم مثل وحيد. انه ذاك الذي دعاه شارل دي فوكو يومًا : " يسوع، هذا الاخ البكر الشامل ! ".

اما هو، فانه بالعيش مع عدد صغير من الناس، في مساحات محدودة جدًا من الصحراء وطوال بضع سنوات، تمرَّس على المحبة الأخوية في الصداقة، وهو يحاول الا يستبعد أحدًا. وهكذا فقد اكتسبت حياته بُعدًا شاملاً.

---

(١٩) روح يسوع، ص٣٢-٣٣.

(٢٠) قوانين ومحضر، ص٨٧.

(٢١) المحضر، باريس سنة ١٩٦١، ص١٢٥.

-١٤-

النداءُ الأول من الهوجّار

حينما اختار الأخ شارل بني عباس، ذهب بذلك إلى أبعـد ما امكن، لكي يكون اقرب ما امكن من مراكش. وبعد مدة، تحقق من انه ليس امل كبيـر، لأن البـاب يبدو مغلقًا من هذه الجهة. وفي مطلع سنة ١٩٠٣، عرَّج لابرّين على بني عبـاس وهو عائد من إجـازة، وإن لم تكن بني عباس جزءًا من أراضيـه. ولكنه إذ علم بوجود شارل دي فوكو في هذه الواحة، اراد ان يراه، وذلك ليس بغير فكرة مبيَّتة، لأنه، كما كان قد سبق ورآه، رأى حـالاً كيف يسـتفيد منه، مع تركه في دعوته. وكلّمه عن مشاريعه في الهوجّار، ولكنه دون ان يُفلح في إقناعه.

ولما التحق لابرّين بمقّره في أدرار، أرسل مساعده، الكابتن نيجر، وكلّفه بمهمة سيشرحها هذا الاخير في محاضرة القاها بعد ذلك، جاء فيها :

" في نيسان ١٩٠٣، تعرفت إلى الاب دي فوكو. وبعد اقامة اولى في الصحراء دامت تسعة اشهر، اطلق لي رئيسي (لابرّين) الحـرية في العمل. ومع ذلك فقـد تلقيت توجيهًا واضحًا : " ستجتاز ببني عباس، وتذهب وتلتقـي فوكو، وهو يعمل كبناء، ويبني له مسكنًا لا يخرج منه. انه لا يأكل، ويعيش من صدقة الناس، ويجد فرصة لكي يفتدي عبيـدًا قادمين من مراكـش. انه لا يفكر سـوى في مراكش، وذكريات شبابه تزعجه. ولا يمكن عمـل شيء له من هذه الناحيـة، الا انه عنيد. يجب دفعه إلى ان يقرّر المجيء والالتحاق بنا. سـيكون راعيًا (خوريًا) للطوارق

وسيؤدي لنا الكثير من الخدمات "[١].

وخلال شهر أيار، تلقى الاخ شارل زيارة المونسنيور غيران الذي جاءه بعد ان قام بدورة طويلة عبر عين صلاح. في نهاية الإقامة، أظهر (شارل) رغبته في عدم اتّباع تمامًا التوجيهات التي يودّ اسقفه إعطاءَها اياه.

وبالفعل، فهو يكتب في ١٠ حزيران إلى الاب هوفلان ما يفكّر فيه، ويشير إلى اختلافه، وهذه الرسالة مهمة جدًا بسبب هذه التوضيحات :

" ان زيارة هـذا الاب الطيب والجليـل لم تغيّر حياتـي... فهو يدفعني نحـو مراكش... واني استقي ثلاث ذكريات من زيارتـه : اولاً ذكرى طيبته المدهشـة وقداسته وتواضعـه وتفانيـه... ثم انـه يدفعني نحـو مراكش، واني سأتبع هـذا الاندفاع على أحسن وجه، ولكني الآن لا ارى مجالاً للدخـول اليها... ثم لديه ميل رقيق وطفيف إلى دفعي بهدوء إلى تغيير حياتـي كراهب صامت وخفي، حياتـي الناصرية، إلى حياة رسولية. وهذا الميـل الأخير لن أتبعـه، إذ اني اعتقد بأنـي سأكون غير أمين تجاه الله الذي أعطاني دعـوة حياة خفية وصامتة، وليس حيـاة رجل الكلام : الرهبان والمرسَلون هم رسل كلهم ولكن بصورة مختلفة. وهنـا لن أتغيّر، وسأتبع طريقي، واني اتأرجح بين الراحة والتعب، وبالأحرى اني لست على ما يرام، ويا للأسف، ولكني امين منذ اربع عشرة سنة : حياة خفية في يسوع، ومع آخرين اذا ما أرسل يسوع منهم اليَّ، ووحدي اذا تركني وحيدًا ".

نحن اذًا في مطلع شهر حزيران١٩٠٣. ولابرّين يكدّس الاضابير في مقرّه في أدرار. ولدى قراءَته رواية مجزرة إرسـالية " فلاتيرس "، يكتشـف طرفةً يظنها قادرة على ان يغيّر قلب الراهب الراسي في بني عباس :

---

(١) نيجر، " لابرّين والاب دي فوكو " ١٩٢٣، ص١٨٦.

" لدى وقــوع مجزرة إرسالية " فلاتيرس "، أبدت امرأة طوارقيــة من قبيلــة شريفة موقفًا رائعًا جدًا، إذ عارضت قتل الجرحى، واخذتهم إلى بيتها واعتنت بهم، ورفضت ان يدخل إلى بيتها " أتيزي " الذي عــادَ جريحًا مــن حرب أمكيد ضــد " ديانوس "[٢]، وكان يريد ان يقتل هو نفسه اولئك الجرحى. وبعد شفائهم، رحَّلتهم إلى طرابلس. وهي الآن في سنها الاربعين او الثالثة والأربعيــن، ولها الكثير من التأثير والشهرة من جراء محبتها "[٣].

وينتسخ لابــرّين هذه الرواية في رســالة وجهها إلى شــارل دي فوكو. ويكاد المفعول يكون مباشرًا. ولكي نقتنع من هذا الامر، يكفي ان نتبع في كراســه وفي رسائله الردود التي احدثتها على المرسَل اليه.

وفي ١٨ حزيران، كتب المونسنيور غيران ونقل النص المشار اليه، ثم أضاف :

" سيحاول القائدِ " لابرّين " ان يحصل له على مدالية لاتحاد النساء في فرنسا، واذا اكتسب ثقته بهذه الوسيلة، فسيتكلم عن الامر بعدئذ معك ومع راهباتك البيض.

ان الأب الأقدس هو الأب الشــامل، كما ان يســوع هو الملك الشــامل. الأب الأقدس، مثل يســوع، هو ملك وأب للطوارق. الا يســعنا ان نطلب منه ان يقــدّم تشجيعًا أبويًا لهذه المرأة، التي هي من رعاياه وابنته ؟ فإذا اعتبرت ذلك مناســبًا، اكتبْ عنه إلى الأب " بورتــن " المحترم[٤] وإلى القائد لابرّيــن، وإلى من ترتئني الكتابة اليه.

في كل الاحوال، سيكون من الخير الدخول إلى اوثق العلاقــات مع الطوارق،

---

(٢) ديانوس هم رجال الضابط ديانوس الذين نجوا من مجزرة إرسالية فلاتيرس.
(٣) مراسلات صحراوية، ص١٩١.
(٤) وكيل الآباء البيض في روما.

والاستفادة من جميع الأبواب... وسيكون من المرغوب فيه ان يتقدَّم عملُ الأب الاقدس الاجراءات الاخرى ".

وفي ٢١ حزيران، ينقل في كراسه(٥) مقطع رسالة لابرّين، ثم يضيف :

" أليست هذه النفس مهيأة للانجيل ؟ ألن يكون مجال للكتابة اليها بكل بساطة لنقول لها ان المحبة التي تمارسها دوما وتلك التي بها قبلت جرحى الارسالية الفرنسية واعتنت بهم وحمتهم ورحَّلتهم قبل ٢٢ سنة : هذه الاعمال معروفة لدينا وتفعمنا فرحًا وشكرًا لله ".

واذ يواصل على هذه النبرة، يكتب هو نفسه الرسالة التي كان قد ارادَ اولاً ان يكتبها البابا :

" سأرسل نسخة من مشروع الرسالة إلى المونسنيور غيران، وأسأله هل يريد ان يكتب هو نفسه ام يريد ان اكتب أنا، وان أقترح عليه - إذا ما عُقدت العلاقات، واذا أبقى وحدي، واذا بدا الأمر مطابقًا لإرادة الله في هذا الوقت - ان اذهب مشيًا على الاقدام وازور هذه السيدة ".

فنرى ان ثمة الكثير من " إذا "، ولكن الفكرة بدأت تنشأ. وفي اليوم نفسه، كتب في كراسه :

" يبدو لنا ان ثمة مجالاً لكي نبدأ انجيلاً صغيرًا جديرًا بأن يُتَرجَم ويُطبع بالعربية ولاسيما بلغة الطوارق... [...] وسنبدأ اليوم هذا العمل ".

في ٢٢ حزيران : " لو كان مجال لتأسيس في موضع آخر، ليس أخوّات، بـ ملاجئ لي وحدي، او لواحد او اثنين او ثلاثة اخوة فقط، هذا هو حسب رأيي

---

(٥) شارل دي فوكو، كراس بني عباس، باريس١٩٩٣، ص٧٠-٧١.

المخطط الذي يجب تبنّيه " ويَصف ثلاث امكانات، مع ثلاثة تصاميم : أ. ب. ج.

وهكذا، من ١٨ إلى ٢٢ حزيران، في ثلاثة او اربعة ايام، نراه يلتزم تدريجيًا بهذا المشروع. اولاً ان يدفع إلى الكتابة، ثم ان يكتب هو نفسه، ويذهب لمجرد زيارة، وان يكتب انجيلاً قابلاً للترجمة، وان يقيم ملاجئ في الحالة التي فيها يُضطَرُّ إلى الاستقرار في موضع آخر. ان هذه الافكار تعذّبه - لذا فانه في ٢٤ حزيران يقرّر الكتابة إلى المونسنيور غيران، لكي يُقرّ السلام في نفسه :

" اكتب اليك بعد شرود طويل... شيئان يجعلاني أقرّر : الأول هو اني أفعل هذا واترك القرار لك وللأب هوفلان، لا اعمل سوى أن اعطي ذاتي وان اقدّمها اكثر لله، وهو الذي سيقرّر : " من يسمع منكم يسمع مني "... الثاني، هو انه اذا انت والأب هوفلان قلتم " نعم " كلاكما، فمن الضروري الإسراع في العمل، لأن الأبواب التي ارجو ان اجدها اليوم مفتوحة، بفضل حضور صديق مخلص في الواحة، قد تنغلق امامي غدًا.

وبما انك قلتَ لي انه ليس في وسعك الآن ان تقبل تأسيسًا في الواحة، ولا ان ترسل اليها آباء معزولين، وبما انك من جهة اخرى كنتَ تشعر برغبة في ان تراني اذهب مرة او مرتين في السنة إلى تاغيت، بما اني ما زلت وحيدًا وانه لا ينفتح امامي أي باب نحو الغرب :

الن يكون من الأفضل للنفوس، ومن الألذ لقلب يسوع، ان اطلب من صديقي في الواحات السماح لي بالسكنى في " أولف " أو أبعد إلى الجنوب إن امكن، في موضع يتوفر لي فيه العزلة مع الأمان، لكي فيه اتعلم لغة " تَركَي "، وفيه أعدّ ترجمة بعض الكتب إلى اللغة التَركية (أودّ ان اترجم الانجيل باللغة والكتابة التَركيتين) ؟... فاذا قال نعم، فإني سأذهب واسكن في هذه الصومعة التي طولها متران وعرضها متران، مع مصلى مساحته متران على خمسة امتار، وسأعيش

١٤- النداءُ الأول من الهوجّار .....

هناك حياة العزلة، ولكن بدون حصن، وان ابذل جهودي : ١- لأكون في علاقات تزداد عمقًا مع الطــوارق (ان اقوم بجولات عندهم اكثر ما امكن). ٢- لكي اترجم الانجيل المقدس إلى لغتهم (مستندًا إلى انجيل الســيد " فيبــر "). ٣- لأذهب، في الأقل مرة في السنة، إلى كل من هذه المراكز : أدرار، عين صلاح، تيميمون، بني عباس، تاغيت، والمراكز الاخرى حيث يوجد اوربيون، لكي اقيم فيها الأســرار، واختار قدر المستطاع اوقات الاعياد الكبيرة التي تؤثر حتى في قلوب اللامباليين. ٤- لكي اسافر في ايام قصيرة لكي يتســنى لي ان اتحــدث، طوال الاســفار، مع السكان المحليين، وان اعمل شيئًا مما اوصيتني به مرات عديدة.

فإذا قلت نعم، واذا قال الاب هوفلان، الذي ارسلتُ اليه نسخة من هذه الرسالة، نعم فسأكتب إلى صديقي، وسأمضي حالما يقول لي هو ايضًا " نعم ".

وفي الوقت نفسه تقريبًا، تلقى الاب هوفلان نسخة من هذه الرسالة ورسالة ١٠ حزيران، حيث كان (شارل) يؤكد انه لا يريد ان يتبع اسقفه الذي كان يدفعه بــرقّة إلى الحياة الارسالية. وكان الاب هوفلان مريضًا جدًا وجوابه المشــجّع يظهر انه ادرك انهم لا يستطيعون منع شارل دي فوكو من اتبــاع إلهامه. وهو يعرف ايضًا انه لا نورَ له لكي يحكم في الحالات عن بعد، فيجيبه في ٥ تموز : " اتبع حركتك الداخلية، واذهب إلى حيث يدفعك الروح ".

الا ان الاخ شارل لا ينتظر الاجوبــة، لأن الوقت قصيــر، وفي ٢٩، كتب إلى لابرّين لكي يطلعه على مشروعه ويطلب منه السماح بتنفيذه. وهذا ما كان القــائد ينتظره. وفي الغد كتب شارل من جديد إلى المونسنيور غيران ليشرح له استعجاله والأسباب التي دفعته إلى الكتابة مباشرة إلى لابرّين، بدون ان ينتظر جواب اسقفه :

" في رسالتي الاخيرة، اظن اني كنت اقــول لك اني كنتُ اكتب اليك بعد تردد طويل. أجل، كل تغيير وكل حركة ترعبني، وتســبب لي دواراً وفزعًا. اخاف ان

١٤- النداءُ الأول من الهوجّار .....

أضل الطريق، وأخشى الا استطيع. في الوقت نفسه يلهمني الخوف من الوهم والجبانة الطبيعية هذا الفزع امام كل عمل مهمّ...

لكن الفزع يبطل عادة حالما اضع نفسي بين يدي مرشدي واستسلم اليه... مذ ذاك يسود سلام عميق ويزول كل تردّد.

وهذا ما يحدث لي. فقبل ان اكتب اليك وإلى الاب هوفلان، كنت اخاف وأتردّد. اما الآن، وقد انطلقت هاتان الرسالتان، فقد حلّ السلام في اليوم نفسه والفرح وثقةٌ هادئة ورغبة شديدة ولكنها هادئة جدًا.

اني اشتاق بكل بساطة ووضوح إلى الذهاب - ريثما ينفتح مراكش، اذا ما انفتح - عند الطوارق، في موضع يتوفر لي فيه أمن كافٍ... هنا " لقد تلقى الكفاية من الاشخاص ومن المسلمين عرض التعليم المسيحي. فالنفوس ذات الارادة الصالحة استطاعت كلها ان تأتي، واستطاعت كلها ان تتعلم. كل الذين يريدون ان يروا، يرون ان ديانتنا كلها سلام ومحبة، وانها مختلفة اختلافًا عميقًا عن ديانتهم : ديانتهم تأمر بالقتل، وديانتنا تأمر بالحب. لا رفيق لي. ومراكش لا يفتح ابوابه. فلا استطيع ان اعمل شيئًا افضل لخلاص النفوس، وهو حياتنا ههنا، كما كان حياة يسوع المخلص، سوى ان اذهب واحمل إلى موضع آخر، ولأكبر عدد ممكن من النفوس، بذرة التعليم الالهي، ليس بالوعظ بل بالتحدث، لا سيما ان اذهب لأعِدَّ وأبدأ بالتبشير بالانجيل بين الطوارق، وان اسكن عندهم واتعلم لغتهم، وان اترجم الانجيل المقدس، وان اعقد علاقات صداقة اكثر ما امكن معهم...

واذا اراد يسوع ان يكون لي اخوة صغار لقلبه الإلهي، فهو يستطيع ان يرسل منهم اليَّ إلى ههنا. وطالما تدوم الاوضاع، سأتمكن، مرة في السنة، من الصعود نحو الشمال، وان اذهب لكي اعترف، وفي طريقي ان اجتاز بجميع الثكنات، وان اتحدث طوال الطريق إلى السكان المحليين.

١٤- النداءُ الأول من الهوجّار .....

واذ اخاف من التأخير، وأخشى ان ينتقل صديقي الذي في الواحـــات، اكتب اليه بهذا البريد، لكي اطلب منه السماح بأن اسكن " لكي اتعلم لغة الطوارق وان اترجم بعض الكتب إلى هذه اللغة، اكثر ما امكن في قلب بـــلاد الطوارق، مع أمن كاف، بفضل توصيته وحمايته الأدبية "... لا يحق لي ان انتحـــر، وهذه ليســـت وســـيلة لتعريف يسوع للنفوس. يجب ان اقرن الشجاعة بالفطنة : ان لا اكون غيـــر فطِن، ولا اكون جبانًا.

فإذا قلتَ " لا " لرغبتي، التي اظن اكثر فأكثر ان الله يريدها، فلن يكون شـــيء اسهل من ان اقول لصديقي : اني لن آتي مؤقتًا.

وإذا قلت " نعـــم "، فلن يكون لي ســـوى الانطلاق، وســـأستطيع الافـــادة من حضوره ومن صداقته... هناك علامات كثيرة تحدوني إلى الظن انه قـــد بقـــي له وقت قصير للمكوث هناك. لذا فإني على عجلة من امري. هو الله الذي يوفـــر هذه الفرصة، كما هو الذي، على ما أظن، يضع في قلبي هذه الرغبة.

اني لم أُطلع احدًا ابدًا على رغبـــتي في الذهاب عند الطوارق، الا اياك والاب هوفلان وصديقي في الواحات. فارجوك ان تحفظ ايضًا السكوت...

في حالة ذهابي، فان الاخوّة، التي سأجتاز بها بضعة ايام كل سنة، ستبقى مغلقة في غيابي، وسيؤجَّر البستان : ولا شيء اسهل من هذا ! "

نرى ان مشاريعه قد توضحت وتغيرت قليلاً. فهو لا يتكلم عن " أولـــف " من بعد، ومسبقًا يجيب على الاعتراضات التي سيقدمها المونسنيور غيران حـــتمًا. فهو يعرف ان يســـتعيد في أجوبته طلبات اســـقفه التي كان يقاومهـــا بعض المقاومـــة حتى الآن.

وفي ١٥ تموز، عندما تلقى الاخ شارل جواب الاب هوفلان، كتب رسالة ثالثة

١٤- النداءُ الأول من الهوجّار .....

إلى المونسنيور غيران :

" تلقيتُ جواب الأب هوفلان : انه " نعم " : " اتبع حـركتك الداخلية، واذهبْ حيثما يدفعك الروح. وستكون دومًا الحياة منعزلة في كل موضع يتلقاك فيه يسوع لكي يعطيك للنفوس. أجل، اني اؤيد رسالتك إلى المونسنيور غيران : وسيحكم ! ".

اني لم استلم بعدُ جوابك ولا جواب الواحات. واذا كان الجوابـان " نعم "، فإني سأنطلق أسرع ما امكن، لكي لا أدع الفرصة تفوتني.

وفي فكرتي، اني سأُمضي معظم ايام السنة عند الطوارق، ولا أَتغيّب عنهم الا في الوقت الضروري لكي اقوم، مرة في السنة، بجولة في جميع الثكنات حـيث لا ترسلون كاهنًا، ولكي اذهب لأعترف... ".

في ٢٢ تموز، ورد جواب لابرّين. فكتب الاخ شـارل رسـالته الرابـعة إلى المونسنيور غيران، وهو يعيد الكرّة بإلحـاح مدهش ينمُّ عن عدم صبـره. فهو لا يصلي إلى القديسة المجدلية لكي تظهر ارادة الله، بل يصلي لكي تلهم المونسـنيور غيران ليقول : " نعم " :

" لقد أتاني اليوم جواب الجنوب. انه " نعم " ايضًا بالاحرى في الاقـل : " اني اهتم بك. قد يسير الأمر جيدًا، ولكنه في وقتين. فتقيم اولاً في " أقابلـي " حيث لا يوجد بريد وحيث تكون في المسـاكن الاولى، لكي تتعلم لغـة الطوارق. وحينمـا ستتكلم هذه اللغة بكفاية وتكون معروفًا لدى اصحاب القـوافل، سـندعك تذهب... اكتبُ إلى السـيد، لأني لا اريـد ان أسكنك في الملحق بدون رأيه... وأظـن أن منهاجك، مع شـيء من الفطنة، يمكن ان يُنفّذ بدون ان يكـون ثمة خطر يمكـن الخوف منه "[٦].

---

(٦) لن يرسل لابرين فوكو عند الضابط، المعروف بمناوأتـه للاكليروس، بدون ان يقدّمه. لكـن لابرّين يجهل ان " ميتوا " قد اجتاز إلى بني عباس، وانه اتى عند الأخ شـارل واقـترح عليه ان يُسـكنه في قطاعه.

١٤- النداءُ الأول من الهوجّار .....

سأجيب ان هذه المسيرة في وقتين تلائمني تمامًا... وبالفعل فان هذا أمر حكيم جدًا... " أقابلي " هي الحلقة الاولى. وكنتُ قد كتبتُ اني كنتُ أرغب في موضع لا ثكنة فيه.

القديسة المجدلية هي التي أتتني بهذا " نعم " في مناسبة عيدها، فلتُلهمك أم الصحراء هذه لتقول لي " نعم " انت ايضًا. فيبدو ان الأمر متعلق بك الآن، ان يذهب بيت القربان الإلهي ويسكن في أقصى الجنوب، وان يكون لجميع الثكنات التي انت مسؤول عنها وجميع المراكز، ومن ضمنها " تاغيت "، كل سنة القداس الإلهي والأسرار [...].

انا ممتنٌّ كل الامتنان لهذين " نعم " اللذين وردا بهذه السرعة، وانا انتظر هذا " نعم " منك، ايها الأب الحبيب والجليل. واذا ما تلقيتُه، فاني لا افكر في الذهاب حالاً. فبالإضافة إلى احتياجي إلى انتظار رسالة اخرى، كما ترى، تكون حاسمة من الجنوب، أودّ ان أنهي قراءة القديس يوحنا الذهبي الفم، وأودّ ان أُمضي يومين او ثلاثة أيام في " تاغيت "... الا اني سأرتب شؤوني حسب الظروف، وبحسب ما سيُقال لي من الجنوب... وابحث ان اقوم على خير ما امكن بعمل الاب السماوي، الخبز اليومي الحقيقي والضروري الأوحد.

اخيرًا جاء الجواب الأسقفي في ٢٥ تموز. انه مؤرخ في ٩. فالمونسنيور غيران، الذي لم يكن قد تلقى الرسالتين الأخيرتين، مندهش وهو يقرّ انه لم يتلقَ مشاريعه الا بشيء من عدم الثقة. وهو لا يتجرأ ويقول " لا " نهائيًا وثابتًا. انه يطلب الوقت للتفكير :

" وما العمل، ايها الأب العزيز، فإني اعتبرك مراكشي اكثر منك طوارقي. واني اتردد قبل ان اراك تبتعد عن مراكش.

فلو كان ثمة تغيير، اما كان توجهك بالاحرى يجري نحو الغرب او نحو

" فيكيغ ". ولكن اصبـــر قليلاً بعد : فالعناية الإلهية ستظهر، واني لواثق بذلك في اعماق نفسي ".

فأجابه الاخ شارل على الفور، في ٢٥ تموز، وكتب اليه رسالته الخامسة، وفيها يقول :

" في شـــأن مراكش والغرب، اريـــد ان اقول لك ان الذهـــاب إلى بـــلاد الطوارق لا يعني لي، في نظري، التخلّي عن مراكش، بل بالاحرى الاستعداد له، والقيام في الوقت الحاضر بالعمل الأكثر فائدة.

فيكيغ، كلا، انه ليس مكاني... فيكيغ، والحق يُقال، ليســـت مراكشـــية بـــل جزائرية [...] مركز شعبي وموضع التموّن للرحّل، سيكون موضعًا ذا موقـــع جيد لتأسيس مدرسة ومستوصف :

وهذا ما يدخل ضمن دعوتك ووسائلك، وليس وسائلي... ".

فهو يشعر بأن عليه ان يمضي إلى الجنوب. ونراه مستعدًا ليقبل أي شيء كان، اذا قيل له بالذهـــاب. فتعلّمُ اللغة الطوارقية لن يكـــون الا نافعًا لوجهـــة النظر المراكشية. في الجنوب قد يكون له حظ أوفر في التقاء المراكشيين مما في بني عباس ! انه ينسى حياة الناصرة ويمضي حتى إلى الكتابة : " ثم ان العلاقات بسكان البلاد ستثقفني وتوليني المزيد من الخبرة والأمان من ناحيـــة الرسالة والتبشير "، وهذا ما من شأنه ان يرضي المونسنيور غيران.

ويواصل تقديم براهينه بنوع اكثر فأكثر شدّة :

" اخيرًا، ارى انه يجب الافادة من جهـــة مـــن الفـــرص ومـــن الارادات الصالحة الحاضرة، ومن جهة أخرى، الا يُترك هذا البلد الكبير مهملاً لننتظر بأن تُفتح ابواب في مكـــان آخر... لنذهـــب الآن إلى حيث نستطيع الذهـــاب.

وحينما ستنفتح ابواب في مكان آخر، سنذهب اليه. لكل يوم شدتُه : لنعمل في الوقت الحاضر ما هو الأحسن ! وفي جميع اللحظات التي تتتابع وتكوّن الحياة، لنستفد من النعمة الحاضرة ومن الوسائل التي يوفرها الرب لنا. ولا شيء يهيئنا بنوع أفضل، لكي نستفيد من النعم القادمة ولكي نتلقاها، من ان نحسن استخدام النعم الحاضرة... ".

ان هذا لتطبيق لروحانية الوقت الحاضر التي اكتشفها لدى الاب دي كوسّاد[٧]. ولهذه الجملة، خارج سياقها، مؤدى آخر، وليس من الضروري ان نسردها فقط حينما نريد ان نعمل شيئا لا يريده رئيس.

وفي ٢٢ تموز ايضًا، وهو عيد القديسة المجدلية، بينما كان الاخ شارل يصلي إلى هذه القديسة لكي تلهم الاسقف ليقول " نعم "، كتب هذا الاخير، بعد ان صلّى طويلاً :

" لقد فكرتُ فيك كثيرًا وصليتُ من أجلك طوال هذا النهار الذي اعرف انه لك نهار تحبه حبًا خاصًا.

من كل نفسي، سألت يسوع، بشفاعة هذه القديسة خادمته، ان يمنحك، في هذه الساعة، نعم النور الذي تتمنى ان تناله لكي تعرف طريقك ".

ولا يريد المونسنيور غيران ان يعطي جوابًا نهائيًا، فهو يريد ايضًا ان يستشير المونسنيور ليفينهاك. وسيُعرب له بعد ذلك عن حيرته ازاء دعوة غير اعتيادية مثل دعوة شارل دي فوكو : " طاعة مدهشة ليس من السهل اصدار

---

(٧) عن الاب دي كوساد وكتابه، سيكتب شارل دي فوكو إلى احدى الاخوات البيض، في ٢٤ كانون الاول ١٩٠٤ : " انه احد الكتب التي احيا منها اكثر. وتحت عنوان " الاستسلام إلى العناية الإلهية " يتضمن اشياء اخرى كثيرة. يمكننا ان نحيا منه "، انظر شارل دي فوكو، مراسلات صحراوية، باريس ١٩٩٨، ص٩٥٧.

الأمر اليها[٨] ! ".

وكان الاب لويس دي غونزاغا قد اختبر الصعوبات نفسها، وكتب : " يجب القول ان الموضوع هو في اشواقه ورغباته أمر يُصرّ عليه، لكي لا نقول شيئًا آخر[٩] ". وكذلك كان الاب مارتن قد أصابَ حينما كتب إلى الاخ شارل : " يبدو لي انك تغير بسهولة مفرطة افكارك الشخصية، حين يكون الهدف جيدًا، إلى اوامر صادرة عن السماء "[١٠].

ربما لم تكن للسماء وسيلة اخرى لايصال أوامرها إلى الارض. وهذا ما يدركه المونسنيور غيران الذي يواصل رسالته المؤرخة في ٢٢ تموز :

" آه، يا صديقي العزيز، انك تطلب مني نصائح، وتطلب مني أوامر ! اذا كانت الطاعة سهلة، فليس من السهل الهيِّن ان أميّز دروب الله وان اعطي لك أمرًا باسم الحكمة الإلهية.

ومع ذلك، ايها الاب العزيز، بكل تواضع سأقول لك ما هو الآن شعوري في صدد شؤونك. ان مشروعًا مثل مشروعك يتطلب ان يُعمّق طويلا. ومغادرتك في الوقت الحاضر، فوراً، تبدو لي متسرّعة كثيرًا وقليلة التطابق مع طريقة العمل الاعتيادية للعناية الإلهية.

واني لا استطيع الاعتقاد ان مثل هذا الانطلاق يكون حسب ارادة العناية الإلهية، في هذا الفصل من السنة. عليك ان تنتظر في الاقل شهر تشرين الاول او تشرين الثاني ".

---

(٨) مراسلات صحراوية، ص١٠١٢.
(٩) الموضع الاخير الحبيب، ص ١٥٤.
(١٠) الموضع نفسه، ص٢٨٣.

ويواصل جوابه السلبي وهو يدخل في التفاصيل. صعوبات مادية في شأن التموين، والعبادة، وحياة عزلة غير ممكنة، وحياة في مخيم رحّل عسكري :

" هل سيكون مكانك جيدًا هناك، في مؤخرّة مخيم من الرحّل اساسًا، انت الذي لا تحلم الا بحياة رهبانية ؟ لا ادري.

فترى، يا صديقي الحبيب، اني لا اريد ان اختم قضية المبدأ، التي أتمنى لها نصائح وظهور اوضح لارادة الله. ولكني جازم اكثر في ما يتعلق بضرورة ذهابك الفوري [...] كما كنتُ جازمًا إلى هذا الحد لو ان الأمر تعلق بانتهاز فرصة لتذهب وتسلم على صديقك الحميم " تيمي ".

ثم فكر المونسنيور غيران في انه سيكون من المستحيل على الاخ شارل ان يقيم القداس وحده، بدون خادم، بما ان السماح المطلوب من روما لم يُحصل عليه بعد. ثم يواصل :

أفهم بسهولة كم ان هذه المشاريع ستجرّ طبيعتك المتحمسة، ولكني من كل نفسي، اصلّي إلى الله ان يساعدك لئلا تصبح ضحية وهم من شأنه ان يكون سهلاً.

ان إقامتك في بني عباس لم تكن بغير فائدة لمجد الله إلى الآن، لقد استفادَ منها الفرنسيون وسكان البلاد، وتأثيرك، اذا ما استمرَّ، لن يكون دون شك الا اكثر فعّالية.

انك توّد ان تستفيد من حضور القائد (ل) الذي قد يختفى قريبًا حسب رأيك -وهذا دون شك اعتبار يجب الأخذ به-ولكني لا اعرف جيدًا ما هي السهولة التي ستكون لديك بالدخول إلى أرض تيديكلت او إلى الهوجار مع الكابتن (م).

وبالفعل، يعرف الجميع ان الكابتن " ميتوا " لن يسمح قط بحضور كاهن على أرضه. والاب غيران نفسه ورفيقه استقبلا استقبالاً سيئًا جدًا في عين

صلاح لدى عبورهما بها. ولكن دون علم الجميع، قد عقد شارل دي فوكو علاقات صداقة مع هذا الضابط.

وتلقى الاخ شارل هذا الجواب في الاول من آب، وكان الجواب سلبيًا ومحبطًا للآمال. فهل يعتبر ان هذا ليس بعدُ جوابًا ؟ ففي ١٢ آب، كتب إلى ابنة عمته : " لقد أهديتُ نفسي... ولكني لم أتلقّ جواب المونسنيور غيران ". وقبل ذلك، كان قد كتب في ١٥ آب رسالته السادسة إلى المونسنيور غيران وهي رسالة قصيرة، اذ ليس له ما يضيفه :

" ان الرسائل التي اضجرتُك بها منذ بعض الوقت اظهرت لك تمامًا ما هي اشواقي ".

ان ما التمسه منك هو السماح فقط بمحاولة الدخول إلى بلاد الطوارق. ولقد قالت لك رسائلي ان فكري ليس التخلي عن مراكش، ولكن ان اعمل خير ما امكنني في الجنوب - اذا أنفتحت امامي الطرق اليه - ريثما ترسل فعلةً آخرين، او ان ينفتح باب نحو الغرب، هذا الغرب الذي هو الآن مغلق امامي.

لقد رأيتَ ان فكرتي هي ان استفيد من هذه الإقامة في الجنوب لكي أعطي الأسرار في مختلف ثكنات الوحدات، مرةً او مرتين في السنة.

وعلى الإعتراض الكبير الذي قدّمه الاب غيران الذي يعتبر ان الفصل غير مؤاتٍ، يجيب الاخ شارل مشيرًا إلى الحروب الحديثة :

" لقد انطلق الكابتن رينيوت من بني عباس في ١٥ تموز، وعاد اليها في ٣٠ تموز، بعد ان سارَ نهارًا وليلاً وشنْ معركة دموية، واخترقت رصاصة سيرَ بندقيته، ورأى سقوط الرجال الخمسة الأقرب اليه جرحى أو قتلى. فترى

ان جنود الأرض والبشر لا يخافون من الفصل[١١]. لنأخذ المثل منهم، نحن جنود الله، ولا ندفع المعلم لكي يقول ثانية : " ان ابناء هذا العالم اكثر فطنة من ابناء النور "... لقد توسلتُ دومًا إلى يسوع الا اعمل في خدمته أقلَّ مما فعلتُه سابقًا من أجل الخلائق...

" لا اقول اني أصر على الذهاب فوراً. ابدا... ولكن ليس ثمة سوى شيء واحد يجب فحصه : في اي وقت يُفضّل الذهاب، لتكميل " عمل الآب ". والذهاب في هذا الوقت، ايًا كان، عاجلاً ام آجلاً... ومسألة درجة الحرارة هي لنا أقل مما للكابتن " رينيوت "... شيء واحد يهم : عمل الله... ".

لذا، حينما سيتلقى جوابًا من لابرّين في ٢٦ آب، سيقرّر الذهاب " بدون تردد " وبدون أن ينتظر جوابًا آخر من أسقفه. ويمكنه الاختيار بين ٥ ايلول و١٥ تشرين الأول. وسيذهب في اول فرصة وهو يطلع المونسنيور غيران على قراره، في رسالة كتبها في اليوم نفسه، وهي توحي كثيرًا بمفهومه العملي والحقيقي للطاعة :

" في هذا الصباح، تلقيت رسالة من صديقي في الجنوب، يقول لي ان كل شيء قد رُتّب مع الكابتن (م)[١٢] وما عليَّ سوى المجيء... وان ثمة خيرًا كبيرًا للعمل، اذ نتعرف إلى هذه النفوس ونحتكّ بها... وانه ينتظرني ويحثني على الانضمام إلى قافلة ٦ ايلول او إلى قافلة ١٥ تشرين الأول (والقافلتان تنطلقان في هذه التواريخ من بني عباس).

لم اتلقّ أي جواب منك... وبما ان السفر ممكن في ٦ ايلول، بفضل القائد

---

(١١) مراسلات صحراوية، ص٢١٣، حاشية ١ : يضع الاب دي فوكو ثلاث مرات خطًا تحت كلمة " الفصل ".

(١٢) هو الكابتن " ميتوا ".

(ل) والكابتن (ر) وبحضور القافلة، سانطلق في ٦ ايلول[١٣].

واذا تلقيت منك لاحقًا الأمر بعدم بقائي في الجنوب، فلن ابقى فيه.

اني لا أذهب بهذه السرعة لعدم الطاعة لك، ايها الاب الحبيب والجليل جدًا، ولكن لأن أكمل طاعة - وهذا جزء من كمالها - تتضمن المبادرة في بعض الحالات.

واذا اذهب بدون تردد، فذلك لاني مستعد لأعود بغير تردّد. فسأعود بالسهولة مثلما انطلق.

اذهب بسرعة، اذ من يعلم هل ما هو ممكن في ٦ سيكون ممكنا كذلك بعد شهر !

[...] ان القوافل لا تضمن الآن كثيرا. وتعلم ان تاغيت قد حوصرت في الآونة الأخيرة، طوال اربعة ايام، من قبل اربعة الاف من البربر[١٤].

اظن اني اعمل الأفضل. واذا اردتَ ان ارجع إلى هنا، فاكتب اليَّ بهذا الشأن. وسأعود بسعادة الطاعة ليسوع : " من يسمع منكم يسمع مني "... وأقرّ بالسعادة العميقة ايضًا ان أجد ثانية بيت القربان، الذي سأحرَم منه بعض الوقت.

ثم يضيف إلى رسالته ملحقًا جاءَ فيه :

" إن كان بالقرب من العسكريين، ام بالقرب من الجميع، سأتبع بدقة توصيتك، ولن أقدم نفسي ابدًا وكأني مرسل من عندك، بل مثل فاعل بمبادرتى الخاصة ".

---

(١٣) هما لابرّين و رينيو.

(١٤) تاغيت ثكنة تقع على مسافة ١٠٠ كم شمالي بني عباس.

١٤- النداءُ الأول من الهوجّار .....

حافظ على سرّية سفري. واقول لذوي بصورة مبهمة اني سـأتغيّب بعض الوقت لأذهب إلى واحة أخرى. واقول لهم، دون أي تفصيل، ان يستمروا في الكتابة إليَّ إلى بني عباس.

أنت والأب هوفلان وحدكما تحيطان علمًا بهذا الامر ".

-١٥-

طاعة ومبادرة

" ان أكملَ طاعة تقتضي المبادرة ". اين تعلم هذا التعريف للطاعة في كمالها ؟ في وسعنا البحث في كتب اللاهوت الأدبي التي درس فيها، ولكنه من الاجدى التذكير بما كان يفكر فيه بعض أصدقائه، في الزمان نفسه، ولاسيما لابرّين الذي كتب إلى الكابتن " رينيوت " :

" رفيقي العزيز، إني أسمح لدي فوكو بالمجيء إلى " تيديكلت "[١]. لا يحق لي ذلك، ولكني آمل ان اتخلص من ذلك، كالعادة، ببعض رسائل من الشتائم والتهديدات من الفرقة، تدعمها جميع المراتب العليا. انه لامر غريب، فان المرء يعتاد على الضربات الموجهة إلى... وهذا لم يعد يؤثر فيَّ تقريبًا. وأخصّص لها إضبارة خاصة في الارشيف، وهذا كل ما في الامر... تكون لطيفًا جدًا ان تقول لي هل لديك توصيات خاصة لدي فوكو، بحيث ينسى لي ان اتخلص من نتائج مبادرتي بالشتائم فقط[٢].

كان يعتقد ان الكابتن " رينيوت " قد تلقى دون شك معلومات لمراقبة دي فوكو او في الاقل توجيهات تتعلق به. لقد اكتشفت بالفعل وثائق في ثكنات اخرى حيث كان يُشار إلى اجتياز دي فوكو، وكانت تؤشر إلى الذي استقبله، وهذا دليل على انه كان مراقبًا.

كذلك " ليوتي " الذي كان قريبًا سيتولّى قيادة هذه الفرقة، كتبَ في آب ١٩٠١:

---

(١) منطقة في عين صلاح، شمالي البحر.

(٢) جورج غوري، الجزء ٢ ، ص٦٠.

١٥- طاعة ومبادرة .....

" آه للمبادرة ! من جميع الفضائل النشطة، هي التي أثمنها اكثر. يا للفرح إذ نلقى اناسًا لا يحسبون الصيغ المثبتة بمثابة عقائد، اناسًا يعرفون، باسم (العقل السليم) والتقدم ان يدوسوا قواعد البيروقراطية[٣].

لا يمكننا ان ننسب روح المبادرة هذا إلى تثقيف شارل دي فوكو العسكري. وهو نفسه سيؤاخذ بعد ذلك الكثير من الضباط على نقص المبادرة عندهم. ومن جهة أخرى، لا يمكن ان نحدد المبادرة بهذا التعريف الذي يمكننا ان نستخلصه من هذه الحالة التي فيها تُحدَّد بأن يسبق المرءُ قرار رئيس. هذه " الفضيلة النشطة " قمينة بأن تجلب نوراً مفيدًا للمزيد من تفهّم معنى حياته. انها مثل علامة مميّزة لشخصيته، كما لشخصية لابرّين وليوتي. ويتوقف الأمر على صفة انسان العمل الحاضر دومًا لكي يعمل ويبدأ بما يبدو له مثل الواجب، وغالبًا واجب ضروري يضطر إلى استباق رأي الرئيس وقراره.

وعلى ضوء هذا المظهر من طبع ارادي، موجَّه إلى العمل، بوسعنا ان نقرأ من جديد حياة شارل دي فوكو كلها، مع ابراز الاوقات التي فيها تُفرض عليه، مثل واجب، ارادة عمل شيء، ولا سيما حينما يتوقف الأمر على ان يصنع هو الأول، شيئًا لم يعمله الآخرون بعد، ولم يستطيعوا عمله او فقط لم يفكروا في عمله. ان هذا مظهر عن شخصيته لا يمكن لشيء او لشخص ان ينتزعه منه، لا عدَم ايمانه، ولا حياته الايمانية، ولا اي نذر للطاعة. عليه ان يحيا كما هو، في مختلف الحالات التي ستضعه الحياةُ فيها.

وهكذا ستكون طاعته أساسًا " خضوع حسّه "، وثقة كبيرة جدًا في الذين سيكون لهم مهمة ومسؤولية قيادته. ان ادارة الضمير اي الإرشاد، الذي غالبًا

---

(٣) هوبرت ليوتي، اقوال العمل، باريس ١٩٢٧، مسرود في كراريس شارل دي فوكو، العدد١ ص١٢٨.

ما سيتكلم عنه، والذي سينصحه للذين يريدون ان يحيوا الانجيل، يجد شرحه في منظور شخص يحتاج دومًا إلى مراقبة وإلى لجام. ولن يكون للمرشد الروحي واقعيًا أبدًا ان يقترح ويدفع ويحث، بل ان يخفف من الحركة دومًا.

ونادرة هي الاوقات التي لم يكن لديه المبادرة فيها، ولكنها اوقات ذات معنى. ويمكننا ان نسرد في هذا الصدد فعل اهتدائه نفسه : فقد قام بمبادرة لم يضطره أحد اليها، إلى مبادرة كان من شأنها ان تكون مسيرة طويلة من البحث والتي فجأة تتلخص في فعل غير متوقع، وغير مبرمج، وقفزة في الفراغ يفرضها عليه الاب هوفلان في كنيسة القديس اوغسطينس. وسيكون ايضًا الحج الذي يرضى القيام بهِ، بعد سنتين، على خطى يسوع في الارض المقدسة. فان هذا الاجراء الذي ليس له مبادرته، سيضعه على درب جديد وشخصي، والذي اكتشفه في شوارع الناصرة، هذا الدرب الذي سيترتب عليه الالتزام بهِ، الدرب الذي لن يكون أحد قد اتخذه، درب يسوع في الناصرة.

نفهم ان فكرًا مخترعًا مثل هذا، المستعد دومًا للتفكير ولإقامة المشاريع والتنظيم، سيكون له ان يعيش شكلاً خاصًا من الطاعة. ويتوقف الأمر على الطاعة لله، ان اعمل ما يريده مني والسؤال سيكون دومًا : " ماذا عليَّ ان أفعل ؟ " وسيكون هذا سؤال حياته كلها، وسيكون له مكوّنان : الواحد " يجب "، والآخر " العمل " و" يجب " يظهر مثل رغبة تتغير إلى واجب وتفرض ذاتها مثل ضرورة داخلية ومطلب داخلي يأتي من اعمق اعماق الكيان، مثل ضرورة لا يمكن للمرء التهرب منها دون ان ينكر ذاته. انها ليست قوة ترغم على العمل من الخارج، بل هي قوة تدفع من الداخل وتثير الرغبة في عمل شيء وتثير المبادرة.

فتكون الطاعة، من جهة، الوسيلة للتأكد من ان الرغبة التي هي فيَّ، هذا " يجب " الذي يفرض ذاته، هي حقًا ارادة الله فيَّ، والتأكد من أني اعمل

١٥- طاعة ومبادرة .....

جيدًا ما يريده الله مني، وذلك بفضل توسط شخص آخر اسلّم اليه قيادتي قائلاً له : " قل لي ارادة يسوع " وعليه ينطبق كلام يسوع : " من يسمع منكم يسمع مني ". شخصان سيقومان بهذا الدور في حياة شارل دي فوكو : الأب هوفلان، بنوع رائع، وبعد موته، سيكون المساعد العام للآباء البيض، الاب فوالارد، هو الذي يختاره مرشدًا روحيًا له. ولكنه تبع ايضًا توجيهات اشخاص آخرين كثيرين، وتلقى الأوامر طوال حياته، سواء في دير السكوتيين مع رؤسائه ومعرّفيه، او في الناصرة مع الراهبات الكلاريات. ان الاشياء الصغيرة في الحياة الرهبانية، وهذا " خضوع حسّه " كما يقول، كان دومًا، اختبارًا، سواءً توقف الامر على قطع الحطب وترتيبه، او الدراسات التي يجب القيام بها، او الاسفار التي تُفرَض عليه، او الاشغال الصغيرة التي يكلّفونه بها. ليس ثمة يظهر اساسًا البحث عن ارادة الله عليه، ولكنه خلال هذا كله كان يبحث عن إخضاع ارادته الذاتية.

وتقع الطاعة من جهة اخرى في العبور إلى " العمل ". انها معادلة بين الرغبة والارادة والعمل. وعند شارل دي فوكو، لن يكون " العمل " احيانًا إلا كتابة، وانجازًا مثاليًا موضوعًا على الورق. وهذا مظهر آخر من طبعه. وفي الاغلب، سيكون نوعًا من الخوف يثيره منظور تغيير يجب تحقيقه في حياته. وبهذا المعنى يمكننا أن نقرأ الجملة المنسوبة اليه : " الخوف علامة الواجب "[٤] وترجمته الانجيلية : " انه لواحدٌ من الاشياء التي نحن مدينون بها للرب يسوع وهو الا نخاف شيئا ابدا ! "[٥].

---

(٤) لقد عُثر على هذه الجملة في الكتابات الأولى للأخوة والقوانين الاولى للحياة. وسُردت للمرة الاولى في مقال للصحفي جان لفرانك، وقد ظهرت في كانون الثاني سنة ١٩١٧ في جريدة الزمان وفي " الوستراسيون ". خلال الكلام مع هذا الصحفي، كان الاخ شارل قد سأله هل كان متزوجا. فأجاب الصحفي بالنفي، وشرح له ان الزواج يخيفه. فكان الاخ شارل قد أجاب إذ ذاك : " ان الخوف علامة الواجب ! ".

(٥) بازان، ص ١٢٧.

وكان للأب لويس دي غنزاغا مفهوم رهباني للطاعة حينما كتب، في ١١ شباط ١٨٩٧، إلى اخيه الاب مارتن، متكلمًا عن الاخ القديم ماري – ألبيريك : " سيستطيع ان يصير قديسًا، واتمنى له ذلك، ولكن حسب هواه، وليس بالطاعة ". من البديهي انه لم يكن له لا الرأس نفسه ولا الطاعة نفسها، لكن في بيت الاب اماكن كثيرة، وعلى كل ان يجد طريقه في الطاعة للأحداث، خلال ظروف الحياة.

انه لمظهر آخر من طبعه، ويجب الاشارة اليه في النهاية، والاعتراف بأن طاقته لمجابهة الحالات الجديدة رائعة. اليس هذا شكلا آخر من الطاعة ؟ وسيعترف المونسنيور غيران في السنة التالية بأن شارل دي فوكو، " مثل جميع الذين يقودهم روح الله، يعرف تقييم الظروف بنوع مدهش ".

عناية اللّه تتكلم واضحًا

في ٢٩ آب، تلقى الأخ شارل جواب المونسنيور غيران المؤرخ في ١٩ و٢١ آب. فبعد الاستشارة بالمونسنيور ليفينهاك، رضخ المدبر الرسولي اخيرًا، على مضض، وقد عبَّر عن تحفظات رصينة. وكتب تسع صفحات لكي يشرح انه، مع ترك الأخ شارل حرًا في الذهاب، لا يبدو له هذا السفر ضروريًا : فقد أُسيء اختيار الوجهة والوقت. معًا :

" ولكن لا اريد ابدًا ان امنعك منه اذا كنت تعتقد، بعد التفكير الرصين في مختلف الملاحظات التي أبديتها بكل بساطة، انك ما زلت مدعوًا من الله للذهاب في هذا الوقت، وان لك السماح الضروري للقيام بذلك.

وأظن انه من الضروري، من الوجهة العسكرية والادارية، ان يعرفوا انك تنطلق من ذاتك، وعلى مسؤوليتك، ولستُ انا الذي أرسلتُك " .

١٥- طاعة ومبادرة .....

ولا يرى الأخ شارل سوى الحرية التي تُركت له لتحقيق مشـــروعه، وهو يكتب في ٣١ آب إلى ابنة عمته :

" ان بريد ٢٩ آب، حمل اليّ ســماح المونســنيور غيران... ولديّ فرصة ممتازة للذهاب : فان قافلة عسكرية تنطلق إلى تلك البلاد. ومن المحــتمل انها تذهبُ من هنا في ١٢ أيلول... [...] لو لم اكن أصدّق بكل قــواي ان كلمات مثل " عذب، صعب، فرح، تضحيــة، ...الخ، يجب ان تُحذَف من مفرداتنــا، لقلت اني حزين قليلا لتغيّبي عن بني عباس : حزين ان اترك بعض الوقــت بيت القربان الإلهي، حزين اذ اشعر بأني اقل عزلة عند قدمي الحبيب، وقــلق بالنظر إلى شقائي وعدم كفاءتي، وانا مثقل بجبانتي وعجزي ".

وفي هذا مطلع شهر أيلول ســنة ١٩٠٣، أكثر من رســائل المونســنيور غيران، الأحداث هي التي ستعيد النظر في مشاريع الأخ شــارل. فقــد جرت معارك، في نحو منتصف ايلول، بقــرب تاغيت. أدرك ان واجبــه يدعوه إلى هناك. وكان مستعدًا للذهاب، وكان يشعر بأن هذا الامر كان يستطيع ان يؤخر سفره إلى الجنوب : " من الممكن ان الهجوم على تاغيت، ســواء بذاتــه أو بالاحداث الناجمة عنه، يُبقيني ههنا او يحملني نحو الغرب "[٦]. لكن القــضية كانت بدون نتيجة، واذ ذاك قرَّر الذهاب إلى الجنوب.

الا ان هجومًا جديدًا شُنَّ في ٢ أيلول على المنغــار الواقعة على مســافة ٣٠ كم من تاغيت. وما إن بلغه الخبر، حتى امتطى صهوة جواده وذهب إلى تاغيت، بدون ان يضيع دقيقة واحــدة، ووصلها في ٦ أيلول، وســيمكث فيها شهرًا بالقرب من الجرحى.

---

(٦) رسائل إلى ماري دي بوندي، ١٩٠٣/٨/٢٢

والرغبة في الذهاب إلى الجنوب تصبح أقلّ إلحـــاحًا. وكتب في ١٠ ايلول إلى المونسنيور غيران :

" ان سفري إلى تيديكلت تعتوره المشاكل الكثيرة. واترك الاحداث تقودني. ولكن يلزم هدوء غير متوقع لكي اذهب. فلا استطيع الابتعاد في فترة تتخللها الاضطرابات ".

وفي ١٥ ايلول، يطرح على ابنة عمته مســألة المبــدأ للمستقبــل : " هل سأكمل لاحقًا مشاريعي للســفر إلى الجنــوب ؟ لا أدري. فأنــا اعيــش يومًا فيومًا ". ومع ذلك، فانه يقول لها في ٢٥ ايلول : " يُقال (والأمر ليس اكيدًا) ان المراكشيين قاموا بغزو صغير في أقصى الجنوب، هناك حــيث كنتْ اريد الذهاب. ومن شأن هذا الأمر ان يدفعني إلى الذهاب اليها ".

الا أنه في ٢٩ ايلول، يتخلى نهائيًا عن القيام بــهذا الســفر، كما كتبَ إلى المونسنيور غيران :

" أفكر في العودة إلى بني عبــاس بــعد يومين او ثلاثة ايام. واتخلى عن الذهاب إلى الواحات، لأن مناطقنا مضطربة جدًا، فلا اســتطيع التغيّب في هذا الوقت... وكل شيء محرق نحو الغرب، حتى يبدو لي انه من الأفضل لي ان أبقى في الأخوّة، حيث اعيش في الصمت والصلاة حياة " أخ صغيــر " عند أقدام بيت القربان.

وفي اليوم نفسه، اخبرَ ايضًا ابنة عمته بــهذا الامر بتعابــير مشابــهة، ثم خلص إلى القول : " سأعيش في الصمت وداخل الحصن حياتي كناسك ".

وهذا بالضبط ما كان المونسنيور غيران ينصحه به، في رســالته المؤرخة في ٢٥ ايلول التي تلقاها الأخ شارل بعد عودته إلى بني عباس :

١٥- طاعة ومبادرة .....

" لا يسعني بالتأكيد الا ان أؤيّد مشروعك بالمكوث الآن في تاغيت او في بني عبـــاس. وكهنوتك أجدى هنا من أي موضع آخر، وذلك دون شـــك لمدة طويلة بعض الشيء. فان العناية الإلهية تتكلم الآن بوضوح : لنبق بين يديها. وحينما يُقتضى اتخاذ قرار مختلف، ستفهمنا ذلك في وقته، ويجب اعتماد ذلك.

لا بدّ انك سمعت ان شائعات تزداد رصانه يوما فيوما، تدور حـــول حملة في مراكش. ماذا ســـينتج منها ؟ لا ادري. ولكن ما يترتب عليك هو ان تظل مترقبًا لهذه الاحداث.

ان اشهر الصيف هذه والصراع الشديد الذي عاشـــه في سبـــيل نيل التأييد لمشروعه الرامي إلى الذهاب نحو الجنوب، والرغبـــة الملِحَّة في الذهاب عند الطوارق، هذه الرغبة التي كانت تبدو بوضوح انها حســـب ارادة الله، ألم يكن هذا كله مثل فاصل زمني في حياة الناسك، وتجربة او فرط من الغيرة ؟

-١٦-

النداء الثاني من الهوجّار
والخطوات الأولى خارج الحصن

بعد صيف سنة ١٩٠٣ الزاخر بمشاريع السفر، وبعد شهر ايلول الذي أُمضي في ناغيت في صحبة الجنود الجرحى، تخلّى الاخ شارل عن مغادرة بني عباس. واستأنفَ في شهر تشرين الاول حياته النسكية " وصار يعيش في الصمت والصلاة حياة " اخ صغير " عند أقدام بيت القربان "[1] واستأنفَ العمل في البستان. انها الحياة التي يفكر ان عليه ان يحياها حتى موته، وحدَه أم مع آخرين. ما الوقت الذي سيستغرقه هذا الامر ؟ ما عدا بضعة اسابيع، لن يستطيع من بعد ان يعيش حياة البستاني هذه بدون نشاطات أخرى، وبدون عمل لغوي، وبدون مشروع سفر، وبدون الاهتمام بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى الآخرين.

في ٣٠ تشرين الأول، فتحَ نفسه امام الأب هوفلان :

" أجل ، ساحاول احتمال ذاتي... اني اشعر فعلاً ان ثمة مللاً، ولا ادري اي نوع من التعب في حالتي... فأقرأ حينما لا استطيع الصلاة، واشتغل بمزيد من المثابرة في العمل اليدوي، وهذا أمر جيد ومتواضع، وهو ناجح عندي. واحاول التعويض بإكمال المحبة نحو الفقراء والفقر، ما ينقص من الحرارة في صلواتي ومن الحرارة في قلبي ".

---

(١) رسالة إلى المونسنيور غيران في ١٩٠٣/٩/٢٩، في مراسلات صحراوية، ص٢٣٠.

ربما يشعر بمزيد من الارتخاء، بعد توتر الأشهر السابقة. ويواصل :

" لأن ارى اني أشيخ وانزل المنحـــدر، فهذا فرح كامل لي، انه بـــدء هذا الانحلال الذي هو لنا أمر جيد [...] فأنا سعيد وهادئ [...] واتخلى نهائيًا عن مشروع سفري واستقـــراري في الجنوب. وبـــعد ان فكرت قـــدر اســـتطاعتي وصليت، اظن اني اكون أجدى للانجيـــل ببقائي في بني عباس، وهي نقطـــة محورية تماما بين مراكش والجزائر والصحراء ".

وهذا هو الرأي الذي عبَّره له المونسنيور غيران في ٢٠ تشرين الأول :

" انت تتكهن بأني أؤيد تأييدًا مطلقًا مشروعك الرامي إلى البقـــاء الآن في بني عباس او تاغيت. هناك مكانك الآن بالتأكيد ! كم أن العناية الإلهية تتكفّل بأن تؤشر لنا في كل ساعة واجبنا الحاضر ".

ويجيبه في ٢ تشرين الثاني :

" إني اتخلى عن الفكرة ومشروع الذهاب والإقامة في " أقابلي ". اظن انه من الافضل ان أظل ههنا، في هذه النقطة المحورية والقريبـــة من مراكش... ولكن اذا لا ترسل كاهنًا إلى الواحات، فسأحاول، في وقت يســـود فيه الهدوء، أن انتهز فرصة لأذهب واعترف في " الغولية ". بتيميمون، وفي الوقت نفسه اوزّع الأسرار في الثكنات الرئيسية من الواحات... وبما انك مررتَ في شهر حزيران، فلا داعي إلى الســـرعة، وسأنتظر حتى الصيـــف، ما لم يكن ثمـــة فرصة مؤاتية جدًا. ان الاتصالات مع الشمال أصعب من أي وقت آخر ".

ولكنه في ٢٤ تشرين الثاني يصبح اكثر إلحاحًا :

" هل تفكر في ان ترسل في هذه السنة، أي في سنة ١٩٠٤، كاهنًا ليقـــوم بجولة في الواحات الواقعة بيـــن توات تيديكلت، ...إلخ ليعْرف الذين يريـــدون

الاعتراف ؟ كـم أوّد القيـام بذلك. كثيـرون من الضبـاط ونواب الضبـاط الصحراويين الذين يجتازون ههنا يعربون لي عن رغبتهم في عدم البقـاء مدة طويلة هكذا بدون كاهن ولا أسرار... وفي حالة عدم ارسالك أحـدًا، هل تجد من المرغوب فيه قليلاً او كثيرًا أو لا، ان أقوم، في وقت ما من سنة ١٩٠٤، بجولة في الواحـات، لكي أقـدّم فيها الأسـرار ؟ (لديّ السـماح العسـكري الاعتيادي)... ولن أذهب اليها إلا مضطرًا بالواجب. فان دعوتي هي الحصن، ولا يترتب عليّ الخروج منه الا سبب قاهر [...].

اترك الأحداث تجري والله يُظهر ما يجب فعله.

الشيء الوحيد المهم الذي عليَّ ان اعرفه هو هل تصرّ على ان اقوم بهذه الجولة في الواحات. اذ ذاك عليَّ ان ارتب الأمور مسبقا مع اصدقـائي الذين في الواحـات. واني أوّد كثيرًا ان ترسـل واحـدًا آخر. لو تعلم كم اني مثل سمكة خارج الماء، حالما اخرج من الحصن ! لست معمولاً لكي اخرج منه ".

خلال شهر تشرين الثاني، يقرأ الاخ شـارل وينقـل جزئيًا الكتاب الصغير الذي وضعه الأب كروزييه : " إلى أعلى ". وفي ٢٨، كتب إلى ابنة عمته :

" غدًا أبـدأ رياضتي السـنوية لعام ١٩٠٤، واستبـق بشـهرين الوقـت الاعتيادي. واذا انا هادئ في هذا الوقت، فاريد الافادة من ذلك، إذ من يدري ما سيكون في المستقبل ؟ ربما أدعى من جديد بالقرب من الجرحـى، او ان أصدّ بشيء ما ".

بالفعـل، في اليوم الأول من رياضتـه، دُعي الى تاغيت لاسـعاف جنديين مصابين بـمرض خطير. فانطلق ليلا، ولم يعد الا يوم الأحـد ٦ كانون الاول صباحا. وما إن عاد حتى استأنف رياضته. وورد خواطره الشخصية في رسالة كتبها إلى الاب هوفلان في ١٣ كانون الاول، وهو اليوم الاخير من رياضته.

١٦- النداء الثاني من الهوجّار .....

وتتضمن هذه الرسالة قسمين. القسم الاول فحصٌ لحياته حيث، حسب العادة، يؤشر إلى مشاعره العامة والسلبية حول شخصه. قضية واحدة فقط تؤشر إلى استعادة وعي ايجابي. انها في شأن طريقة العطاء للفقراء. لقد فهم انه لا يستطيع الاستمرار كما في الماضي. وعلى هذا الصعيد، ستتطور طريقة العمل عنده بمقدار ما يزداد تعرفاً إلى الناس وإلى حياتهم.

اما القسم الثاني من هذه الرسالة فهو تعبير عن المشاعر المعقدة وعن رغبة الناسك اكثر منه طلبًا للمشورة. وخلال رياضته، تلقى رسالة من لابرّين يدعوه فيها إلى الذهاب إلى الجنوب. انه النداء الثاني من الهوجّار ! إذ ذاك نسيَ الاخ شارل جميع مقاصده ومقرراته، ووجدَ ذاته في الحالة نفسها التي كان فيها في شهر آب. وهو يحاول ان يرى واضحًا في نفسه :

" ان لي ايضًا عدم يقين كبير : انه بشأن السفر الذي كنت قد خططتُ القيام به إلى الجنوب. في واحات توات وتيديكلت التي هي بدون كاهن، وحيث لا يحظى جنودنا بقداس ابدًا، وحيث لا يرى المسلمون خادمًا ليسوع ابدًا... تذكر أني حصلت على السماحات الثلاثة منك ومن المونسنيور غيران ومن السلطات العسكرية، وكنت على وشك الذهاب في شهر ايلول حينما استُدعيتُ إلى تاغيت بالقرب من الجرحى. والآن وقد استتبَّ الهدوء على ما يبدو، هل يجب الأخذ بمشروعي ؟ هذا تساؤل كبير لي. واعرف مسبقًا ان المونسنيور غيران يترك لي الحرية. فمنك اذًا اطلب النصيحة. لو كان المونسنيور غيران يستطيع ويريد ارسال كاهن آخر، لما ذهبتُ بالتأكيد. ولكان واجبي الاساسي ان اظل في بني عباس.

ولكني اعتقد انه لا يريد ان يرسل احدًا، واعتقد انه لا يستطيع ان يرسل احدًا. في حين اني من جراء صداقات شخصية، استطيع الذهاب اليها، ومن

المحتمل اني الكاهن الوحيد الذي يمكنه الذهاب اليها الآن، من الآن إلى بعض الوقت، من الآن إلى ان تتغير امور كثيرة مؤسفة.

في هذه الاحوال، الا يترتب عليّ الذهاب اليها، وان اؤسس موطئ قدم، في اقصى الجنوب، ان ساغَ القــول، يتيح لي ان اذهب كل ســنة وأمضي هناك شهرين او ثلاثة أشهر، ثلاثة او اربعة اشهر، وان استفيد من هذا السفر لكي أعطي او في الاقل أقــيم الأســرار في الثكنات، وان أريَ الصليب والقــلب الاقدس للمسلمين وان اكلّمهم قليلا عن ديانتنا المقدسة ؟

الا ينبغي ان اعمل هذا ؟

والأمر لي الآن اسهل ما يكون، اذ انهم يدعونني وينتظرونني هناك.

ان الطبيعة تأبى ذلك إلى حدّ الافراط، وانا أرتعد واخجل عند تفكيري في ترك بني عباس. والهدوء امام المذبح، وان أزجّ نفسي في اسفار اتقــزّز منها الآن إلى أبعد حدّ.

ويُبدي العقل ايضًا موانع كثيرة : ان اترك فارغًا بيت القربــان في بــني عباس، وان ابتعد من هنا حيث قد (وهو امر قليل الاحتمال) تقع حروب، ان أتشتت في هذه الاسفار التي ليست جيدة للنفس، الا أمّجد الله اكثر بالسجود له في العزلة ؟ اليست العزلة وحياة الناصرة دعوتي ؟

وبعد أن يقول العقــل هذا كله، ارى هذه المناطق الشاســعة بــدون كاهن، وأراني الكاهن الوحيد الذي يستطيع الذهاب اليها، واشعر إلى اقصى حد بأني مدفوع للذهاب اليها : إلى الذهاب في الاقل مرة، وبحسب النتيجة وحســب ما تظهر الخبرة، ان اعود اليها او لا اعود.

ورغم ما يعتــرض به العقل، وما تشــعر به الطبيعة من التقزّز من هــذا

الغياب، اشعر بكوني مدفوعًا اكثر فأكثر من الداخل إلى هذا السفر.

هناك قافلة تذهب نحو الجنوب في ١٠ كانون الثاني. فهل أنضمُّ اليها ؟ في هذا الوقت يسهل عليّ ذلك وهم بانتظاري. وهل يجب انتظار قـــافلة اخرى ؟ ربما لن تكون قافلة اخرى قبل عدة أشهر، ولي اسباب تحدوني إلى ان اخشى الا يكون لي التسهيلات نفسها مثل الآن.

أيجب الا اذهب ابدًا ؟

شعوري ورأيي الواضح هو ان عليَّ ان اذهب في ١٠ كانون الثاني.

اتوسل اليك ان تكتب إليَّ سطرًا في هذا الشأن، وسأطيعك.

واذا لم أتلقَّ منك شيئًا حتى ١٠ كانون الثاني، فمن المحتمل اني سأذهب.

واذا تلقيتُ منك كلمة، فسأفعل ما ستقوله لي، مهما كان. فاكتب او أَبــرقْ (بني عباس عن طريق بني اونيف، وهران الجنوبيـــة) وسأطيع كلامك مثلمـــا اطيع كلام يسوع " من يسمع منكم يسمع مني ".

ان هذه الرسالة تظهر تمييزًا ثلاثيًا ربما يسلّط بعض الضوء على كل حياة هذا الرجل الذي يبدو معذبًا والذي ربما نعتقد انه في تناقض أبـــدي مع ذاته. فهو يعارض " الطبيعة " التي تثور، " والعقـــل " الذي يتكلم. ولكن في نهاية الأمر، فإن الاندفاع الداخلي هو الذي ينتصر، اي " الرغبة الحـــية "، اي ما يشعر بأن عليه ان يعمله.

ولا يتـــردد الاب هوفلان فـــي ان يرى " الروح " من خـــلال ما يدعـــوه " الغريزة " التي تملي تصرّف الاخ شارل. " اذهبْ إلى حيث يدفعك الروح " : هذا ما كتبه اليه في ٥ تموز. انه قد اعتادَ هذه المســـائل وليس لديه اي وهم حول قيمة الأمر او النصيحـــة التي في وســـعه ان يســـديها. ولن يجيـــب ابدًا

على هذه الرسالة.

وفي الغد، وهو ١٤ كانون الأول، هناك جملة وردت في رسالة إلى ابنة عمته تؤكد التغيير الذي طرأ : " ليس من المستحيل ان اذهب في نحو ١٠ كانون الثاني، لأقوم بسفر يدوم بضعة اشهر كنت اريد القيام بهِ في شهر ايلول... لكن الأمر ليس اكيدًا بعد ". ولن يتكلم عنه مع اي شخص آخر، ما عدا المونسنيور غيران في رسالة مؤرخة في ١٦ كانون الأول. يجب ان نقابل هذه الرسالة بتلك التي كتبها إلى الاب هوفلان قبل ثلاثة ايام. فالنبرة مختلفة تمامًا، ولا اثر من بعد للتساؤل ولا للتردّد. وليس " للطبيعة " ان تعبّر عن ذاتها، واذا تكلم " العقل " فذلك لكي يدعم ما يشعر القلب ان عليه القيام بهِ.

" تلقيتُ من الجنوب رسالة تقول انهم ينتظرونني هناك... لقد شُفي جميع جرحانا ومرضانا... ويبدو لي ان ساورا وسوزفانا تنعمان بالسلام بعض الوقت... والأحداث المؤسفة في فرنسا تدفعني إلى الاعتقاد انه سيكون من المستحيل عليك ان ترسل هذه السنة كاهنًا إلى الجنوب.

يبدو لي من المرغوب فيه جدًا ان تُقدَّم الاسرار كل سنة لجنودنا في الواحات، ومن المرغوب فيه ايضًا ان يرى مسلمو هذه المناطق، في الاقل من وقت إلى آخر، خادمًا للرب، حتى أرى من واجبي ان انتهز الفرصة المتاحة لي للذهاب إلى هناك الآن، بينما انا حاصل على السماح، وبينما الأمر سهل عندي.

وبحسب ما كتبتم لي انت والاب هوفلان في شهر ايلول، من المحتمل اني سأنطلق نحو الجنوب في القافلة القادمة (في نحو ١٠ كانون الثاني) وانوي الذهاب إلى أقابلي حيث، كما يكتبون اليَّ، يوجد الآن مشغل للسَبر، وان اعمل

لي هناك، بعون الله، موضع اقامة صغيرًا، صغيرًا جدًا، ولكنه يكفي ليتيح لي ان آتي كل سنة وأمضي فيه بضعة أشهر. وهكذا سيتسنى لي ان أقسم وقتي بين أقابلي وبني عباس : منعزلاً ومحصنًا في هذين المركزين (فأمضي مثلاً الصيفَ في بني عباس والشتاء في أقابلي)، وان استفيد من اسفار الذهاب والعودة لكي اجتاز بالثكنات وأرى سكان المناطق.

قلت من المحتمل اني سأنطلق، لأن عوائق غير متوقعة يمكن ان تظهر... وبالاضافة إلى ذلك، فان الاب هوفلان، الذي كتبتُ اليه الآن في هذا الموضوع وطلبت منه جوابًا، يمكنه ان يوقفني برسالة او برقية. وانتَ ايضًا، ابتِ الحبيب، يمكنك ان توقفني، اذا لم يكن برسالة قد لا تصل، ففي الاقل ببرقية.

فكرتُ في استئجار جمل لحمل أغراضي الصغيرة ولحملي انا ايضًا... لي مصلّى محمول (نقّال) حسن التجهيز... هناك شيء له أهمية حقيقية وقد أسهم في ترجيح كفة الانطلاق عندي، هو انه سيكون لي خادم قداس من الموعوظين... انه عبد شاب وقد حُرّر في ٨ ايلول ١٩٠٢، وكان قد أمضى سبعة أشهر في الأخوّة، وتلقى التعليم الديني طوال هذا الوقت، مع الضيافة... كان قد ذهب في نيسان سنة ١٩٠٣، وعادَ في وقت قصير بعد اجتيازك هنا... ومنذ شهر تموز، استعادَ مكانه في الأخوّة، ويتصرف تصرفاً لائقًا، وقد طلب مني من تلقاء نفسه ان يستمر في تلقّي التعليم الديني. فكرتُ في أخذه معي لكي يخدم قداسي ولكي يساعدني في الشؤون المادية ".

لكن على الاخ شارل ان يجيب على رسالة مؤرخة في ١٨ كانون الاول، من المونسنيور غيران. وينتظر إلى الدقيقة الأخيرة. وكتب في ١٠ كانون الثاني، عشية سفره :

" لقد انتظرتُ إلى هذا اليوم لكي اشكرك على رسالتك الابوية إلى الغاية

التي كتبتها في ١٨ كانون الأول، لكي اقول لك اني انطلق إلى الجنوب ام لا انطلق. أجل انطلق. فلا انت ولا الاب هوفلان لم تعطياني رأيًا مخالفًا، ولم اتلقّ شيئًا من أي جهة : فاذهب اذًا، لأن الأمر سهل عليَّ جدًا ان اذهب الآن، اما بعد ذلك فلن يسعنا لا انا ولا انت ان نفعل ذلك.

اذهب في ١١ او ١٢ في قافلة كبيرة وضابط من فرقة صيادي افريقيا لتوات، هو السيد ايفار. وسنكون، بعون الله في ادرار في ٢٥. افكر في البقاء هناك مدة قصيرة جدًا، ثم اذهب دون تأخير إلى اقابلي. وسأذهب وأقوم بزيارة قصيرة إلى عين صلاح، في الوقت الذي يعيّنه لي رفيقي القديم الذي أقيم وزنًا كبيرًا لآرائه. في أقابلي، سأمضي بعض الوقت، بحيث يتم لي الاحتكاك بالناس، وسأنتظر رسائلك. ثم سأنظم حياتي بحسب الأحداث، وقبل كل شيء حسب ما تكتبه اليَّ ".

وأجاب المونسنيور غيران في ٤ كانون الثاني على رسالة الأخ شارل المؤرخة في ١٦ كانون الأول. إن هذه الرسالة لن تصل إلى المرسل اليه الا بعد اسابيع. واذ رأى المونسنيور غيران انه لا يستطيع ان يمنع هذا السفر، يمنح موافقته مع أمل مبهم في ان يرى الظروف تقرّر شيئا آخر. وفي الوقت نفسه، يتخلى عن مشروعه الرامي إلى الذهاب هو نفسه إلى الجنوب، كما كان يقترح ذلك قبل خمسة عشر يومًا.

" انتَ اذًا على وشك الذهاب ربما إلى أقصى الجنوب ! لقد تلقيتُ رسالتك بالبريد الأخير، واجاوب عليها حالا.

اذهب، يا صديقي العزيز، اذا دفعك الله إلى ذلك، ولا يسعني الا ان اكرّر ما قلته لك سابقًا، قبل بضعة اشهر. دون ان ادفعك إلى الذهاب، لا أريد ابدًا ان اضع عائقًا دونه، اذا ما فكرت جيدًا في كل شيء، وفي الظروف

١٦- النداء الثاني من الهوجّار .....

الحاضرة، وتعتقد انك تتعرف إلى نداءِ الله. واني لأبتهج من كل قلبي بالنعم التي يتنازل المعلم الإلهي ويسكبها بخدمتك على جميع هذه المناطق، سواء على سكان البلاد، او على المسيحيين المنعزلين في هذه الثكنات كلها ! [...].

اذا انطلقت، فآمل ان هذه الرسالة سوف تتبعك. وستصلك دون شك في ادرار [...].

ولكن ربما ستظل بالعكس في بني عباس. ليجدك الروح القدوس دومًا أمينًا في اتّباع قيادته ! وهذه هي امنيتي الأخيرة وسأكون دومًا سعيدًا في تكرارها لك ".

وبينما الاخ شارل منشغل بالإعدادات الأخيرة، يمكننا ان نحاول القاء الضوء على الماجريات. سنلاحظ انه منذ شهر تشرين الاول، لم يدر الحديث قط عن الهوجّار وعن الطوارق. وغايته في شهر تشرين الثاني كانت فقط ان يقوم بجولة للمراكز العسكرية. اما في كانون الأول فيختلف الأمر قليلاً. فهو يفكر في الذهاب إلى أقابلي، وان يُهيِّئ له هناك مسكنًا صغيرًا، ثم ان يعود إلى بني عباس. فليس مجرد سفر من بعد، بل هو تأسيس حقيقي ينوي القيام بهِ. وهكذا سيقسم وقته بين بني عباس وأقابلي.

وفي كانون الثاني، مع إعداد حقائبه لسنة كاملة، ينوي الوصول حتى عين صلاح، والذهاب إلى أقابلي حيث سينتظر بقية الأحداث. وهذه البقية تظل سرية لنا وستمليها نصائح صديقه القديم وأوامر المونسنيور غيران. وسيترتب علينا الانتظار ايضًا لكي نعرف هل ان هذا الذهاب جواب على ما أسميناه " النداء الثاني من الهوجّار ".

الا انه من اكبر الاحتمال ان الاخ شارل كان يعرف بالعموم ما كان سيحدث خلال هذا السفر. وللتحقق من ذلك، تنقصنا رسالة لابرّين، ولكننا نعرف من جهة اخرى ان هذا الأخير كان يُعدّ جولة كبيرة بدون ان يكون قد

حصل على الرخص الضرورية. وما كان يجب خاصة ان تعلم بها السلطات العليا. ومن ثمة السر والصمت المطلق اللذان يلتزم الاخ شارل بهما في مراسلته التي ربما كانت تُقرأ بصورة فضولية. وهذا يشرح لنا، جزئيًا في الاقل، موقفه تجاه المونسنيور غيران إذ لا يستطيع ان يطلعه على بعض المعلومات. وهو على وعي بأنه هو الوحيد الذي يقدر ان يفعل ما سيقوم بهِ، ويعلم انه لن يُسمَح لأي من الآباء البيض ان يقوم بهِ.

اخيرًا، اذا لا نجد من بعدُ ذكرًا للهوجار والطوارق، فما ذلك الا للسبب نفسه. فهو يتكلم فقط عن أقابلي التي يعتبرها نقطة انطلاق للذهاب إلى أبعد. وتكفي قراءة رسالته المؤرخة في ٢٢ تموز والموجهة إلى المونسنيور غيران للتحقق من ان الامر يتوقف على المشروع نفسه.

واذا كان " النداء الاول من الهوجار " قد أطلعنا بنوع أفضل على ماهية ممارسة الطاعة للأخ شارل، فإن " النداء الثاني من الهوجار "، اذ يكمل هذا الاكتشاف الأول، يُدخلنا إلى سر دعوته. وهذا سؤال صعب. فهل دعوته هي العزلة والحصن، كما يكتب ذلك ويصدّقه ؟ ان الصمت والرياضة وعدم النشاط، التي تُنشئ لديه الملل والاستيطان هل يكون هذا طريقه ؟

ام هل يكون طريقه، على النقيض من ذلك، باتباع رغبته ؟ وهل يكون في الجواب على جميع النداءات التي تأخذ له قوة أمر من الله ؟ وهل انه يبحث عن ملجأ في الحصن، ام هل ان هذه الرغبة في الذهاب إلى موضع آخر هو تهرّب. وكيف التمييز بين ما هو واجب في هذا الوقت بالذات عما ليس سوى ذريعة ؟ فيبدو لنا الاخ شارل في غمرة البحث بسبب هذه التساؤلات كلها. عليه ان يختار، ولكن حسب اي معايير سيختار ؟

في ١٣ كانون الثاني ١٩٠٤ صباحًا، يغادر الأخ شارل بني عباس. ويكتب

في كراسه ما يأتي :

" ليس لي اي جواب لا من الأب ولا من المونسنيور غيران في شأن سفري إلى توات وتيديكلت، ...الخ وفي هذا الصباح، تنطلق قافلة نحو هذه المناطق. لدي امكانية الذهاب اليها، وربما لن تتوفر هذه الامكانية لأي كاهن آخر مدة طويلة، من الآن إلى سنوات عديدة. فاظن ان واجبي يحتم عليَّ الذهاب. في هذا الصباح، آخذُ القربان المقدس من بيت القربان. وانطلق في الساعة الثامنة شطر أدرار عاصمة توات، سيرًا على الاقدام، مع الموعوظ بول لكي يخدم قداسي، وحمار يحمل ما يلزم لإقامة القداس مدة سنة تقريبًا ".

وقد وضَّحَ الأمر في الرسالة التي وجَّهها إلى المونسنيور غيران في ١٠ كانون الثاني :

" أنطلق مع الزنجي الصغير الذي عمره ثماني عشرة سنة والذي كلمتك عنه[٢]، لكي يخدم قداسي، واثنان تحمل المصلى والمؤونة. اما الجحش فلا يحمل شيئًا، ومعي صندال جديدة وزوجان من الأحذية القماشية وتتكون القافلة التي أتبعها من خمسين رجلاً مسلحًا. سأحاول السير مثلهم. واذا لا استطيع ان اتبعهم. فسأعمل مثل الجنود الخاملين، فاطلب ان يحملوني من حين إلى آخر على ظهر جمل من القافلة ".

ويولي الاخ شارل اذ ذاك أهمية كبيرة للسير على الأقدام. فاننا نقرأ في رسالته المؤرخة في ٣ حزيران ١٩٠٣ إلى المونسنيور غيران :

" البارحة، زيارة طويلة من رجلين من تغيلالت، انهما مرابطان، وقد سمعا الحديث منك، وسألاني هل كنتُ قد ذهبتُ إلى تغيلالت. - كلا ! سيذهب اليها

---

(٢) ويسمى بول مبارك.

مرة اخرى ! [...] وهل يسافر سيرًا على الاقدام – كلا بل على ظهر جمل. وهذا السؤال الذي وجّهه هذان الرجلان حملني على التفكير... هم يسيرون على الاقدام، ويقودون حميرهم... نحن تلاميذ يسوع، ونريد ان يحيا يسوع فينا، " المسيحي مسيحٌ آخر ". ونحن نتكلم دومًا عن الفقر. أما هم فتلاميذ محمد : ان سؤالهم يجعلني أفكر كثيرًا "

انه كان مثل أَسَف او توبيخ خفي في غداة اجتياز هؤلاء الآباء الطيبين الذين كانوا يسافرون على الجمال. وفي الوقت الحاضر، باسم الفقر المقدس، يتمسك بالسير على الاقدام، لأن ذلك أكمل بالتأكيد. ولكنه لن يتأخر في تبني وجهة نظر أقل كمالية وأكثر واقعية. ولكن لهذا القسم الاول من السفر، لا صعوبة في الامر، لأن المراحل قصيرة : من ١٥ إلى ٣٢ كم بصورة استثنائية، كما جرى في هذا اليوم الأول.

حينما ترك الخلّية المزدحمة " لأخوّته " لكي يتقدم في الصحراء الشاسعة، هل تراه يدخل إلى ملكوت الصمت والمطلق حيث يتسنى له الالتقاء بالله ؟ من الصعب ان نجد آثار هذه الافكار في " الكراس " او في الرسائل. سنجدها عند بسيكاري او آخرين، ولكن لنحذر من نقلها إلى شارل دي فوكو، كما فعل البعض ذلك بسهولة. انه يحب العزلة، ولكنه يعلم انه ليس من الممكن ان يجدها في سفر ضمن قافلة. فالمسيرة في الصحراء ستكون له دومًا وقتًا " للخدمة "، وهي الحياة التي يشعر بكونه مدعوًا اليها. انه لا يحب الأسفار، ويحلم بحياة شبيهة بحياة المجدلية في " سانت بوم "، وهو مثل أعلى يتجرأ ويسميه " دعوته ". ولكنه اذ يعمل الآن ما يعتقده انه ارادة الله، يقوم، بدون علم منه ولا تفكير، بالتمرّس على الحياة مع الله، وهو يتقاسم حياة البشر.

وفي رسالة وجهها في ٢١ كانون الثاني إلى أبنة عمته، وصف بسذاجة

١٦- النداء الثاني من الهوجّار .....

خبراته الأولى :

" ان سفري يتواصل جيدًا... لقد استطعت حتى الآن ان اقيم القداس الإلهي جميع الأيام... والقى العديد من القرى المحلية ويستقبلونني استقبالاً حسنًا... في نظري، ليست الأدوية والصدقات إحسانًا زمنيًا بل احسان روحي بخاصة : انه وسيلة للدخول في علاقات صداقة جيدة مع سكان البلاد، ولكسر الجليد، ولكي اضعهم في الثقة والصداقة معي. ولدى وصولي إلى كل قرية، اطلب ان يدلّوني على افقر اربعة او خمسة اشخاص اعطيهم صدقة صغيرة، واخبر جميع المرضى اني في خدمتهم لكي اعطيهم ادوية. وهذا امر نجح نجاحًا جيدًا حتى الآن. فلقد اعطيتُ في هذه الايام الثمانية من الادوية اكثر مما اعطيته مدة سنتين في بني عباس حيث مع ذلك كنتُ أعطي كل يوم لكثيرين... ".

وفي وسعنا ان نتبع الاخ شارل طوال سنة السفر هذه، بفضل يومياته التي نشرت في " كراس بني عباس ". فهو يطلعنا على المسافات التي قطعها، وعلى الاماكن والقرى التي زارها، والمواضع التي رقدوا فيها، ونوعية الماء والمراعي، والاشخاص الذين التقاهم وهذه الملاحظات اليومية تتحول احيانًا إلى اعتبارات تاريخية او جغرافية، وغالبًا إلى تأملات روحية.

في ١ شباط، التقى القائد لابرّين في ادرار، وأقام اسبوعًا في هذا الموضع. وتلقى هناك الرسالة التي كتبها اليه المونسنيور غيران في ٤ كانون الثاني، فأجابَ عليها في ٩ شباط :

" أنا مسرور، أبتِ الحبيب، لكوني جئتُ إلى ههنا. اذ يبدو لي ان هذه الجولة الصغيرة قد فعلت خيرًا لمسيحيين كثيرين، وآمل ايضًا لسكان البلاد، سواء لسكان ساورا او لسكان الواحات... ولا آسف لهذا السفر، بل انا متأكد اكثر فأكثر ان الله كان يريده. فأشكره على أنه جعلني أحسُّ بارادته، واتوسل

اليه ان يجعلني أمينًا ".

ثم يتكلم عن مشـــاريعه للاسابيع المقبلة. وفي هذا اليوم نفسه، قـــال ايضا لماري دي بوندي :

" انا مسرور جدًا من سفري. وما اراه يبرهن لي بوضـــوح انه كان عليَّ ان اقوم بهِ. واشكر الله واتوسل اليه ان يجعلني أمينا، وان احقـــق الخير الذي يريده... [...] قولي للأب (هوفلان) اني مسرور. واني ابارك الله، وان ثمـــة عملاً اكثر مما كنتُ اعتقده، اكثر بكثير مما كنتُ افكر فيه : ولكن ليصلِّ إلى يسوع لأكون عاملاً صالحًا ".

هذه الانطباعات تكمل انطباعات لابرّين الذي كتب إلى الكابتن رينيوت في ١٩ شباط :

" دي فوكو بصحة جيدة، وهو يشتغل بثبات في اللغة الطوارقية. لا بدَّ انه الآن في عين صـــلاح وآمـــل ان اراه في أقابلـــي حيـــث سيسكن في البيـــت المصادَر من أغ كِرّاجي[٣] (رئيس طوارق طايتوق) لكي يدرس اللغة الطوارقية بعيدًا عن الاوربيين.

لقد وعدتُه بأني سآخذه في جولة، واذا رأيته متفاهمًا مع الطوارق، سأتركه. آسف كثيرًا انه لم يأتِ قبل ١٥ يومًا، لكان رأى موسى أغ اماســـتان في عين صلاح، ولكان ربما يستطيع الذهاب معه.

احلم في إقامته اول خوري للهوجّار، وكابلانيا لموسى، وربما رئيس قـــرية تاجمرت التي ستتشكل من الأسرى الذين تحت حماية الطوارق وحمايتنا.

---

(٣) هو سيدي أغ أكاراجي.

١٦- النداء الثاني من الهوجّار .....

دماغُهُ يشتغل، ولكنه يفهم حسنًا ان كل حلم يجب ان تسبقــه معرفة اللغة. العربية هي العدو التقليدي، ونحن العنصر المزعج والمجهول، ولكنهم يبغضوننا أقل من " شامبا ".

مَنْ يعش يرَ. في جميع الاحوال، كنت سعيدًا جدًا ان اعيش ثانية بــضعة ايام معه. اننا نلقى فوكو مراكش، وجهًا إلى وجه امام حــياة المجازفة، وهو يأسف على انه بلغ الســتين من عمره، وينقــل خرائط، ...الخ وانا متاكد انه سيجد وقتًا ما بين الصدقات وتوزيعات الأدوية والصلوات، لكي يقوم بدراســة مهمة جدًا للبلاد وللانسان (للطوارق ولأسيره).

واذا لم تسمح لي جولتي بتركه في بلاد الطوارق، فاني سأتركه في أقابلي، او في معسكر تيديكلت، ولكنــي أفضّل ان يكون بعيدًا عنا، وان يعتاد النــاس رؤيته غير محاط بسلاح "[٤].

ومنذ اليوم الاول، شرح لابرّين لصديقه الحــالة الناجمة عن خضوع ثلاث من القبائل الست الكبيرة التي تشكل شــعب الطوارق. وكتب الاخ شــارل في كراسه، في ١ شباط سنة ١٩٠٤ ما يأتي :

" ان هذه الاخبار خطيرة جدًا، لانها تظهر بــلاد الطوارق كلها، المنغلقــة حتى الآن كثيرًا للمسيحيين، تنفتح انطلاقًا من اليوم. فالقائد لابرّين مســتعد من كل قوته لتسهيل دخولي اليها، واسفاري، ومكوثي فيها. وهو يعرض عليَّ من تلقاء نفسه، ان أرافقــه في الجولة القادمة التي ينوي القيام بها، بيــن رعاياه الجدد في أهنِت وادرار والهوجّار [...]. ربما ان القــائد لابــرّين، في جولته القادمة التي ستبتدئ بعد ٥ أو ٦ اســابيع، سيبلغ إلى تومبوكتو [...]. اعطاء

---

(٤) ليون لهورو، في الصحراء مع الأب شارل دي فوكو، باريس ١٩٤٦، ص٥٣.

أدوية، وبالمناسبة اعطاء بذور الخضراوات، والصدقات عندما يكون مجال لذلك. هذه هي، حسب القائد لابرّين، وحتى معلومات اضافية، طريقتي للدخول في صلة معهم. ولكن خاصة ان اتعلم لغتهم. المكان الافضل لدراسة اللغة الطوارقية (تماهاق) هي بلدة أقابلي، حيث السكان كلهم يتكلمون هذه اللغة وحيث تتواجد كل حين قوافل للطوارق. فمن المقرر ان اذهب اليها وادرس فيها اللغة الطوارقية من كل قواي، إلى ان يأتي القائد لابرّين بعد بضعة اسابيع ويأخذني لكي اتبعه في جولته ".

وترك الاخ شارل ادرار في ١٠ ووصل إلى عين صلاح في ١٦، وتركها في ١٨ لكي يصل إلى اقابلي في ٢٠. وسكن كما كان مقرراً في منزل أغ أكاراجي المصادَر. ولكن ماذا يعني " سكنَ " في هذا السياق ؟ هل يتوقف الأمر فقط على وضع القربان في بيت القربان، كما فعل منذ اليوم التالي ؟ او هل ان ذلك يعني الفرح بوجوده في بيته في اي كوخ كان، بعد ٤٠ يومًا من الحياة المتنقلة ؟ كلا ! فثمة شيء آخر، وهو يكشفه لابنة عمته في رسالة كتبها اليها في ٥ آذار جاءَ فيها :

" انا مسرور دومًا... وبين طيبات اخرى، لي شيء كنت اطلبه من يسوع منذ مدة طويلة، وهو ان اكون، محبة بهِ، في ظروف مشابهة في الرخاء لتلك التي كنتُ فيها في مراكش لأجل لذتي... فهنا، السكن هو الشيء نفسه... ".

ولكن ماذا من صريفة الأدوات في بستان الراهبات الكلاريات في الناصرة، ومنسك اورشليم، وصومعة دير سيدة الثلوج ؟ أليس هذا كشفاً مهمًا يفعله لنا ههنا، اذ جعل نسبية الاوقات النسكية التي عاشها في السنوات السابقة. وكان فعلاً قد تذَّمرَ في دير السكوتيين : " نحن فقراء بالنظر إلى الاغنياء [...]

ولكني لستُ فقيرًا كما كنتُ في مراكش "[٥].

ولكنه لم يلق " سانت بوم " في هـذا المكان. لكنه لم يعد يفكر في هـذا الامر. وفي ٣ رسائل كتبها إلى ابنة عمته كشف فيها عن دوافعـه. ففـي ٩ شباط، كتب : " انه مركز سأشعّ منه ". وفي ٢١ شباط، كتبَ : " هنا يتوفر لي العمل، فسأسكن في هذا الموضع بعض الوقت ". وفـي ٢٧ شباط كتبَ : " غالبًا ما توجد ههنا قـوافل من اهالي الجنوب، وهذا ما يجعلني اقـيم ههنا، لأن في وسـع المرء في موضـع العبور هذا، ان يحقق بعض الخيـر لجميع الرائحين والغادين ".

وهذه العبارات تعرب بلغة زمانه عن اهتمامه الرسولي. ولكنه في الحقيقـة ليس ههنا لكي يهتمَّ بالعابرين. فقد أُرسـل إلى هذه القـرية، حـيث لا يوجد اوروبيون، لكي يستطيع ان يتعلم لغة الطوارق. ونقرأ في كراسـه، في تاريخ ٢١ شباط ما يأتي :

" انطلاقًا من اليوم، بدأتُ بتلقي دروس لغة تماهاق على محمد عبد القادر، وهو رجل من ستّاف سافر طويلاً عند الطوارق[٦] وسكن في تمبوكتو ".

وهكذا يبدأ ما سيكون مـن الآن عمل حياته الرئيسـي. فلو كان يعلم إلى اين سيقوده الطريق الذي سـارَ عليه، لربمـا تردَّد. ولكنه بعيد عن تصوّر ما سيجري بعد ذلك. ورأينا ان لابرّين كان أدرى بذلك منه، ولكنه يحذر من ان يكلّمه عن الأمر، ويكتفي بأن يثمّن واقعية الراهب الحالم التي تتجسـد بارادة الفعالية وبمثابرة على الشغل ما تزال تنتزعان منا الإعجاب !

---

(٥) رسائل إلى الأب هوفلان، رسالة في ١٨٩٠/١٠/٣٠.

(٦) يكتب كلمة الطوارق بالفرنسية (touareq) بدون س في آخرها. وطوارق مفردها طارق. ولكنه سرعان ما يتخلى عن هذا الاملاء ويتبنى الكلمة المستعملة : الطوارق، واللغة الطوارقية..

وهـو يستخدم لغة اخـرى للتحدث في هذا الموضوع إلى ابنة عمتـه في ٥ آذار :

" ان شـعوب هذه المنطقة، مثل شعوب مراكش، تتكلم اللغة البربرية اكثر من العربية. والبربرية لغة قديمة من شمال افريقيا وفلسـطين، تلك اللغة التي يتكلمها القرطاجيون، لغة القديسة مونيكا التي اسمها البربـري، وليس اليوناني، يعني " ملكة ". انها لغة كان القـديس اوغسـطينس يحبـها، لأنها كانت لغة والدته، كما يقول في اعترافاته. كنتُ قد تعلمتها في الماضي ولكني نسـيتها. فبدأتُ استعيدها قليلاً لكي استطيع التحدث إلى الجميع ".

وانتهت إقامته للشغل في أقابلي في ١٤ آذار. ونقرأ في كراسه :

" الانطلاق من أقابلي مع القائد لابرّين لكي ارافقـه في جولته. ونيته هي ان يزور الشعوب الخاضعة حـديثًا، والوصول إلى تومبـوكتو... ومسـيرتنا المحـتملة سـتكون، عين زير، أهنت، ادرار، تيميمون، اتّاليا، تومبـوكتو، ثم العودة عن طريق ادرار والهوجّار... واذا كانت الافكار ملائمة، فان فكرنا هو انهم سيتركوني، في العودة، عند الهوجّار، واني سأستقر هناك ".

ولكن، في ١٦ أيار، لكي يتجنب في تيميمون مجابهة فصيل فرنسي قادم من تومبوكتو، قرَّر القائد لابرّين ان يعود إلى الهوجار. ويدرس الاخ شارل امكانية إقامته في " سيلت " او ابالسّا او تيت. ولكنه يكتب في كراسـه في ٢٨ أيار : " خوفًا من بعض الفرنسيين اكثر من خوفه من الطوارق، لا يسمح لي لابـرّين الآن بالبقاء في تيت ولا في موضع آخر في الهوجّار. وسنرى بعد ذلك ".

في ١٤ حزيران، اختار الاخ شارل، عوض الصعود مع لابرّين، البقاء مع ليوتنانت روسّل الذي سيُمضي عدة اشهر في شمال الهوجار. وخلال شـهري

حزيران وتموز يشتغل الاخ شارل في ترجمة، الاناجيل إلى لغة تماهاق.

وعادت القطعات التي يقودها روسل إلى عين صلاح في ٢٠ أيلول. وبعد يومين، انطلق الاخ شارل، مع جندي كدليل، إلى ادرار وتيميمون وإلى الغولية. وبلغ إلى غرداية مع المونسنيور غيران الذي جاء ليستقبله في متليلي في ١١ تشرين الثاني. وطوال اكثر من ستة اسابيع، كان الاخ شارل يتقاسم حياة البيت، ويصلي وينعم بالصمت ويقوم برياضة تدوم تسعة ايام[٧]. ومع المونسنيور غيران، وصل إلى هذه الخلاصة، وهي انه ليس معمولاً للأسفار، بل بالعكس للاستقرار في موضع ما، اذًا للعودة إلى بني عباس. فوصلها في ٢٤ كانون الثاني، بعد سنة و١٢ يومًا من السفر. وهو تعب جدًا بالمسيرات الطويلة[٨] والعمل المنجز[٩]. لقد قرَّر الا يخرج من بعد من هذا الحصن حيث يريد الانحباس ليكون أمينا لدعوته، ومع ذلك، فإننا سنلقاه من جديد في الهوجّار بعد بضعة أشهر. لِمَ هذا التغيير ؟ لكي نفهم علينا ان ننظر عن كثب إلى الحقبة التالية.

---

(٧) وحيد مع الله، ص١٥٣-١٩٨.

(٨) ٥٩٩٤ كم سيرًا على الاقدام او على ظهر جمل في مدة ٣٧٧ يومًا.

(٩) دراسة مكثفة للغة تماهاق، وعنايات مبذولة للناس الذين يلتقيهم وللعسكريين من الحماية، خارطات للمسيرات، كتابة يوميات مع ملاحظات غزيرة لحفظ ملاحظاته (مشاهداته)، مراسلة، لا سيما ١٥ رسالة إلى المونسنيور غيران و٢٠ رسالة او بطاقة إلى ابنة عمته.

-١٧-

النداء الثالث من الهوجّار

من ٢٤ كانون الثاني إلى ٣ أيار سنة ١٩٠٥

سنتبعه يومًا فيومًا في هذه الايام المئة التي امضاها في بني عباس، ونحاول ان نفهم ما يجري فيه، وان نحلّل ظروف هذا التغيير في التوجّه. وهذه الفترة تشكل كلاً، ولكننا نستطيع ان نقدّمها بسهولة في زمنين : اولاً الشهران الاولان الموسومان بالتعب، ثم الايام الاربعون الاخيرة التي كان فيها بصحة فضلى.

وما إن مـــرت ثلاثة ايام على عودته إلى بني عباس، حتى علـــمَ بوصـــول " ليوتي " الذي أقبل بصورة مفاجئة، ولن يظل سوى ٣٦ ساعة. ولكنه في هذه الإقامة القصيرة، ستتاح له الفرصة ليلتقـــي مرات عديدة الاخ شـــارل، الذي لا يعرفه بعد الا بوساطة زوج اخته، وهو ريموند دي بليك، وابن عمه وهو لويس دي فوكو، وهما من معارفه القدامى.

وحينما جاءَ ليوتي إلى مقرّه في عين الصفرا كجنرال قائد الكتيبة، وذلك في الأول من شهر تشرين الاول ١٩٠٣، ما كان يسعه الا ان يقلق بشأن حضـــور شارل دي فوكو على اراضيه. فهذا الكاهن لم يكن مجهولاً لديه، وشهرة قداسته كانت قد انتشرت انتشاراً واسعًا في القطاع. ولكن، على عكس ما كان يفكر فيه الاخ شارل [1]، فان ليوتي لا يحـــب كثيرًا هؤلاء المرسَلين الذين يثيرون الكلام حولهم. وقد وصلتنا بعد مدة اقوال لأحد اقربـــائه وهي ذات معنى ينمّ عن عدم

---

(١) " لا بدَّ ان اقامته في مدغشقر أطلعته على خدمات المرسَلين. من المحتمل ان تجد فيه سندًا "، رســـالة إلى المونسنيور غيران في ١٩٠٣/١١/٢٤، راجع، مراسلات صحراوية، ص ٢٣٦.

ثقته آنذاك. وسيكون قد قال : " ليعيدوا هذا الكاهن القصير إلى فرنسا، فانه يهدم اسس سياستي تجاه سكان البلاد ". وكان ليوتي قد حدّد سياسته المحلية منذ سنة ١٩٠٠ في مقال عنوانه " الدور الاستعماري للجيش ".

انه رجل يريد ان يكون " ذا فكر حـــر من الوجهة المذهبـــية "، وهذا يعني انه سيُظهر دومًا احترامًا عميقًا لديانـــة الآخرين. فنعرف مثلا انه في الأبيض ســـيدي شيخ، في القبة التي دُفن فيها سيدي شيخ، مؤسس الاخوية، سيشعر باحســـاس من حضور فائق الطبيعـــة قوي مثل شـــعوره في مصلى بني عباس. الم تكن الغيـــرة الرسولية عند دي فوكو تذهب في اتجاه معاكس لهذا الانفتاح ؟ كان يجب ان يتحقق من الأمر هو بذاته. ولكن في ذلك الوقت، كان راهب بني عباس قد ذهب ليلتحـــق بلابرّين للقيام بحملة لم تكن بغير ان تطرح معضلات. فكان اذًا قـــد ارجأ زيارته إلى وقت لاحق. وقلّ ما يعـــرف ليوتي لابرّين، هذا المرؤوس ذا الروح المســـتقلة المشابهة لروحه إلى حد كبير. وكان هذا سبب اضافي لكي يقلق بشأن الدور الذي يلعبه شارل دي فوكو في هذه الجولة.

ولم تكن زيارته لبني عباس بالاحرى عن طريق المصادفة. والمحـــادثات التي أجراها مع الاخ شارل المتواضع لابدَّ انها طمأنته، وستنشأ صلة قوية بين الرجلين، صلة الثقة والتقدير المتبـــادل، في الاحترام لاختلافات الرسالة. بعـــد ذلك، سيذكر ليوتي القداس الذي حضره يوم الأحد ٢٩ كانون الثاني مع جميع الضباط :

" ان هذا المنســـك كوخ، ومُصَلاّه ممرٌّ بائس بعواميد، ويغطيه القصـــب ! ودفةً بمثابة المذبح. وزينته لافتة من القماش مع صورة للمسيح، ومشاعل من القصدير الأبيض ! وكانت ارجلنا على الرمل. ولكني لم ارَ قط قـــداسًا أُقـــيم مثلما كان الاب دي فوكـــو يقيمه. كنت أظننـــي في طيبـــة. انـــه احد اكبـــر الاحاسيس التي اختبرتُها في حياتي "[٢].

(٢) جورج غوري، على آثار شارل دي فوكو، ليون ١٩٣٦، ص١٨٧.

من البديهي ان ليوتي تأثر بالراهب وكذلك بالانسان. وقد أحبه كما أحبه معظم الذين التقوه. ولن تبدأ المراسلة بينهما الا في سنة ١٩٠٨. وللأسف فان رسائل ليوتي، المهمة دومًا، ضاعت كلها، بما ان شارل دي فوكو لم يكن يحتفظ بالرسائل التي يتلقاها، ولم يجدوا سوى سبع من الرسائل الاحدى والعشرين التي كتبها إلى ليوتي.

ويجب ان نتكلم ايضًا عن لابرّين. خلال الاشهر التي امضياها في حياة مشتركة في التنقل في الصحراء، نشأت بينهما صداقة متينة جدًا. فوكو يحترم لابرّين في مذهبه اللاأدرية ولابرّين يحترم تعبدات الراهب. ويعرف ان يفهم دعوة الأخ الشامل، ولكنه يعرف ايضًا ان يستخدم كفاءاته وقوة توطيد السلام التي يمثلها تواضعُ صديقه وارادته في الاخوّة ان معنى الخير المشترك والاهتمام العام الذي يكتشفه فوكو لدى لابرّين سيكون الركيزة الثابتة لشراكتهم في الفكرة، في وحدة نظرة كبيرة على طريقة تسهيل تقدّم البلاد. وثقة تامة ومتبادلة ستطبع صداقة فريدة تأتي على رأس جميع علاقات الاخ شارل. وستُترجم في مراسلة متواصلة (اكثر من ٢٣٠ رسالة في مدة ١٤ سنة !) بمعدل رسالة واحدة في كل بريد في السنوات الاخيرة، اي كل خمسة عشر يومًا، كما كان يفعل لابنة عمته ماري دي بوندي.

في الوقت الحاضر، يكتب لنفسه ويستنسخ للمونسنيور غيران وللاخت اوغسطينة، رئيسة الراهبات البيض في غرداية، ما قد حفظه عن المحادثات مع صديقه لابرّين في شأن تأسيس مسكن للآباء البيض وللراهبات البيض في الجنوب. ونبقى مندهشين امام سذاجة مشاريع رجل يميل إلى اعتبار احلامه حقائق، وإلى الاعتقاد ان المستحيل هو في متناول الذين يريدونه حقًا. ويكتب وكأن للآباء البيض والراهبات البيض اشخاصًا قادرين على تأسيس مراكز في كل مكان من الجنوب، ليستفيدوا من استعدادات لابرّين الطيبة الذي لن يكون دومًا في هذا الموضع. في رسالة إلى المونسنيور غيران، لا يذكر الانتقادات التي يتعرض لها الآباء البيض

في الأوساط العسكرية. فيؤاخذونهم على أنهم عادة مصدر إزعاج للسلطات، وانهم يقترفون اموراً خرقاء، وانهم يتدخلون في ما لا يعنيهم. اما الأمر فمختلف جدًا فيما يتعلق بالراهبات، اللواتي يُستقبلن دومًا بارتياح.

واثناء هذه الإقامة في بني عباس، سيتلقى الاخ شارل ايضًا زيارة نائب لابرّين، وهو الكابتن " نيجر " الذي يعود إلى فرنسا على اثر وفاة والده. هو ايضًا صار " صديقًا حقيقيًا وحبيبًا " خلال مسيرات السنة السابقة. " انه شاب (له ٣٣ سنة) ولكني احبه واقدّره تقديرًا خاصًا[٣] ". وطلب منه ايضًا ان يذهب ويزور مدام دي بوندي، وهذا امر لا يفعله الا لأصدقائه الصادقين. وللأسف فان نيجر لم يحتفظ سوى بثلاث رسائل من نحو مئة رسالة تلقاها وإحداها مكتوبة عشية موت الأخ شارل.

وهناك ايضًا جميع الضباط الذين ارتبط بهم والذين ليسوا ثمة من بعد، مثل الكابتن رينيوت " الصديق الأعز بين الجميع "، " الصديق والاخ الذي لا يعوّض ". ولدينا ايضًا سلسلة من رسائل مكتوبة إلى الضباط الذين التقاهم في هذه السنة الماضية، ولا سيما اليوتنانت بريكون الذي يترتب عليه شكر ابدي نحوه لأجل هدية الخيمة التي استطاع تحتها ان يقيم القداس كل يوم اثناء الأسفار. وسيموت هذا الضابط في الجبهة، صريعَ قذيفة في سنة ١٩١٦. وسيكتب الاخ شارل إلى زوجته، بضعة ايام قبل موته هو، الرسالة الاخيرة من رسائل التعزية العديدة والجميلة التي كتبها رجل ينبض قلبه في صداقاته[٤].

وثمة علاقة اخرى مختلفة جدًا وهي معروفة أقل. يتعلق الأمر بالاخت

---

(٣) رسائل إلى ماري دي بوندي، في جورج غوري، صداقات صحراوية، الجزء ١، ص٢٨٥.

(٤) يمكننا ان نقرأ الرسالة التي كتبها في ٢٨ كانون الثاني ١٩٠٥، منذ عودته إلى بني عباس، إلى المونسنيور غيران الذي توفيت والدته. شارل دي فوكو، مراسلات صحراوية، ص٣١١.

اوغسطينة. لقد تعارفا منذ اقل من ثلاثة اشهر، خلال اقامته في غرداية. فبعد ان قرأت الاخت اوغسطينة كتاب الأب كوساد المعنون " الاستسلام إلى العناية الالهية "، ولا سيما بعد ان قـرأت كتاب الأب كروزييه " إلى الأعلى " الذي قدَّمه لها الاب شارل، كتبت اليه في شأن صعوباتها واشواقها إلى حياة معطاة اكثر لله في ظروف اخرى تختلف عن مسؤولياتها الحـاضرة. ومن ثمة جرى بينهما تبادل رسائل حميمة تتعلق بالارشاد الروحي بـالاضافة إلى المعضلات العامة لتأسيس جمعيات في الجنوب. ان هذه المراسلة التي هي من نوع خاص لم تكن معروفة. وقد نُشرت مؤخرًا في المراسلات الصحراوية[٥].

قد يعتقد البعض ان أهم قسم من نهار الاب شارل كان مشـغولاً بلقـاءاته وبالمراسلة. ولكن هذا لا يمثّل سوى الجزء الصغير من استخدامه الوقت. فما هي النشاطات التي كان من شأنها ان تمنعه من حراثة بستانه، حتى اذا كانت قواه الطبيعية تتيح له ذلك ؟

انها اولاً الاعمال الفكرية. ويستطيع الاخ شارل ان يعكف عليها بالرغم من التعب والصحة الرديئة، لأن الأمر يتوقف على مجرد " انتسـاخات " : " اني أمضي أيامي في حياتي الديرية والمنعزلة استبدل العمل اليدوي بانتساخات من اللغة الطوارقية ودراسات قمتُ بها خلال سنة السفر[٦]... ". وهو يرسـل هذه النسخ بالتتابع إلى المونسنيور غيران. والعمل الأول الذي أرسله هو التقـرير عن سفره وقـد عنونه : " عند الطوارق (تايتوق، ايفوراس، هوجار، ايار - ايلول ١٩٠٤ ".

وهو يريد ايضًا ان ينجز اسرع ما امكن نسختين او ثلاث نسـخ من ترجمته

---

(٥) انطلاقًا من الصفحة، ٩٥٤.

(٦) رسائل إلى ماري دي بوندي، رسالة ١٩٠٥/٢/١٨.

١٧- النداء الثالث من الهوجّار .....

للكتب المقدسة إلى لغة تماهاق، في منظور ان يرى اخوات من الراهبات البيض يتهيأن للذهاب عنـــد الطوارق. وبودّه ان يعيـــد النظر ايضًا في الملاحظة حول طريقة السفر في الصحراء[٧]، الا ان انشغالات اخرى وحالة التعب لن توفـــر له الوقت خلال هذه الأشهر الأولى.

وهنا تجدر الاشارة إلى الأهمية التي يأخذها البُعدُ الإرسالي في انشغالاته. لقد سافر الأخ شارل خلال سنة، ويجب ان ينفع هذا للآخرين. وتعلم الكثير، ووضع مخططات، وهو يرى الأمـــور الضروريـــة، وبما انه تخلى عـــن مواصلة هذه النشاطات بنفســـه، فعلى الآباء البيض ان يواصلـــوا هـــذا العمل. انها صفحات وصفحات من المشاريع، والتنظيمات، والتكهّنات، التي يوجهها إلى كل الاشخاص المعنيين. وهذه الارادة في عرض التأسيسات وفي تنظيم مسيرتها هي من ميزات عبقريته الخلاقة وكل طبعه.

ويحاول الاخ شارل وســـط نشاطاته كلهـــا ان يحيا بحســـب القانون الذي يتضمن وقتًا للتأمل العقلي او المكتوب من الانجيل. وطوال حياته الصحراوية كلها، قلما يكتب تأملاتهِ، على النقيض مما كان يفعله في دير السكوتيين او في الناصرة. انما في هذه الايام المئة فقط يكتب بنوع منتظم ويوميًا تقريبًا.

وتبتدئ هذه التأملات المكتوبة[٨] في ٢ شباط وستدوم حتى الفصح (القيامة). ما عدا التأمل الأول الذي يتناول تقدمة يسوع مثل ضحية، فإن التأملات الأخرى لشهر شباط كلها موضوعها الهرب إلى مصر. ويمكننا ان نجد فيها خبـــرة الاخ شارل، وتعبـــه الحاضـــر دائمًا نتيجة أسفاره. وفـــي الوقت نفسه، يخشى من ان

---

(٧) شارل دي فوكو، كراس بني عباس، باريس ١٩٩٣. هذه الملاحظة تملأ ٢٣ صفحة مطبـــوعة من هذا الكراس، ص١١٥-١٣٨.

(٨) روح يسوع، ص١٦٥-٢٨٦.

يترتب عليه ان يبدأ من جديد، ولكنه مستعد للذهاب من جديد، بـــالرغم من هذا التعب. وهذه التأملات تجري مســـاءً، وهو يكوّن الموضـــع ويعمل الاعتبارات. ويبدو انها تتجاوب مع اشارات الطريقة المتّبعة : ١- الاستحضار بتركيز الفكر على مشهد خيالي (تصوّري). ٢- ماذا لك ان تقول لي ؟ ٣- ما عندي لأقولـــه لك للتعبير عن جوابي، وجميع التأملات تنتهي بالطريقة نفســـها، موجزًا في كل يوم ما استطاع التعبير عنه بكلمات مختلفة :

" إلهي، احبك وأســـجد لك، وأنا مُلك لك، وأعطيك ذاتي. لا يكن انا الذي يعيش، بل انت الذي تحيا فيَّ. اجعلني اكون واعمل في كل لحظة ما يرضيك الاكثر، وليكن الأمر هكذا ايضًا لجميع ابنائك. آمين ".

في التأمل، المهم ان يتحد الانســـان بارادة يســـوع ليعمل، في الحيـــاة، ما يرضيه. فهل بالنظر إلى يسوع سيكتشف ما يجب عليه فعله لكي يرضيـــه ؟ كلا ! ففي الواقع، نلاحظ ان الطريقة معاكسة. فهو يرى اولا ما كان عليه ان يفعله، بالحدس او لأنه يشعر في اعماق نفسه ما يجب فعله، أقله أمانة لما هو نفسه. فهو يفكر اذ ذاك، انه حينما يعمل ما يشعر بأنه مدعو لعمله، سيعمل ما يرضي يسوع. وبعد ذلك يجد في اقوال يسوع وأعماله التأكيد على ما يشـــعر بأن عليه ان يعمله. ولا ينبغي ان نتوهم بمفردات الاقتداء بالمسيح التي لا تنفع الا للتعبير عن ارادة في العيش متحدًا بيسوع، وان يدعه يحيا فيه.

وجاءَت فترة اخرى من ٤٠ يومًا، من ٢٤ آذار إلى مطلع أيار، ربما حُلّلت مثل كلّ. انه الوقت المركزي لهذه الأشهر القليلة، وقت القرار الذي سيوجّه حياة الأخ شارل نهائيًا. وهذه الفترة توافق تجدّدًا ربيعيًا يعيد اليه نشـــاطه العَام. وهو يكتب في ٢٩ آذار إلى ماري دي بوندي : " الامور تزداد تحسنًا منذ رســـالتي الأخيرة. فانا لا اتألم من بعد ابدًا. وقد اســـتأنفتُ حـــياتي الاعتيادية ". وفي ١١ نيسان، كتب ايضًا إلى ابنة عمته :

١٧- النداء الثالث من الهوجّار .....

" لقد استعدتُ نشاطي بنوع مدهشـــن وانا الآن في فترة من الارتياح التي تتبع فترة التعب، حينما يتمكن المرء من التغلّب عليه... لا تظني ان مناخ بني عباس رديء، بل هو صحي بنوع فريد ".

ولكـــي نحدّد موقع توجّـــه حياته الجديدة، لنتبـــع الآن التسلســـل التاريخي للأحداث.

في ١ نيسان جاءت رسالة من لابـــرّين تدعو الأخ شـــارل إلى العودة إلى الجنوب للقيام بجولة جديدة في الهوجّار مع الكابتن " دينو " الذي سينطلق من عين صلاح في مطلع أيار. وفي ٨، جاء بريد آخر يجدّد الدعوة نفسها. ليس من ردّة فعلٍ ظاهري، وليس من أقل اشـــارة إلى ذلك في تأملاته. انما يجيب الاخ شارل على لابرّين انه لا يسعه ان يترك " ساورا " قبـــل الخريف، وفي ذلك الحين سيقرر أحد الحلول الثلاثة : حياة السفر او الحياة في الحصـــن في بني عباس او الحياة في الحصن في " سيليت ".

ولكننا، منذ ١١ نيسان، نستطيع ان نقرأ في رسالة إلى ابنة عمته ما يلي :

" ليس من المستحيل ان أُضطَرّ إلى القيام بغياب إلـــى الجنوب... لا أظن ذلك، لكني متهيئ للأمـــر... لقد أبرقت إلى الأب غيران لكـــي يستشير الأب (هوفلان) وأن يبرق اليّ بالجواب [...] ".

ويكتب في كراسه، في ١٥ نيسان :

" اني محتار: فدعوتي من جهة هي حياة الناصرة [...]، ومن جهة اخرى، ليس للواحـــات وللطوارق أي كاهن. وليس من كاهن يســـتطيع الذهاب اليها. وليس فقط انهم يسمحون لي بالذهاب اليها، بل يدعونني اليها ".

وفي ١٨ نيســـان يكتب إلى الأب هوفـــلان لكي يطلعه على حيرتـــه. وفي

كراسه، بعد هذه الرسالة، ينقل ايضًا مقـصده للرياضة التي انهاها في الميلاد في غرداية. ان " الحيرة " التي يعبّر عنها في كراسه، وفي الرسالة إلى الأب هوفلان، وفي رسالة إلى المونسنيور غيران، نلقاها ايضًا في رسالة وجهها في ١٩ نيسان إلى ماري دي بوندي :

" ان ما سبَّب لي الحيرة في الوهلة الاولى، هو انه من الصعب جدًا في حدّ ذاته، ونتائجه سيئة للآخرين، ولا سيما للذين يؤمنون قليلا، ان يروا ان منطقة واسعة دون كاهن بل مغلقة امام الكهنة، ويعرضـون على واحد منهم بالذهاب اليها وهو يرفض... ثم ان هـذا الرفض يزعج اولئـك الذين قدموا العـرض ويحملهم على ان يقولوا للذين سيريدون الذهاب : لقد عرضنا، ولكنكم رفضتم. انتهى الأمر، فنحن بدورنا نرفض... مع ذلك، اظن ان ارادة الله هي ان ابقى ههنا، وأبقى ".

وفي عشية ذلك اليوم، كان الأخ شارل قد كتب إلى الاخت اوغسطينة :

" انا في بني عباس ولا انوي مغادرتها. واذ دخلتُ في الحصن، فليس من أفق آخر لي ولا مستقبل آخر سوى الاختفاء في حيـاة الناصرة، عنـد اقدام القربان ".

ان المونسنيور غيران، الذي كان اذ ذاك في فرنسا، يلتقـي الاب هوفلان ويشـرح له معنى المقاصد التي اتخـذها الاخ شـارل في غرداية، وكـذلك القرارات التي تلتها. ويظهر الاب هوفلان فائدة سفر جديد للرسالة، ولا سـيما ان الاخ شارل " مطلوب دومًا " للقيام بهذا السفر، ثم يستنتج :

" فليذهب اذًا، على بركة الله !... او في الاقـل لنترك له الحـرية في ان يقيّم هو نفسه الظروف المحلية. فنحن بعيدون عنه كثيرًا، ومعلوماتنا قليلة عنه

جدًا، ولكننا لنظهر ان هذه فكرة السفر الجديد ليست مزعجة لنا، بل نحن نميل اليها بطيبة خاطر "[٩].

في ١٩ نيسان، ارسل المونسنيور غيران برقية إلى الاخ شارل الذي تلقاها في ٢١ منه. وتعجب اذ قرأ فيها : " نميل إلى قبول الدعوة، ونتركك حرًا مع ذلك في تقييم الضرورة حسب الظروف ". وبينما كان قد قــرر عدم الذهاب، تلقى هذه البرقية بمثابة أمر :

" يا قلب يسوع الاقدس، ما اطيبك اذ تعطيني اليوم بالذات، بصوت اولئك الذين قلتَ لهم : " من ســمعَ منكم، ســمعَ مني "، امرًا غير متوقــع، يدهش الفكر ويلقي في الصعوبات والشدائد والأتعاب... ما أطيبك، يا قــلب يســوع الاقدس، ان تجعل عبدك غير المستحــق يعمل ارادتك. وان تعرّفه اياها بــلا خطأ بصوت الذين قلت لهم : " من سمعَ منكم، سمعَ مني ".

وفي الحال كتبَ إلى لابرّين ليسأله هل الوقت ما يزال ملائمًا للذهاب. وفي تأمل اليوم التالي، وهو السبت المقدس (سبت النور). يكرّر :

" انت خادم لا نفع فيه، عليك ان تعمل من كل قواك، بكل عناية وحرارة ممكنة، ليس كل ما يأمر به حســب، بل كل ما ينصحك به مهما كان خفيفًا، كل ما يميل إلى ان يراك تعمله : بمحبة، وطاعة، واقتداء [...] ولكن بمقــدار ما هو أكيد أن عليك ان تطيع هكذا وان تعمل من كل قواك [...] بمقدار ذلك يتأكد انك خادم بلا نفع : وان ما تعمله، بوســع الله ان يعمله بوساطة آخرين او بدون اي آخر، على أي حال بدونك : انت خادم بطال "[١٠].

---

(٩) المراسلات الصحراوية، ص٣٣٧.

(١٠) روح يسوع، ص٢٨٤.

ان مجموع تأملات هذه السنة تنتهي بهذا الموضوع : الخادم البطال ![(١١)]

وبانتظار جواب لابرّين، يتهيأ الأخ شارل بسرعة. بودّه ان ينهي نقل الاناجيل. ولكن عليه اولاً ان يرسل إلى المونسنيور غيران الملاحظة في كيفية السفر في الصحراء. ومنذ ٢٩، يعلم ان كل شيء يترتب بعناية الله لتسهيل ذهابه الذي قد تمَّ تحديده في ٣ أيار. وأرسل على دفعتين، في عشية الذهاب، بعض قطع من الانجيل بلغة تماهاق، ويسعه الآن ان يسير على الدرب مع پول مبارك، باتجاه ادرار، مستفيدًا من فرصة توفّرت له.

---

(١١) الموضع نفسه، ص٢٨٥-٢٨٦.

-١٨-

على الدرب شطرَ الهوجّار
٣ أيار إلى ١١ آب سنة ١٩٠٥

بعد ان قضى الأخ شارل مئة يوم دون ان يخرج من الامتار المربعة القليلة التي تشكّل حصنَه، غادر بني عباس في ٣ أيار. وعليه ان يسير حثيثا لكي يلتحق بالكابتن دينو الذي غادر عين صلاح في الوقت نفسه. وسيجد الفصيل في ٨ حزيران. بين اعضاء هذا الفصيل، نخص بالذكر : الاساتذة " غوتييه " وهو مستكشف وجغرافي، و" شورو "، جيولوجي، وموظف للبرقيات و" إتيينو "، وضابط مترجم هو " بنهازيرا "، وصحفي هو " ميل "، وبعض نواب ضباط وطوارق مع سيدي أغ أكاراجي، زعيم طايتوق.

وتتوقف الحملة ثلاثة ايام، ثم تنطلق من جديد في ١٢ حزيران. وكان الحدث الأكبر في ٢٥ حزيران بمجيء موسى أغ أماستان. وكان الكابتن دينو قلقاً بردة الفعل التي ستحدث عند الأمينوكال حينما يرى، في وسط فرقة العسكريين، هذا الرجل ذا الزيّ الغريب الذي كان يتميز عن الآخرين بقلبه الاحمر الذي يعلوه صليب وهو مخيّط على ثوبهِ. ولكن اذ كان للاخ شارل بعض المعرفة بلغة تاماهاق، فهو يُستعان بهِ بسهولة كمترجم، ويسعه من ثمة ان يتكلم مباشرة مع موسى أغ اماستان، الذي سيظل معهم نحو ثلاثة اسابيع.

ويبدو ان الرجلين مارس احدهما على الآخر انجذابًا متبادلا. وهذا يظهر في اول تقييم كُتب إلى المونسنيور غيران في ١٣ تموز، بعض الوقت بعد

١٨- على الدرب شطرَ الهوجّار .....

مغادرة موسى :

" ان موسى ممتاز : فهو رجل ذكـــي، وافكاره واسعة، وهـــو يخشى الله وتقي حقاً. انه رجل نزيه، ويريد السلام حقاً، والخيـــر كما يفهمه... لـــه من العمر خمس وثلاثون سنة، وقد عاش حتى الآن حياة حسنة، وهو محبوب جدًا في بلاده. واذا استمر، فنرجو منه الكثير، بهِ وله [...]. عنده رغبة شديدة في الذهاب إلى الجزائر، وحتى إلى باريس ".

وكان التأثير الذي أحدثه هذا الطلب في الأخ شارل تأثيرًا مباشرًا. واذ أخذ هذه الرغبـــة مأخذ الجد، دون ان يتغاضى عن عوائق هذا الســـفر، فهو يرى خاصة فوائـــده ويقترح على الفور علـــى المونسنيـــور غيران منهاجًا مفصلاً للجزائر ولباريس، من البديهي على نفقة الآباء البيض ! انه راهب لا يصطلح ومخصص لحياة الناصرة، ولكنه في استنباط دائم للآخرين ! وفي شهر تشرين الاول، ســـيعود إلى هذه الفكرة التي لن يتخلى عنها البـــتة، ويعرض نفســـه كمرافق، مع قوله ان أمر القيام بذلك لا يعود اليه.

في هذه الرسالة التي كتبها إلى المونســـنيور غيران في ١٣ تموز، يضيف ما يجعله في الوقت الحاضر : " إني أُعِدُّ معجمًا صغيرًا وقواعد صغيرة للغة الطوارقية للرفاق، وللذين سيحتاجون إلى ذلك ". وفي ملحـــق رســـالته، يكتفي بمشروع على المدى القريب.

" سأحاول ان أهيئ وان ابدأ بمؤسسة في الهوجّار، ولكنها مؤسسة ضئيلة. ولن يكون سكنًا كبيرًا كما في بني عباس : كوخ وعنزتان بالقـــرب من الماء [...] ولم أقرر في شأن المكان : أبالِسا ! اين أمجل ! تيت ؟ نقطة بين تيت وتامنراست ؟ سأرى حينما اكون في الموضع ".

ويشير فيه إلى الأمل، الذي صار شبه يقين، في ان يكون لـــه قريبًا رفيق في شخص الاب ريشارد من " الغولية ". وبينما كان يتردد في السنة السابقة في قبوله، ظانًا ان دعوتيهما متباعدتان جدًا، من جراء الالتزام الرسولي النشط لدى هذا الأب الأبيض، هو الآن مستعد ليأتي ويأخذه حتى من الجزائر. الا ان هذا الرفيق لن يعطى له قط :

وكتب الاخ شارل ايضًا إلى ابنة عمته :

" يبدو من الضروري ان احاول الاستقـــرار في الهوجّار وان أُمضي هناك في الأقل بعض الوقت كل سنة... وهذا يبدو مثل نتيجة لقـــرار الأب في ان يجعلني أقوم بهذا السفر... فسأعمل ما أعتقده الأفضل "[1]

واخيرًا، في هذا اليوم نفسه، كتبَ ايضًا إلى الأب هوفلان رسالة ستقـــطعها ظلمةُ الليل، ولكنها مهمة بالنظر إلى تساؤلها :

" لا أَنسى عيدك. فبعد غد، عيد القديس هنري، ســـتكون صلاتي الفقـــيرة معك اكثر من المعتاد... [...] السفر يجري جيدًا، جيدًا جدًا، وأرى الكثير من سكان البلاد... شـــيء واحد ينقصني، وهو انا ذاتي... فأنا مســـرور من كل شيء، إلا من ذاتي.

فبالإضافة إلى اوهاني التي لا عدَّ لها، هناك نقطة واحدة تؤلمني... أودُّ ان أتلو الفرض، وان يكون لي ساعات الصلاة الصامتة والتأمل وقراءات قصيرة من الكتاب المقدس، كما في موضع الإقـــامة نوعًا ما. واذا احـــاول ان افعل ذلك، لن يبقى لي وقت للتحدث إلى الطوارق، ولدراسة لغتهم، لكي أهيئ اكثر ما امكن الطريق للفعَلة الذين سيتبعونني... اذ لا استطيع التوفيق بين الأمرين،

---

(١) رسائل إلى ماري دي بوندي، رسالة في ١٣/٧/١٩٠٥، ص١٣٨.

١٨- على الدرب شطرَ الهوجّار .....

فاترك الأول ولا اعمل سوى الثاني الذي يبـــدو لي ان الله يفضّله... ومع اني اعتقد أني افعل امرًا جيدًا، الا ان هذه الحياة مع الوقت القـــليل المكرَّس فيها للصلاة وحدَها، وهذا ترك التمارين التقوية الجيدة والمنعشة، ذلك كله يؤلمني، وغالبًا ما اتســـاءَل هل يستحيل حقًا التوفيق بين الأمرين، او ان الامر ليـــس سوى نتيجة لفتوري [...].

ولكني منـــذ مغادرتي بني عباس، اســـتبدلت دومًا صلاة الفرض بالورديـــة، واحيانًا هذه الوردية المؤجَّلة إلى المساء لم تُنجز... حينما اسير، افكر في يسوع اكثر ما امكنني ذلك، ولكن يا للاسف، بشكل تعس !... والوقـــت الذي لا يؤخذ بالسير والراحة، يُستخدم لتهيئة الطرق، اذ احاول عقـــد صداقـــات مع الطوارق، وان اعمل معاجم وترجمات ضرورية للذين سيأتون ويحملون يسوع...

واذا كنتُ على خطأ في تصرّفي هذا، واذا اضطـــر إلى ترك هذه الطريقـــة والأخذ بأخـــرى، تكلم، وســـأطيع... بالرغم من أســـفي على هذه الانشـــغالات الخارجية جدًا، اظن اني حسنًا افعل هكذا، إلى ان تقول لي ان افعل غير ذلك...

للمستقبل، احتاج إلـــى نصائحك... انهـــم يقبلونني،... ولكني لا أرى انهم يقبلون آخريـــن... طالما لن يقبلـــوا كاهنًا آخر عند الطوارق، هل يجـــب ان احاول البقاء هنا وان استقر بها طوال جزء كبير من السنة. بمقـــدار ما افكر في الأمر، بمقدار ذلك اقول : نعم، يجب ان نُبقي هذا البـــاب مفتوحًا إلى ان يدخل آخرون، وانه يجب عقد صداقة وخلق ثقة، واعطاء انطباع جيد، وإعداد الأرض إلى ان يتسنى للفعلة ان يدخلوا إلى الحقل. ويبدو لي بما ان يســـوع، بوساطتك، أرســـلني إلى هنا. فعليَّ ان اواصل اهتمامي بالقيـــام بعمله إلى ان يحل آخرون محلّي [...].

الآن احاول ان اهيئ مسكنًا صغيرًا عند الطوارق. وليس بداية أخوّة القـــلب

الاقدس كما فـــي بني عباس، بل مجـــرد كوخ حيـــث، بدون ارض كبيـــرة ولا صغيرة، وبدون زراعة، استطيع العيش بالصلاة وبصنع الحبال وآنية من خشب خلال قسم كبير من السنة، واتعلق أقل ما أمكن بالأرض.

لقد حلّ الظلام، وداعًا ايها الاب الحبيب ".

انه لعاجزٌ عن كتابة ثلاثة سطـــور بدون برمجة ما يليها بحسب حلمه. يكفينا ان نعرف انه لن يصنع ابدا حبالا ولا آنية !

في ٢٠ تموز صعدت الفرقـــة نحو الشمال، متقدمة بمراحل مـــن ٢٥ كم، ثم ٤٥ و٥٠ وحتى ٦٠ كم. ولقد اعطى موســـى أغ اماستان موعدًا في قرية تُسمى " تامنراست "[٢].

ان الكراس الذي بدأه في بني عباس امتلأ تمامًا في تاريخ ٢١ تموز. الا انه كتب بتاريخ ٤ تموز كـــل ما يتعلـــق بالاسابيع الأخيـــرة حتى ٢١ تموز، ومن ضمنها القرار الذي اتخذه بالاتفاق مع موسى، بالإقامـــة في الهوجّار. وكـــان له كراس آخر فيه كتـــب بالعربية، اذًا ابتداءً من النهاية (اليميـــن) الانجيل بحسب القديس متى. ويستخدمـــه لمواصلة يومياته، ويفتحـــه من البداية، ولكنه يواصله ايضًا بالنهاية موضع ملاحظاته، ولوائح الناس الفقراء، وجميع مصاريفه، بحيث جزئي الكراس يتقدمان نحو المنتصف لكي يتصل الواحد بالاخر يومًا ما. يمكننا ان نفهم ان نشر " كراريس تامنراست "[٣] لم يكن شيئًا سهلاً.

ان التغيير الذي يطرأ آنذاك لا يشار اليه فقط بالاجتياز من كراس إلى آخر. والخاطرة الاولى التي كُتبت في هذا الكراس الجديد، في عيد القديســـة المجدلية،

---

(٢) يكتب الاخ شارل في هذا الوقت اسم تامنراست بوضع غ عوض ر.

(٣) شارل دي فوكو، كراريس تامنراست، باريس ١٩٨٦.

١٨- على الدرب شطرَ الهوجّار .....

في ٢٢ تموز، هو أحـد النصوص الاكثر إيحاءَ بتطـوّر الاخ شارل في طريقة مفهومه للناصرة. وهكذا فاننا نقرأ :

" بدون زي – مثل يسوع في الناصرة – بدون حصن – مثل يسـوع في الناصرة – بدون مسكن بعيد عن كل موضع مأهول، بل بقرب قـرية – مثل يسوع في الناصرة – بدون أقـل من ٨ سـاعات من العمل في اليوم (العمل اليدوي او غيره، وعمل يدوي بقـدر الامكان) – مثل يسـوع في الناصرة – بدون ارض كبيرة ولا مسكن كبير، ولا مصاريف كبيرة، حتى ولا صدقـات كبيرة، بل فقر مدقع في كل شيء – مثل يسوع في كل شيء – مثل يسـوع في الناصرة... وبكلمة : مثل يسوع في الناصرة في كل شيء. استخدمْ قانون الاخوة الصغار لمساعدتك في العيش هذه الحياة، استخدامك كتابًا لغويًا. وابتعد عنه بعزم في كل ما لا يخدم الاقتداء الكامل لهذه الحياة.

لا تبحث عن تنظيم وإعداد مسكن الاخوة الصغار لقلب يسـوع الاقـدس. وحيدًا، عش وكأن عليك ان تعيش وحـدَك دومًا. واذا كنتم اثنين او ثلاثة او بضعة اخوة، عشْ وكأنك لن تعيش قط اكثر عددًا. صَلِّ مثل يسـوع، وبقـدر يسوع، واجعل منه دومًا مكانًا كبيرًا للصلاة... ومثله ايضًا اجعلْ مكانًا كبـيرًا للعمل اليدوي، الذي ليس وقتًا مسلوبًا من الصلاة، بل معطى للصلاة. ان وقت شغلك اليدوي وقتُ صلاة. اتلُ بأمانة الفرض والوردية كل يوم. احببْ يسـوع من كل قلبك، وقريبك مثل نفسك محبةً بهِ. ويمكن ان تعاش حياة الناصرة في كل مكان، فعِشْها في انفع مكان من اجل القريب ".

في صباح ٦ آب، بعد ان رأى ابالِسّا ثانية، في قرية إنّديد، قـرَّر المضي إلى تامنراست التي لم يَرها ابدًا، وكتب إلى المونسنيور غيران :

" من المحتمـل الكبير اني سأسكن في تامنراست، القرية الواقعـة في قلب

١٨- على الدرب شطرَ الهوجّار .....

الهوجّار. أبيع جمالي، وابني كوخا، واضع فيه القربان المقدس واسكن، وانوي ان أقضي فيه الخريف والشتاء في الاقل... وبعد التفكير الجيد، افضّل تامنراست، وهي مركزية بكفاية، ولكنها خارج المواضع التي تستطيع ان تتلقى مراكز عسكرية او ان تكون على ممرّ خط تلغرافي... وابقى، عوض ان استأنف سريعًا طريق الشمال حسب مشروعي الأول، لأني لو انطلقتُ الآن، فان المسكن الذي هو ممكن لي اليوم، قد لا يكون كذلك في ما بعد. فالفرصة تبدو هبةً من الله ويجب الاستفادة منها... سأعمل بيتًا صغيرًا جدًا، غرفتين، كل منهما بمقياس مترين طولا ومترين عرضًا، احداهما تكون مصلى، والآخرى صومعةً.

في ذلك اليوم، قرَّر اذًا ألا يعود نحو الشمال مع الكتيبة العسكرية، وان يسكن في تامنراست، ولكن لن يتأكد من ذلك، الا بعد ان يكون قد رأى الموضع. وللمرة الاولى يُذكر اسم تامنراست بصراحة. وقد يحق لنا ان نستنتج ان الحديث بهذا الشأن قد دار مع موسى أغ أماستان الذي كان له مشاريع تتعلق بهذه القرية التي بقربها كان غالبًا ما يحلّ.

وفي قرية " تيت "، على مسافة ٤٠ كم من تامنراست، يسكن من ٦ آب إلى ١٠ منه، ومن هناك كتب خمس رسائل. وكان في السنة السابقة، في ٢٦ أيار ١٩٠٤، قد أملَ في السكنى في هذا الموضع، وكان قد كتب خواطره حول النقطة المفضّلة : اما على قمة الجبل، او على الصخور الواقعة على الضفة اليمنى من الوادي، حيث كانت اراضٍ زراعية يمكن ان تكون بعد ذلك موضعًا لأخوّة :

" ان النقطة الاولى لها الأولية في انها يمكن ان تكون مشغولة حالاً، وتترتب في وقت قصير جدًا وبقليل من العمل، وانها سهلة ويمكن ان تكون

من البداية موضعًا تحتلها بعدئذ أخوّة، اذا ما سكنت ههنا،... أما النقطة الثانية ففائدتها انها بعيدة عن الناس وعن الضجة، وانها توفّر العزلة مع الله ".

وبعد ان وازن بين العوائق والمنافع، يواصل كلامه :

" ليتنازل العريس وليقل لي ايًا من الموضعَين يريده لي اليوم : اليوم وفي المستقبل، " ان استطعت، اسكنْ في الموضع الأول، في هذه الصخور المشابهة لصخور بيت لحم والناصرة، وحيث يكون لك في آن واحد كمال الاقتداء بي وكمال المحبة. اما في ما يتعلق بالاختلاء، انما المحبة هي التي ستضعك في الاختلاء فيَّ داخليًا، وليس الابتعاد عن ابنائي : انظرني فيهم، وشأني في الناصري، عش بالقرب منهم، ضائعًا في الله. في هذه الصخور حيث قدتْك رغمًا عنك، لديك الاقتداء بمنازلي في بيت لحم وفي الناصرة، الاقتداء بحياتي كلها في الناصرة، المحبة لسكان الموضع وللمسافرين الذي يتعاملون معهم، المحبة لرفيقك بالتخفيف كثيرًا عن اتعابه، والاختلاء بإلغاء تشتتات هذا عمل البناء الطويل على جبل، والفقر بحذف مصاريف هذا البناء المتواضع والفقير والخفي، عوض واحد يكون منظوراً من بعيد، الرجاء في صنع خير أكبر اذ تكون باحتكاك اكثر مع النفوس، والرجاء في ان يكون لك يومًا اخوة يشغلون موضعًا فيه يمكنهم ان يكثروا وان يصبحوا اخوّة نظامية. واخيرًا، فإن ما هو عظيم، هو ان يكون لك القربان المقدس حضور سر القربان الاقدس في بيت القربان بعد وقت قصير، اذ انك في بضعة ايام، يمكنك ان تقيم مصلى ".

وبالإضافة إلى هذه الخواطر، فإن الخواطر التي كتبها في ٢٢ تموز ١٩٠٥، في عيد القديسة المجدلية تشير إلى تقدّم جديد في حقيقة الناصرة، وتعمقًا لدعوته. ويتحقق الاخ شارل من ان القانون الذي كتبه سنة ١٨٩٩، وان صُحّح مرات كثيرة، لا يمكنه ان يدير " المؤقت " الذي سيكون من الآن

دينامية حياته. فإن هذا " المؤقت " سيضطـــره في الواقع إلى كتابة جمل غير مألوفة عنده، نلقاها في رسالته إلى ماري دي بوندي المؤرخة في ٦ آب.

" أظن اني سأسكن لبضعة شهور، او ربما اكثر، في هذه المنطقة في قرية تامنراست... كنتُ قد بحثت عن هذا السكن في الصيف الماضـــي ولكن بدون ان أفلح. أما هذه السنة، فيبدو لي اني استطيع [...] ".

في اكثر الاحتمالات اني سأستقر ههنا للصيف في الاقل والخريف والشتاء، وربما لمدة اطول بكثير. اني اسكن دون عمل أي مشاريع : فمن جهة لســتُ انا، بـــل الأب والمونسنيـــور غيران هما اللذان يأخذان القرارات، ومن جهـــة اخرى، تجري احداث كثيرة ونتكهن قليلا بالمســـتقبل ! [...] فهل ساعود إلى بني عباس ؟ ومتى ؟ اني اجهل ذلك. احاول ان اعمـــل في كل وقت ما هو الأفضل، دون ان اعمل مشاريع ".

-١٩-

السكنى في تامنراست

في ١١ آب ١٩٠٥، أقبلَ الأب شارل إلى تامنراســت، وقــد أمضى الليل على مسافة ٢٠ كم عنها فقط. وكتب في كراسه :

" اخترتُ تامنراست، القرية المكوَّنة من عشرين عائلة في قلب الجبل وفي وسط الهوجّار و" داغ - غالي " قبيلتها الرئيسية، بمعزل عن جميــع المراكز المهمة : لا يبدو ان تكون فيها ثكنة قط ولا مركز إبراق، ولا أوربــي، وانه لن يكون فيها رسالة لمدة طويلة : اخترتُ هذا الموضع المتروك لأستقر فيه، وانا اتوسل إلى يسوع ان يبارك هذه المؤسسة حيث اريــد في حياتي ان اتخذ حياته فقط مثالاً اوحد لحياتي في الناصرة. ليتنازل بمحبته ويهدينــي ويجعلني كما يريد، وان يجعلني أحبه من كل قلبي. ان أحبــه واطيعه، واقتدي بهِ اكثر ما امكن في لحظات حياتــي كلها ! يا قلب يسوع الاقدس، ليأتِ ملكوتــك ! يا سيدة المعونــة الدائمة، احمليني بين ذراعيك. ايتها القديســة المجدلية، ايها القديس يوسف، اني استودع نفسي بين ايديكما ".

لقد سُحر بالموقع وبالمناخ، فكتب في ١٣ آب إلى المونسنيور غيران :

" إن تامنراست تقع على ارتفاع ١٢٠٠م او ١٥٠٠م في قلب الجبل وســط الهوجّار، ولن تكون قط مركزًا كبيــرًا، ولا موضعًا للثكنة او مركزًا للإبراق، ...الخ انها في عزلة، مع ماء قــليل، و١٥ عائلة من الفقــراء. وهي وســط منطقة من المراعــي حيث يخيّم في جميــع الاوقات اهالي داغ غالي القبيلــة

الرئيسية من قبائـــل الهوجّار بالنظر إلى العـــدد وإلى الأهميـــة. مناخ ممتـــاز وصيف شبيه بالصيف في تورين او في أنجو ".

في اليوم نفسه، انضمَّ موسى إلى الفرقـــة العســـكرية التي خيَّمت في وادي سرســـوف الموازي عموديًا لوادي تامنراست. وفـــرح الامينوكال اذ علـــمَ ان " المرابط " قرّر ان يستقر في هذه القرية وليس في مكان آخر، وهذا ما يؤيد انه كان في الأصل من هذه الفكرة. لذا فان الاخ شارل كتب في اليوم نفســـه إلى ماري دي بوندي :

" غدًا ابدأ بناء كوخي ههنا. واكون هنا من الآن لوقـــت غير معروف... والرب يسّهل لي هذا التأسيس إلى حدّ اني أرى ثمة علامـــة علـــى ارادته... لتكن مباركة... وهذه ليســـت نعمة صغيـــرة يعملها لي يســـوع ان اسكن هنا. فالموضع كان مغلقًا إلى حدّ كبير طوال قرون كثيرة !... يجب ان اكون أمينًا لمثل هذه النعمـــة وان احقق الخير المنتظر،... سأظل ههنا الأوربي الوحيـــد، والسلطات على يقين انه ليس ثمـــة خطر، لأن البـــلاد خاضعة تمامًا ويســـود فيها السلام ".

وفي الاثنين ١٤، يبدأ بوضـــع الأسس حيث اختار ان يسكن، قليلاً بمعزل عن الاكواخ والبســـتان، نحو شمال القرية. ولدى قراءة ما كتبه، قد نصدّق ان جميع المعضـــلات قد حُلّت. الا ان الصعوبات تظهـــر آنذاك. فان داغ غالي الذين استدعاهم موســـى، اقبلوا اليه بكثرة وهم لا يشـــاطرون حماس رئيسهم الذي كان يظن من السهل عليه ان يدفعهم إلى قبول سكنى " المرابط " في ما بينهم. لا شك ان موسى أفلحَ في إقناعهم بفائدة حضوره في وســـطهم. الا ان داغ غالي ليســـوا مستعدين ان يتقاســـموا ماءَ قنواتهم مع غريب. والملاحظات التي كتبها الكابتـــن دينو تظهر تعقّد المعضلات : فإن بستانًا للخضراوات مع

أشجار مثمرة لا يُسقى مثل حقل للحنطة أو للدخن. تتصور المناقشات حول هذا الموضوع الاقتصادي الذي كان من شأنه ان يُحبط مشروع موسى والأخ شارل.

واذ لا يشتغل الاخ شارل يوم ١٥ اب، فقد كتب في كراسه صلاة استسلام جميلة إلى (مريم) ام العائلة المقدسة :

" ايتها العذراء القديسة، اعطيك ذاتي، يا أُمّ العائلة المقدسة، اجعليني اعيش حياة عائلة الناصرة الإلهية. اجعليني اكون ابنك الوفي، وابن القديس يوسف، والاخ الحقيقي الصغير لربنا يسوع. أسلم نفسي بين يديك، اعطيك كل ما انا، لكي تجعلي مني ما يرضي اكثر يسوع. واذا لي مقصد خاص اتخذه، اجعليني ان آخذه. احمليني. اريد شيئًا واحدًا : ان اكون وأن اعمل في كل لحظة ما يرضي اكثر يسوع. ايتها الأم الحبيبة، اني اعطيك وأسلم اليك حياتي وموتي ".

اخيرًا، يضطر موسى إلى الرضوخ، وفي سبيل تجنّب الخلافات مع داغ غالي، يقترح على " المرابط " ان يتخلى عن فكرة تامنراست، وان يذهب ويسكن في " إنّديد " حيث سيستطيعون معًا ان يحفروا قناة مشتركة. الا ان " المرابط " لا يقتنع بسهولة. لقد اختار تامنراست وهو يريد البقاء فيها، والاسباب التي أتت بهِ إلى هنا تحدوه إلى عدم القبول بحلّ آخر. وفي النهاية، وجدوا له حلاً وسطًا، بإسكانه على الجانب الآخر من الوادي الذي ليس على اراضي داغ غالي. وهناك سيسعه ان يحفر بئرًا وان يزرع بستانا دون ازعاج أحد، وسيكون في مأمن أكبر في هذا الجانب، حيث غالبًا ما توجد مخيمات في الطريق الجنوبي من القرية. وبول مبارك، الذي كان قد حفر الاسس الاولى في الشمال، لم يحفظ إلا هذا السبب الأخير الأمني لكي يشرح التغيير.

وفي ١٧ اختير الموقع مع موسى، وفي ١٨ تبدأ الأسس. وفي ١٩ يضع " المرابط " الحجر الاول لبنائه : كوخ من ٦ أمتار طولاً و١,٧٥م عرضًا،

١٩- السكنى في تامنراست .....

من الحجر والطين. وبعد ذلك ستُبنى زريبة، وهي كوخ من القصب سيُستخدم للإستقبال والطعام والمطبخ، غرفة پول، وموضع الضيافة.

وتبدأ حياة جديدة، طريقة جديدة لعيش حياة الناصرة، بدون حصـــن ديري. وهو بعيد من ان يفكر في ان حياته القصيرة ستنتهي احدى عشـــرة سنة بعد ذلك في هذه القرية حيث يستقر لزمان غير معين.

-٢٠-

زمان تامنراست

ان تتابع الحل والترحال يَسم حياة شارل دي فوكو في تامنراست. ونظرة إجمالية إلى حياته تتيح لنا ان نرى هذه السنوات الاحدى عشرة التي قضاها في الهوجّار، وان نحدّد احداثها على مدى خمس حقب. ولنتذكرّ ان جولة طويلة نحو الجنوب وفي منطقة الهوجّار سنة ١٩٠٤، ثم جولة اخرى أقصر سنة ١٩٠٥، سَبقتا استقراره في تامنراست.

الحقبة الاولى : آب ١٩٠٥ إلى تموز ١٩٠٧ = ٢٣ شهرًا

تامنراست	سفر إلى الجزائر	جولة إلى الجنوب
١٣ شهرًا	٧ أشهر	٣ أشهر

الحقبة الثانية : تموز ١٩٠٧ إلى آيار ١٩٠٩ = ٢٣ شهرًا

تامنراست	السفر الأول إلى فرنسا
١٨ شهرًا	٥ أشهر

الحقبة الثالثة : حزيران ١٩٠٩ إلى آيار ١٩١١ = ٢٣ شهرًا

تامنراست	السفر الثاني إلى فرنسا
١٨ شهرًا	٥ أشهر

الحقبة الرابعة : آيار ١٩١١ إلى تشرين الثاني١٩١٣ =٣١ شهرًا

تام	الاسكرم	تامنراست	السفر الثالث إلى
٣ أشهر	٥ أشهر	١٦ شهرًا	فرنسا٧ أشهر

٢٠- زمان تامنراست .....

الحقبة الخامسة : كانون الاول ١٩١٣ إلى كانون الاول ١٩١٦ = ٣٦ شهرًا

تامنراست ٣٦ شهرًا

خلال الحقبة الاولى، قاده السفر إلى الشمال إلى بني عباس ثم إلى الجزائر. وجاء من هناك مع أخ انفصل عنه في عين صلاح حيث يسكن، وانطلق من جديد إلى جولة في الجنوب حتى شهر تموز ١٩٠٧.

ان الحقبتين الثانية والثالثة تتشابهان إلى حدّ كبير : ١٨ شهر من الإقامة وخمسة أشهر من السفر إلى فرنسا لكل منهما.

الحقبة الرابعة تتضمن إقامة من ٢٤ شهرًا، خمسة منها في الاسكرم وسفرًا إلى فرنسا سيجعله غائبًا طوال سبعة أشهر.

كل من هذه الحقب من الحياة يدوم نحو سنتين، عدا الخامسة التي بسبب الحرب، ستمتد إلى ثلاث سنوات دون تنقّل.

لا يسعنا الا ان نُوجز بسرعة هذه السنوات الاحدى عشرة، التي سنُعيد النظر فيها في تنوّع النشاطات والعلاقات.

الحقبة الاولى

لقد سكن الأخ شارل في تامنراست منذ شهر آب. ولكنه سرعان ما تحقق انه يلتقي قليلا من الناس. ان هذه الحياة " المنعزلة جدًا " كان يتمناها بالنسبة إلى العالم الذي كان قد تركه وإلى العسكريين الذين أتوا بهِ الآن إلى ههنا، وقد غادروا الموقع الآن. في الواقع، انها خبرة جديدة، وهو يشعر بقساوة هذا الانعزال الذي يحرمه من البريد. ثم جاء شكل آخر من العزلة وفرض نفسه

عليه. واضطُرَّ إلى الاستغناء عن پول مبارك الذي كان يعتبره موعوظًا. وبدونه، لا يستطيع إقامة القداس، ولكنه يفضّل ان يُحرم من الافخارستيا على ان يحتفظ بهِ معه. فعلاً، ان هذا الشاب الذي لم يعتد هذا المحيط الذي يختلف كثيرًا عن المحيط الذي كان قد تربى فيه، لا يتصرف تصرفا صحيحًا كما كان يتمناه الاخ شارل.

فان الاخ شارل كان في قلب شعب من الرّحل، وكان يريد ان يكون قريبًا جدًا منهم. وهذا ما كان ينعش فيه الرجاء وهي العلاقات المعقودة في المخيمات الطوارقية في الوقت الذي فيه تمَّ لقاؤه مع موسى أغ أمستان. ولكنه في الواقع لا يكاد ان يرى احدًا : انما بعض فقراء من الرّحل وبستانيي القرية الذين يأتون إلى بابهِ. وفي الرسالة التي كتبها إلى ماري دي بوندي في ١٨ آذار ١٩٠٦، يقول :

" ان الوقت الذي مضى منذ رسالتي الاخيرة في منتصف كانون الثاني مرَّ مثل يوم واحد : دون ان أرى أي مسيحي وقليلاً من السكان : ففي الشتاء، الطوارق حساسون للبرد ويتجولون قليلا : وليسوا مسرعين لزيارتي : فثمة جليد يجب كسره، وهذا ما سيجري مع الزمان. وانا لم ابتعد عن المصلى مئة متر ".

فهل يأسف " للخليّة المزدحمة " في بني عباس ؟ ولكنه لا ينوي تجديد الخبرة وحتى انه يأخذ المقاصد ليحدّ من التوزيعات التي من البديهي ان من شانها أن تجتذب الكثير من الناس. والآن لا شيء له للعطاء. وهو يفكر في السفرين اللذين قام بهما مع العسكريين خلال السنوات السابقة. وكانت الاحتكاكات تبدو سهلة، وكانت المخيمات عديدة والقرى مرحِّبة. ولكن ألم يلتقي الكثير من الناس من جراء آلاف الكيلومترات التي قطعها، واستفاد من الاستقبال الخاص بالعسكريين ؟ وهل كان ينسى ان رؤساء القرى،

في مواضع كثيرة، كانوا قد وفضوا عليه السكن، ليعيش فيها حياته الرهبانية ؟[1]

لذا، سرعان ما يفهم ان واجبه يدعوه " ليقوم ببعض زيارات إلى قرى المنطقة ومخيماتها، للذهاب إلى الذين لا يأتون إليَّ بسهولة ". الا ان الأمر ليس ممكنًا، اذ يُمنع عليه الخروج وحدَه في هذه البلاد التي ما يزال عدم الامن يخيم عليها.

لذا فهو ينتظر بفارغ الصبر وصول صديقه موتيلنسكي، اخصائي في الدراسات العربية والبربرية، وقد طلبَ مجيئه. ومعه سيأتي بريد عدة أشهر، وسيتمكن من أقامة القداس، ومعًا سيتمكنان من زيارة المناطق المجاورة ومن رؤية اناس، بما ان موتيلنسكي يسافر مع حماية صغيرة مكوَّنة من ستة جنود خيّالة.

وما إن وصل في مطلع حزيران ١٩٠٦، حتى شرع الصديقان بالعمل مع " هرتاني " من تامنراست الذي هو لهما بمثابة معلم خلال شهري حزيران وتموز.

من ٢ حتى ٩ آب ذهب موتيلنسكي إلى " أبالِسّا ". ومن المحتمل ان الأخ شارل كان يرافقه. ولكنه في طريق العودة في ١١ آب، لدغته أفعى، فعالجه أحد خيّالة موتيلنسكي : " لقد استطعتُ تضميد نفسي على الفور، لذا أظن اني لستُ في خطر... [...] الا ان رجلي ما زالت تؤلمني كثيرًا ومن الممكن ان جرحًا خبيثًا يتكوّن فيها ". هذا ما كتبه إلى ابنة عمته في ١٦ آب.

وترتب عليه ان يتخلى عن مرافقة موتيلنسكي الذي اجتاز " اتاكور " من الغرب إلى الشرق. ولا بدَّ ان الفرقة الصغيرة التقت مخيمات عديدة. فالمراعي

---

(١) شارل دي فوكو، كراس بني عباس، باريس ١٩٩٣، ص١٥٠-١٥١.

جميلة جـدًا، لأن المطـر هطل بغزارة. ان هذا الازدحـام الكبير أثّـر فـي موتيلنسكي، وسينقـل إلى الاخ شارل تقييمًـا مبالغا فيـه عن كثافة السـكان العائشين في الجبال. وسيظل هذا دومًا عند هذه الفكرة التي ترى تجمعًا مهمًا للرحل في الجبال، وهذا ما ينشيء فيه الرغبة في السكن هناك. ولكنه في كل مرة ذهب إلى هناك، لن يرى احدًا وسيفكر ان الأمر استثنائي.

ومن نتائج عمله مع موتيلنسكي هو انه من الآن سيحقق تقدمًا جديـدًا في دراسة اللغة. فإنه كان من قبل يهتم بالترجمة من الفرنسية إلى تاماهاق. ومع موتيلنسكي، انكبّ على الاصغاء إلى الناس، محلّلاً طريقة تعبيرهم، مؤشرًا إلى قصصهم، وملاحظًا طريـق عيشهم. ومعًا، جمعا كمية كبيـرة من نصـوص ستصبح " النصوص الطوارقـية المنثورة "[٢]. وسـتكون هذه النصوص، في نظر الأخ شارل، ركيزة لكل دراسة للغة ومنطلقًا للمعاجم

وإن لم تكن رجله قد شـُفيت تمامًا بعـد، فإنه سيستفيد من رفقة صديقـه للصعود نحو الشمـال حيث يظن ان واجبه يدعـوه. وفي ١٢ ايلـول ١٩٠٦ يسيران معًا على طريق عين صلاح ويصلانها في ٣٠. وكتب إلى ماري دي بوندي في تشرين الاول : " ان رجلي شُفيت تمامًا. فليس فقط اني اسـتطعت ان اسافر، بل قطعت نحو ثلث الطريق سيرًا على الاقدام. " وهناك ينفصلان، فعاد موتيلنسكي إلى قسنطينة، في حين ان الاخ شارل اتّجه نحو بني عبـاس. ومن هناك واصل السفر إلى الجزائر للالتقاء بالمونسنيور غيـران. وعاد من هناك مع رفيق هو الاخ ميشـيل. ومعًا اجتازا بني عباس، ثم اتّخذا طريـق الهوجّار. وفي مطلع شباط ١٩٠٧، وصلا إلى عين صلاح حيث اشترى بيتًا. وهناك سيضع اللمسـات الأخيرة لمعجمـه الأول بالفرنسـية - الطوارقيـة.

---

(٢) شارل دي فوكو و أ. دي كالاسانتي، نصوص طوارقية منثورة، الجزائر ١٩٢٢ (وقـد نشـرها رينيه باسيت). الطبعة النقدية والترجمة قام بها سالم شاكر وغيره في ايكس أن بروفنس ١٩٨٤.

٢٠- زمان تامنراست .....

وفي ٧ اذار، قرر الاستغناء عن رفيقه، معتبرًا اياه عاجزًا عن الذهاب إلى أبعـد. وفي ١٦، وصلـه الخبر المؤسـف لوفاة موتيلنسكي التي حدثت في ٢ آذار. وفي السنة اللاحقة سينشر باسم صديقـه المتوفى المعجم الذي انهاه، في حـين ان هذا الأخير لم يكن حـتى على علم بـهِ. وفي ١٨، ترك عين صلاح متوجهًا نحو الهوجّار وإلى أقصى الجنوب.

وخلال هذا السفر الثالث إلى الجنوب، نحو حدود مالي، وخلال أقاماته في المخيمات الطوارقية مـن نيسان حتى تموز ١٩٠٧، جمـعَ وكتـبَ اكثر من ٦٠٠٠ بيت من الشعر الطوارقـي، وسيشتغلها طوال السنوات التسـع التالية، لكي يترجمها ويضعها في سياقها التاريخي.

وفي ٢٨ نيسان كتب إلى ماري دي بوندي : " انا مسـرور من سـفري. وسنرى الكثير من سكان البلاد خلال الشهر الذي نُمضيه شبه مستقرين في هذه المنطقة. وهذا ما كنت ارغب فيه ". وفي ٢٨ أيار كتب ايضًا اليها يقول :

" استفيد من حـضور العديد من الطوارق لكي أتعرَّف اليهم واتلقـى وثائق عن لغتهم، وابارك الله على هذه الإقامة وهذا الاحتكاك، ولم يسبـق لي حـتى الآن احتكاك حميم مثله ".

ومن ثمة نشأة مشـروع يرمي إلى الإقامـة على بعـد ٦٠٠ كم جنوبـي تامنراست، في منطقة " تيم زواتن "، بالاضافة إلى مشروع السنة السابقة، في قلب الجبال.

الحقبة الثانية

في ٦ تموز ١٩٠٧، عاد شارل دي فوكو إلى منسكه في تامنراست :

" كانت عودتي إلى هنا عذبة، وقـد استقبلني السكان اسـتقبالاً جيدًا، وبودّ

اكثر مما كنت اتجاسر وارجوه. ويبدو ان الثقة تنشأ شيئا فشيئا[٣] ". ولكنه، ما إن وصل، حتى تمنى ان يعود إلى عين صلاح بسبب العمل اللغوي. فإنه كان مشتاقا إلى ان ينهي اسرع ما أمكن هذا العمل الذي يقلق حياته. وهو يريد ان يلتحق هناك بمعلمه. واخيرًا يجد في الموضع واحدًا افضل منه في شخص " با - حمّو " الذي لن يشاء من بعد الفراق عنه.

مع عمله في مشاريع سفر، فهو سيُمضي ثمانية عشر شهرًا دون ان يتحرك. وهذه الفترة هي دون شك احدى اكثر الفترات ذات المعنى في حياته الصحراوية، بسبب مرضه في شهر كانون الثاني ١٩٠٨، هذا المرض الذي سنتكلم عنه في موضع لاحق.

في مطلع سنة ١٩٠٩، عادَ إلى فرنسا للمرة الاولى منذ سنة ١٩٠١، واثناء وجوده في باريس، التقى الاب هوفلان، وأطلعه على مشاريعه التأسيسية في الجبل وفي الجنوب. والاب، الذي قرَّر ان يدع تلميذه يتبع " الغريزة " التي تدفعه، يؤيده ويشجعه. وغيابه عن الهوجّار لم يدم سوى خمسة اشهر، لأن إقامته في بني عباس، في ذهابه كما في عودته، لم تدم سوى وقت قصير.

الحقبة الثالثة

في ١١ حزيران ١٩٠٩، غادر إلى تامنراست لإقامة تدوم ١٨ شهرا. " لقد استأنفت حياتي سيرها المعتاد، وكأنه لم يكن ثمة انقطاع، عدا المزيد من الحركة والزيارات في اليوم الأول " (من الرسالة إلى ماري دي بوندي في ١٤ حزيران). لقد دخل إلى حياة سكان الهوجّار، وستكون هذه فترة الثمانية

(٣) رسائل إلى ماري دي بوندي، في ١٩٠٧/٧/١١

عشر شهرًا مختلفة جدًا عن سابقتها. فالبريد منتظم، ومرور العسكريين اكثر، وزيارات الرحل تكاد ان تكون يومية.

وكتب إلى رينيوت في ١١ نيسان ١٩١٠ : " ان حياتي لم تتغير البتة، انها حياة محصنة في تامنراست "، في حين انه يوجد على بُعد ٢٠٠ كم من " الحصن ". فقد كتبَ اليه اثناء الثانية من طلعتَيه اللتين تقسمان هذه الفترة. وكانت الطلعة الاولى في نهاية آب سنة ١٩٠٩. وكان قد أطلعَ عليها ماري دي بوندي في رسالة كتبها اليها في ٢ ايلول :

" لا اكتب اليك من تامنراست، بل من قرية مجاورة... يقضي لابرّين نحو خمسة عشر يومًا في زيارة القرى والمخيمات المجاورة في بقعة يبلغ قطرها ١٢٠ كم. وانا ارافقه، وهي لي فرصة للتعرّف إلى الكثير من الناس، وهذا أمر مهم جدًا ".

فالهدف نفسه كل حين، الا أن هذه الزيارات السريعة جدًا لا يسعها الا ان تنمي فيه الرغبة في البقاء بين الذين لا يراهم في تامنراست. وكتب في ١٤ حزيران ١٩٠٩ إلى الأب هوفلان :

" ان المنسكين في بلاد الطوارق، المخصَّصين لتكوين العلاقات مع القبائل التي لا أراها هنا، واللذين نصحتني بتأسيسهما، يسيران سيرًا حسنًا. ومن هذه الجهة ليس لي الا ان اشكر الله ".

ولكن في الحقيقة ليس شيء من هذا القبيل. ففي النصف الاول من أيلول ١٩٠٩، زار الأسكرم وفي ١٣ تشرين الاول، تكلم مع ماري دي بوندي عن مشروعَيه : الأول يقع على مسافة ٥٠٠ كم إلى الجنوب، والثاني على مسافة ١٠٠ كم شرقي تامنراست.

ولكنه في ٢١ تشـــرين الاول، من حصن موتيلنسكي، كتبَ من جديـــد إلى ماري دي بوندي ليطلب منها المال الضروري لبناء منسكين آخريـــن لا يقعان مثلما جاءَ في الرسالة السابقة : بل " الواحد في وسط الجبل على مسافة نحو ٦٠ كم في الشمال الشرقي من تامنراست، والآخر على مســـافة ٦٠٠ كم في الجنوب الغربي " انهمـــا نفس الموضعيـــن، الا ان المسافات والاتجاهات قـــد صُححت. فالاول لا يكون سوى الاسكرم. وسيتم بنـــاؤه في أيار - حزيـــران سنة ١٩١٠، دون ان يكون هو نفسه حاضرًا.

لقد اتّسمت سنة ١٩١٠ بعـــودة صديقه لابرّين إلى فرنســـا، وبموت ثلاثة اصدقاء آخرين هم : المونسنيور غيران في غردايـــة، ولاكروا في الجزائـــر، والاب هوفلان في باريس.

وفي مطلع كانون الثاني سنة ١٩١١، غادر الأخ شارل تامنراســـت ليقـــوم بسفره الثاني إلى فرنسا. وهو يتوخى ثلاثـــة اهداف : ان يلتقي مطرانه الجديد في الجزائر، وان ينشر اخويته التي يفكر في مشروعها منذ سنتين، وان يعمل المستحيل ليجد له رفيقًا. ولن يدوم غيابه سوى خمسة اشهر.

الحقبة الرابعة

في طريق العـــودة، وقبل وصوله إلى تامنراست، يطلـــع ماري دي بوندي على مشاريعه، في رسالة كتبها اليها في ٢ أيار : " آمـــل ان اكون غدًا في تامنراست. سأقضي فيها بضعـــة ايام، وبعد نحـــو ١٠ ايام، سأسكن في بيتكِ الريفي في الاسكرم " ولكنه في الواقع لن يسكن فيه مع " با - حمـــو " الا في ٦ تموز، وقد حمـــل معه، بالإضافـــة إلى الكتب والمخطوطات، تمويـــن شخصين لمدة ١٦ شهرًا.

٢٠- زمان تامنراست .....

على طاولته تتكدس الالوف من الاوراق التي تُعاد قراءَتها دومًا وتُصحَّح. على وتيرة العمل هذه ومع الموجات الاولى من البرد، يندهش لكونه لا يقاوم، وينسب تعبه والحمى إلى نقص البيض والخضراوات. وسيتحقق لاحقًا ان الافراط في العمل وضعه في هذه الحال. ولم ينتظر " با - حمو " هذا الوقت لكي يتشكى. فمنذ وصولهما، لا يكف عن التذمّر، وهو الآن يهدّد بالمغادرة. واذ ذاك قرَّر الاخ شارل ان ينزل إلى تامنراست، ويوقف العمل في مطلع كانون الأول، لانه قد أُرهق.

وفي ١٥ كانون الأول، عاد إلى تامنراست، ولن يستأنف العمل الا في كانون الثاني سنة ١٩١٢. وحياته مؤقتًا مشغولة بالصلاة وباستقبال جميع جيرانه بالتتابع، اذ بدأوا يصبحون اصدقاء له. وهذا ما يقوله لماري دي بوندي في الرسالة التي كتبها اليها في ٢٥ كانون الأول، بعد ان التمس مساعدتها المالية ازاء الشقاء الذي يحيط بهِ : " لقد وجدت تامنراست والشعوب المجاورة لها في حالة من الشقاء المرعب، وظننت أن عليَّ ان امنحَ صدقات اكثر بكثير مما كنتُ اتكهَّنه ".

وحينما استأنف عمله، تحقق " ان العمل في معجم عمل طويل ! فبمقدار ما نعرف، بمقدار ذلك نرى ما وراء ما نعرفه اشياء أخرى لا نعرفها. وهذه قصتي كل يوم ". وفي ٣١ آذار، كتب إلى ماري دي بوندي : " ان المعجم يتطلب مني وقتًا يتجاوز تكهّناتي. واذا نظمتُ حساباتي، اعتقد أني لن انتهي منه قبل خمسة او ستة اشهر ". ولكن ليس ثمة المعجم وحدَه. وهو يعترف في ١٦ أيار قائلاً : " لن أنهي تمامًا قبل ٣ أو ٤ سنوات ". وهو يشتغل بمواظبة أقل، لأنه يتلقى زيارات كثيرة، وهو نفسه يتنقل بسهولة أكثر في القرية.

في ٢٨ نيسان ١٩١٣، غادر تامنراست ليقوم بسفره الثالث إلى فرنسا. ويرافقه الأراغوزي الشاب الملقب " أُكسيم ". وهو الابن الثاني لصديقه " شيكات ".

في ٢٨ أيلول ١٩١٣، يبحران مـــن مارسيليا، وسيعودان إلى تامنراست في ٢٢ تشرين الثاني صباحًا. وقد اجتازا ذهابًا وايابًا بالجزائـــر وغردايـــة والغولية وعين صلاح، كما عرّجا على " تيميمون ".

الحقبة الخامسة

بعد السفر إلى فرنسا، تبدأ فترة من ثلاث سنوات في اكبر استقرار تقتضيه الأحداث ونهاية عمله اللغوي. انها فترة تختلف عن الفترات السابقة بمعنى انها مرتبطة كليًا بالحياة في الهوجّار. لا شيء غريب عنده. ولقد اصبح رغمًا عنه نقطة جاذبية للطوارق كما للفرنسيين الذين يتعاقبـــون في هذه المنطقة. وعذبة عنده صداقـــة هؤلاء واولئـــك. وهـــذا ما يردّده بارتياح. ولكنه يبقى ثابتًا بل " صارمًا " في ما يتعلق بالخير العام. وهذا ما يُقال وما تعرب عنه بعضٌ من رسائله. انه يصغي إلى الناس، ولا سيما إلى احتياجـــات افريقيا وإلى واجبات اوربا. يشعر بأن له رسالة شاملة ولا يكفّ عن العمل في سبيل " الاتحـــاد " الذي أسسه والذي افلح في تسجيل ٤٩ شخصًا فيه أثناء إقامته في فرنسا.

في ٣ أيلول حملَ بريد عاجل إلى تامنراست رسالة تخبر بأن المانيا اعلنت الحرب على فرنسا منذ ٣ آب. الا ان الاخ شارل يلتزم بوتيرة عمله طـــوال ١٠,٤٥ ساعة في النهار. ان الكتابة النهائية للمعجم الطوارقي - الفرنسي تتقدم بانتظام. وفـــي ١ كانـــون الثاني ١٩١٥، سيكون في الصفحـــة ١١٠٠ منـــه، وسينهيه في ٢٤ حزيران، بـــ ٢٠٢٨ صفحة. ولا يسعنا هنا ان نتكلم مفصلاً عن هذا العمل[٤] الذي يستغرق أكبر جزء من وقته. في حـــين انه يردّد على

(٤) في هذا الموضوع يمكن قراءة انطوان شاتلارا " شارل دي فوكو اللغوي والعالم رغمًا عنـــه "، باريس INALCO، دراسات ووثائق بربرية، عدد ١٣ لسنة ١٩٩٥،ص١٤٥-١٧٧.

٢٠- زمان تامنراست .....

الجميع ان واجبه هو ان يبقى في الموضع، ولكـــن سرعان ما يُطـــرح عليه السؤال بالذهاب للالتحاق بالمحاربين.

في مطلع سنـــة ١٩١٥، أُصيب من جديد بداءِ الحَفَـــر، ولكنـــه تغلب عليه سريعًا، وهو اذ ذاك منشغل بحالة انعدام الأمـــن المنتشرة مـــن جراء غارات بعض الغزاة. وفكرة اقامة قصر - مخزن او مخزن محصَّن فيه يستطيع اهل القرية ان يلجأوا إبان الخطـــر، تصبح اكثر فأكثر إلحاحًا. وبدأ بتصنيـــع اللبن الطيني في ٩ حزيران، قرب الموضـــع الذي اختاره رئيس قبيلـــة داغ غالي. والبناء الذي ابتدأ فـــي ١٧ آب مع پول مبارك الذي استعادَه إلى خدمته ســـنة ١٩١٤، سيتحقق بكامله بمساعدة سكان القرية، بدون أي مساعدة او تمويل من العسكريين. ونزولاً عند طلب جيرانه، حلَّ فيه في ٢٣ حزيران ســـنة ١٩١٦. وحضوره الدائـــم كـــان من شـــأنه ان يسهّل استخدامه الجماعي، وهو سيكون " أقرب اليهم ". ويستمر في نقل الاشعار الطوارقية، هذه النسخة التي سينهيها في ٢٨ تشرين الثاني، قبل موته بثلاثة ايام.

الا ان تهديدات جديدة تصبح اكثر الحاحًا تحت ضغط الأخوّة السنوسية التي تنظم الجهـــاد منذ طرابلس، هكذا نشـــأت فرق مسلَّحة. واحـــدى هذه الفـــرق ستعمل في تامنراست في ١ كانـــون الأول ١٩١٦ وســـتكون ســـبب مـــوت شارل دي فوكو[٥].

---

(٥) هذه الفترة الأخيرة من حياته وكذلك ظروف موته، معروضة بالتفصيل في كتابنا الذي ظهـــر حديثًا : انطوان شاتلار، موت شارل دي فوكو، باريس ٢٠٠٠.

-٢١-

القوة في الضعف

نتوقف الآن عند وقت متميز كان خبرة جديدة، في صميم حياة الاب شارل دي فوكو الصحراوية. وجاءَ الامر نتيجـــة اختيار ارادي في الاقتداء بالمسيح الفقير وفـــي العيش قريبًا مـــن الرجال والنساء الفقراء، في حالـــة فقـــر غير مبرمجة فرضتها قوة الأمـــور وكانت لناسكِ تامنراست تقدّمًا ممتازاً في شركة المقاسمة مع البشر.

المرض

الاثنين ٢٠ كانون الثاني ١٩٠٨ : فـــي غرفتـــه التـــي طولهـــا ٨ أمتـــار وعرضها ١,٧٥م، وقـــد طوّلها بـــغرفة اخرى. في هذا الموضع، له المصلى والسرير وطاولة الشغل والمكتبة والأوراق. وها هو الآن مسمَّر على ســـريره ولا يستطيع النهوض دون التعرّض للاختناق. انه يشعر بـــدنو الأجل. ويكتب في كراســـه في هـــذا التاريخ : " انـــا مريض. مضطر إلى إيقاف عملـــي. يا يسوع ومريم ويوسف، اعطيكم نفسي وروحي وحياتي ".

انه في الخمسين من سنه، وهـــو في منتصف حياتـــه الصحراوية (١٩٠١-١٩١٦). وبقي له ثماني سنوات للعيش. ومنذ بدءِ السنة يشـــعر بالتعب، ونومه ليس على ما يُرام ولا شهية له للطعام. فلا يعرف ما جرى له، وينســـب حالته هذه إلى البرد وإلى الافراط في العمل وإلى قلة النوم. انه مصـــاب بداء الحَرَف ضحية نقص في التغذية يظهر تحت مظهـــر فقر الدم. ولا عجب في الأمر، مع عدم اللحم وعـــدم تناول الخضراوات بكفاية. ولو كان يأكـــل الكفاية من الحنطة

والتمور ! لكنه لدى عودته من السفر في شهر تموز، اذ لاحظ ان الناس لم يكن لديهم ما يأكلون، وزّع كل ما كان قد خزنه، بدون ان يحتفظ بشيء كافٍ لنفسه.

" ان السنة صعبة للبلاد. فقد مضت سبعة عشر شهرا بدون مطر. وحلّت المجاعة بالبلاد التي تعيش خاصة من الحليب، وحيث يحيا الفقراء من الحليب فقط. والعنزات يابسة مثل الارض، والناس كذلك مثل العنز "[1].

ويعترينا الانذهال من مقطع مستَلٍّ من تأمل في الناصرة :

" لنتقاسم، لنتقاسم، لنتقاسم كل شيء معهم (اي مع الفقراء)، ولنعطِهم أفضل حصة. واذا لا يكون ما يكفي لاثنين، فلنعطِهم كل شيء. انما ليسوع نعطي [...] واذا ما اعطينا كل شيء لأجله، وله في اعضائه، فنموت من الجوع، فأي مصير مبارك اكثر من هذا [...] واذا، بدون ان نموت، مرضنا من جراء الحاجة، لأننا اعطينا المزيد ليسوع في اعضائه، فيا له من مرض مبارك ! وكم نكون سعداء ومميَّزون ومفضَّلون، وكم تكون نعمة الله، ويا للسعادة ان نكون مرضى لأجل هذا السبب ! ".

الم يسبقْ مدة طويلة في تكهُّنه بهذه الحالة ؟ وهل كان ما يزال يفكر فيها ؟

بحسب نظرياته النسكية : بقدر ما يأكل المرءُ قليلاً، بقدر ذلك يكون اكثر كمالاً. وكان قد كتبَ في زمان حياته النسكية في الناصرة : " ان لا نهتم بالصحة والحياة اكثر من اهتمام الشجرة بالورقة التي تسقط منها ". وصار ينظر إلى الأمور من زاوية أخرى. في ٧ كانون الثاني، كتبَ إلى لابرّين يطلب منه تموينًا، ومن بين الامور التي يطلبها الحليب المركَّز والخمر. وحينما وصلت هذه الرسالة إلى عين صلاح بعد خمسة عشر يومًا، ادرك

---

(١) رسائل إلى ماري دي بوندي، رسالة ١٩٠٧/٧/١٧.

المرسَل اليه خطورة الوضـــع. فكتب إلـــى المونسنيور غيران في ٣ شباط : " سأقول له اشياء جنونية واستميحك الأذن لأقول له إن التقشـــف الذي يصل إلى الانتحار التدريجي ليـــس مقبولاً "[٢]. وبعد ذلك بقليـــل : " ارسلت اليـــه توبيخا، لأني افترض ان الاماتات المبالغ بها هي السبب الكبـــير لضعفه، وان إرهاق عمله في المعجم أحدث الباقي "[٣].

ويتعلق الأمر ايضًا بافراط في الشغل. منذ ثلاثة اشهر، يرهق نفســـه لكي ينهي ترجمة النصوص النثرية التي ورثها بعد موت موتيلنسكي. في الحقيقـــة، انه يضع النص مجدّدا مع با - حمو، " وهو طوارقي ذكي جدًا وثرثار جدًا "، من شروق الشمس حتى غروبها، اي احدى عشرة ساعة كل يوم. لقـــد أُرهق التلميذ بهذه الطريقة من العمل. لذا فأنهما في شهر كانون الثاني لم يشتغلا الا بضع ســـاعات في اليوم. فهل سيبقـــى هذا العمل غير مكتمل، وهل ســـتضيع الالوف من الأوراق المصفوفة على طاولته ؟

عزلة القلب

قد يكون لهذا المرض ايضًا اسباب نفسانية. فمنذ ستة أشهر، لم يرَ شارل دي فوكو سوى عبور اثنين من الأوربيين : الســـيد دوبـــوا، اخصائي بـــعلم الاعراق، وقد اجتاز في شهر تشرين الأول، واليوتنان هالِفن، في شهر كانون الأول. هذه هي الزيارات الوحيدة التي تلقاها طوال احد عشـــر شـــهرًا. وهذا يعني ان البريد ينطلق نادرًا، بمناسبـــات غير امنية، وهو يأتي اقـــل من ذلك غالبًا. وفي ٧ كانون الثاني، تلقى الرسالة الأولى والوحيدة من ابنة عمته التي كانت تكتب اليه كل خمسة عشر يوما. وإذ وجد نفســـه محـــروما من العون

---

(٢) بازان، ص٣٥٥.

(٣) الموضع نفسه، ص٣٥٥.

الفعّال لهـــذه المودّة الحيوية، فقد جدَّدَ التقدمة التي عملها في اليـــوم الأول من الفراق، وذكر ذلك في الرسالة التي كتبها إليها في ذلك اليوم :

" اكتب اليكِ في بدايـــة هذا نهـــار ١٥ كانـــون الثاني، حيث تلقينا للمـــرة الاخيرة، جنبًا إلى جنب، الحبيب الأزلي. عسانا، يا أمي الحبيبة، ان نجتمع عند قدميه في السماء ! انك تشعرين كم اني معكِ اليوم ! والقـــول اني معكِ اكثر من الاعتيادي، لا اعرف هل يكون ذلك حقًا ! فانا معك دومًا إلى حد كبـــير، ولكني اليـــوم بمزيد من الانعطاف، وانا اعيش من جديد ذلك النهار قبـــل ١٨ سنة وساعاته الأخيرة، وأنا افكر اكثـــر في الاجتماع الأبدي، وارجـــو الحبيب، رغم خطاياي وشقائي، انه لن يردّني إلى الابد، لأني في ذلك اليوم اعطيته حقًا كل شيء لي... ليباركِ يسوع، يا أمي الحبيبة إلى الغاية، وليردّ لك البـــركة التي اعطيتني اياها في هذا اليوم، وليكن نصيبَكِ الأبدي في الوطن ! ".

يبقى الجرح مفتوحًا كما في اليوم الاول. فهو يعلم انه لن يراها قـــط، وان التضحية يجب ان تدوم حتى النهاية. فهل جاءت هذه النهاية ؟ ان ما يحـــفظه في الرجاء والســـلام، هو التفكير في انه اعطى لله، في تجرد كامل، اكبـــر ما كان في وسعه ان يقدمه له، ولم يبحث قط عن التقليل من التضحية، ويعلم ان الله لن يردّه.

ولم يشعر ابدًا بمثل هذه القوة بالعزلة التي تُبعده عن أحبائه. ولقـــياس هذا الحرمان، يجب ان نعرف المكان الذي تشغله المراسَلة في حياته. انها الوسيلة الوحيدة للتعبير المتبـــادل والإعلام. فلا شـــيء من الاب هوفلان، ولا رســـالة واحدة منذ سنتين. فالعزلة ثقيلة حينمـــا لا يرغب المرءُ فيهـــا، ولا ينبغي ان نسرد بسهولة ما كان يكتبه قبل سنتين لكي يُطمئن ابنة عمته بشأن هذه العزلة المغلقة. وهو يعرف الآن مثلما في سنة ١٩٠٥، اننا لسنا ابدًا وحيدين حينمـــا

يكون لدينا يسوع في سره، هو افضل الاصدقاء يمكننا التحدث إليه نهاراً وليلاً. ولكنه في هذه الساعة، كان يودّ لو ان واحدًا يكلّمه، وان يسمع صوتًا اخويًا وصديقًا. انه يجد نفسه وحيدًا كما كان في مراكش حيث رأى الموت عن قرب مثل اليوم. " لا مسيحي يمكن التكلم معه " : هكذا كان يتشكى حينذاك. ومهما قال الآن ان الأمر ليس لمجده بل لمجد الله، فان هذه الفكرة لا تكفي لتشجيعه.

العزلة

ان الخيبة اكبر حينما لا يرى احدًا من جيرانه يأتي إليه منذ اشهر. فالمستوطنون في القرية الذين يزرعون البساتين، وهم نحو اربعين شخصًا، سرعان ما أنفذوا امكاناته في منح الصدقات. فلم يبق لهم سبب يدفعهم إلى المجيء اليه. والرحل المنتشرون بسبب الجفاف لا يبدون أي سرعة في المجيء لمشاهدته، وليس ذلك بسبب البرد، كما يعتقد. وبدافع الرقة ولاسيما من حيث المبدأ، لا يبتعد عن الاكواخ الثلاثة التي مع " مصلاّه - السكرستيا "، تشكل " حصنه " الرمزي.

ولكنه جاءَ إلى هذه الجبال ليلتحق بشعب ظن انه مرسَل اليه. وخلال الاسفار التي قام بها في السنوات السابقة، التقى العديد من الرجال والنساء حيثما كانت المراعي تجمع الرّحل حولها، وتساءل عن سكناه في منطقة اكثر مركزية؛ على بعد ٦٠٠ كم في الجنوب، نحو " تين زواتن "، وكذلك اعلى من ذلك في الجبل، حيث تجتذب البرودة والامطار الرحَّل. لقد ذهبت الجهود التي بذلها ادراج الرياح لجعل نفسه قريبًا من الناس، وليس ثمة سوى القليل من الناس.

والأنكى من ذلك هو ان مجرد حضوره يبدو وكأنه يثير ردة فعل اسلامية.

فان موسى أغ أمستان، وهو زعيم الهوجّار، يسكن ايضًا بالقرب منه في الجهة العليا من القرية. وهو يفكر في جعل تامنراست " عاصمة " له. وبغيرة دينية ملحوظة، ينوي تغيير هذه القرية إلى بلدة اسلامية حقيقية. وفي سبيل ذلك، يستقدم من تـوات معلمين يعلمون القرآن واللغة العربية، وفي نظرة " المرابط " ينشر هؤلاء بين السكان روحًا شريرة ضد كل ما هو فرنسي ومسيحي. وبالإضافة إلى ذلك فإن موسى شرع يجمع الاموال في سبيل تشييد جامع وزاوية.

الغصّة لخلاص البشر

في هذه الحالة من الارهاق الجسدي والادبي، يُضحي الهمُّ في خلاص البشر غصّةَ حقيقية. فهو يرى روح الشر يناضل ضده ويعاكس عمله. كان يودّ ان يعمل لأجل خلاص هؤلاء الرجال والنساء القريبين منه والبعيدين في الوقت نفسه، ولكنه لا يستطيع ان يعمل شيئًا من بعد. انه يتذكر فكرة جاءته اثناء رياضته الأخيرة في شهر أيلول : بما ان الكهنة والرهبان لا يستجيبون لنداءاته وصلواته، الا يترتب عليه ان يوجّه النداء إلى العلمانيين وان يثير حركة في الرأي لكي يعي المسيحيون بواجبهم تجاه الشعوب التي استعمروها ؟ وفكر في الحث على وضع كتاب في هذا الشأن. وهو الآن يفكر في انشاء تعاونية من المؤمنين والكهنة يتعاونون في القيام بهذا الواجب. ولكنه الا يموت قبل ان يكتب هذا المشروع ؟

حياة بدون جدوى

لقد انتهى إلى العجز الكلي، ولا يسعه الا ان يشاهد فشل عمله وحتى حياته، بما انه لم يهتدِ حقًا. الم يكن من الافضل له ان يختار نوعًا من حياة

أنفع، ومكانًا ملائمًا اكثـــر ؟ وماذا جاءَ يعمل ههنا ؟ ومنذ اكثر من عشـــرين سنة قد استعاد الايمان. ولكن ماذا فعل ؟ كان قد هرب إلى صحارى الشـــرق الادنى لكي يضع بينه وبين العالم مسافة آمنة. وفي سبيل خلاص نفســـه، كان قد بحث عن حماية ديـــر، ثم خفاء حياة ناســـك في العزلة، بعيدًا عن العالـــم والناس، لكي لا يعيش الا لله. وكان الله قد اخرجه من هذه العزلة العذبة، لكي يعيده إلى الناس. واعتقد ان له رسالة خاصة وهي الذهاب إلى الأبعديـــن، إلى حيث لا يستطيع الآخرون الذهاب. الم يعتقد انه أفضل من الآخرين، وقادر ان يعمل ما لا يستطيع الآخرون عمله ؟

بدون افخارستيا

كان قد انطلق بعد رسامته ليحمل الوليمـــة (الافخارستيا) التي صار خادمًا لها. ولكن مـــن يهتم بما يريد مقاسمته ؟ ولماذا عادَ إلى هـــذه البلاد حيـــث لا يتسنى له حتى إقامة الافخارستيا ؟ ومنذ ستة اشهر، لم يفعل ذلك الا خمس مرات، منتهزًا فرصة اجتياز مسيحَيين ارادا " حضور " قداســـه. ألم يكن من الافضل له ان يبقى في بني عباس حيث كان يستطيع إقامة القداس كل يوم ؟ ألم يكن هذا انفع ما يمكنه ان يفعله لخلاص البشر ؟ حتى في عيد الميلاد ظل وحدَه بدون قداس للمرة الاولى منذ اهتدائه. وبالرغـــم من ذلك، كان قد اختار العودة والبقاء في وسط هؤلاء الناس اللامبالين. لماذا ؟ وهل كان هـــذا خطأه الاخير ؟ ومن دفعه إلى العمل هكذا وإلى تبرير اختياره ؟

أما كان يجب عليـــه، قبل ان يصبـــح دون حراك في ســـريره، ان يأخـــذ القربان المقدس مـــن بيت القربان ؟ وماذا سيكون اذا مات ؟ ولكن ايكون له الشجاعة ان يحرم نفسه من هذا الحضور الذي يعتبره السبب الوحيد لوجوده ؟ انه يؤمن ايمانًا ثابتًا ان هذا الحضور السري يشع على العالم. ان بيت القربان

على بضعة امتار من سريره، وهذا القرب ليس بدون أهمية له. ولم يعتقد قط انه يُسمح له بتناول القربان. ولكنـــه طرح هـــذا السؤال، وهو يرجو ان ينال يومًا الاذن بإقامة القداس وحدَه، ولو ان هذا السماح لم يُمنح ابدًا. فيسوع رب المستحيل، وهـــذا الحرمـــان يناقض قناعاتـــه الماضية إلى حد انه لا يتجاسر ويتحدث عنه إلى أســـرته واصدقائه. ولحســـن حظه انه يجهل المستقبل، وبعد بضعة اسابيع سيعلم انه لا يستطيع الحفاظ بالخبز المكرس في بيت القربـــان، طالما يكون وحدَه. فيأخذه اذ ذاك والغصة تملأ نفسه. ومدة ست سنوات سيظل مع بيت قربان فارغ، وهو مرغم علـــى إعادة النظر في مبادئه وقناعاته، بما انه سيبقى رغم ذلك.

" أسلم اليك ذاتي "

لا يعرف شارل دي فوكو " صلاة الاستسلام " التي سيكتشـــفها تلاميذه في كتاباتـــه. ورغم ذلك فهـــي صلاته الوحيـــدة في تلك الســـاعة، ولكن تحـــت أشكال أخرى.

لقد اشتاق كثيرًا إلى ذلك الوقت الذي من شأنه ان يتيـــح لـــه اللقاء بأخيه الحبيب وربه، ولكنه الآن متعلق بهذا القليـــل من الحياة الباقية له. ورغبته في الحياة تزداد. ولم يكن له قط مثل هـــذه الأســـباب التي تجعله يريد العيـــش. لا يمكن ان يموت هكذا، بدون ان يكون ثمة شـــخص يواصل المســـيرة. فثمة عمل كثير في سبيل هؤلاء الرجال والنساء.

وكان الطوارق واعين بمسؤوليتهم تجاه ضيفهم، لذا فإنهم كانوا يسرعون في عمل ما يمكنهم لإنقاذه بحســـب وسائلهم الفقيرة. وفي ذلك اليـــوم يحدث شـــيء يصعب تحديد مؤداه، وذلك في حياة الناس كما في حياة شارل دي فوكو. " لقد فتشوا لي عن جميع العنزات التي لها شيء من الحليب في ذلك الجفاف الرهيب،

في محيط قطره اربعة كيلـــومترات "[٤]. " لقد كانوا طيبين جدًا لي "[٥]. لقـد تأثر بلطفهم، ولكنـــه لا يدري أهميـــة التغيير الذي طـــرأ في علاقاتهم معهـــم، والاهتداء الحقيقي الذي يجريه الآن.

غنيٌّ مفرط

كان يريد ان يكون فقيرًا حسب الايديولوجيا الرهبانية، ولاسيما رغبـــةً في الاقتداء بيسوع الذي إذ كان غنيًا، جعل نفسه فقيرًا. فكان يسوع مرجعَه. ومن بعض النواحي، يعيش حياة أفقر من حياة بعضٍ من جيرانه. ولكن لا أحد قط رأى فيه فقيرًا. فاذا يتغذى بنوع رديء، واذا لا يعرف ان يلبس ثيابًا مناسبة، فلا شأن لهذه الامـــور مع الفقر. فبيتـــه مليء بأشـــياء للعطاء. وهو هنا لكي يعطي، وهذا دوره ومهمته بصفته " مرابط " مسيحي، بخلاف " المرابطين " المحليين الذين يجبون هبـــات الشعب مقابـــل بركتهم او علمهم. لا شـــك انه لا يجري توزيعات واسعة كما كـــان يفعل في بني عباس، وصارت صدقـــاته شخصية، ويسعه ان يحسب هباتـــه مقابل ما يعادلها من المال او المواد، وان ينظم لوائح للفقراء جسب الفئات، كما تشهـــد لذلك كراريســـه. ومع ذلك يبقى المحسن، المستعد للإعانة والتوزيع حسب احتياجات كل منهم.

وما يعطيه هو مالهُ وملكيته التي يديرها إذ يناشد أسرته من أجل الفقـــراء. وهو يعتبر نفسه مثل الأب الذي، حسب القديس بولـــس، عليه ان يعطي لا أن يأخذ (وكـان قد اشـــار إلى ذلك ســـنة ١٩٠٣ في بني عباس بشـــأن المكتب العربي). في سنة ١٩٠٤، في تقريره حول طريقة الســـفر في الصحراء، كان قد كتب بالتفصيل في ست صفحات في ما يتعلق بالصدقات (نقـــود، نســـيج،

---

(٤) رسالة كتبها إلى المونسنيور غيران في ١٩٠٨/١/٢٤ - راجع، مراسلات صحراوية، ص٥٩١.
(٥) رسالة إلى ماري دي بوندي في ١٩٠٨/٣/٨.

غذاء)، بحسب الحالات (في السير أو في الإقامة). وكـــان اذ ذاك يستنتج في منظور مرسَل حقيقي، " الا أقبل شـــيئا، الا ما كان قبوله ضروريًا، على الا تكون الا اموراً ذات قيمـــة زهيدة "[٦]. ونشـــعر بما يداخله من الخـــوف من الارتباط او من قبول رشوة. ولكن كيف السبيل إلى المقاســـمة بدون ان يكون مستعدا ليأخذ شيئًا ؟

قدير وعالم إلى حدّ الإفراط

كان يريد ان يكون صغيـــرًا وفي متناول الجميع، ومـــع ذلك فهو يلاحـــظ المسافة التي تفصله عن الذين كان يريد ان يكون قريبًا منهم. كان قد جاءَ مع العسكريـــن، وهـــو يتساءَل هل يتسنى للناس يومًـــا ان يميـــزوا بين الكهنـــة والعسكريين. ورغم صدقاته وثوبه الرهباني، يبقى وحدَه وبدون سلاح، الممثّل لهذه الارادة الغريبة التي يحذرون منها والتي يخافـــون منها. فانه، في نظـــر الناس، يمثّل سلطة.

ألم يأتِ هو نفسه مثل غازٍ ؟ وحتى اذا رفض لقب المرسَل، فالراهب الذي يريد ان يكونه لا يفكر الا في غزو النفوس. فهو يتكلم عن " تدجين " مثـــل العسكريين الذين منهم يستعير هذه الكلمة. جاء حاملاً الحضارة والايمان، وهو معتمد على علمه وخبراته. ولا يفكر الا في الخدمة وتوفير الخير العام للقبائل، ما وراء المصالح الخاصة. وبرمجَ التنمية الاقتصادية والتعليم في سبيل التقدّم. وهل فكّر في انه يجب قبل كل شيء ان يكتشف اناسًا من حضـــارة مختلفة، يعيشـــون في ايمان وثقافة يختلفان عما لديه ؟ وعندما يســـأل " با - حمو ". يشرع بالدخول إلى حوار حقيقي، ولكنه ما يزال منشـــغلاً بشـــأن إجازة علمه

---

(٦) شارل دي فوكو، كراس بني عباس، باريس ١٩٩٣، ص١١٦-١١٧.

وقناعاتهِ وعمله يضعــه على طريق الإصغاء المنتبه، وهذا هو الشــرط الأول لمقاسمة حقة. كيف يمكنه ان يطلب من الآخرين ان يسموه ما لم يكن مستعدًا ليصغي اليهم ؟

انقــلاب الأحــوال

في ذلك اليوم، لا شيء له من بعد، ولا يستطيع شــيئا. وفي الوقــت الذي فيه صــار عاجزًا كليًا وغيــر قادر على قول شــيء، وبكليته تابعًا لجيرانــه ومسلّمًا إلى قدرتهم، يشــعر هؤلاء بمسؤوليتهم تجاهه ويدخلــون إلى حياتــه. وكانت حالة التلاشي التي وضعــه فيها المرض ضرورية لكي يقدّم له ضيوفه شيئا ويعاملوه معاملة النِدّ. فمعه يتقاســمون غناهم : شيء من الحليب لينقذوا حياته. انهم يفعلون ما يستطيعون بحسب علمهــم، وما يعلمــون انه الأفضــل لخيره. انهم يعملون ما في وسعهم بحسب امكانات الوقت. وهــم لا يفكــرون ولا يحسبون النتيجة، انما يعملون ما هو الاعتيادي لإنقاذه.

وينتهي شهر كانون الثاني مثل قيامة. فقد استعادَ المريــض بعض قواه، وفي ٣١، تلقى رسالة من لابِرّين يخبره بأن له الســماح بإقامة القداس بدون خــادم. " نوئيل، نوئيل، الشكر لله " : هذا ما يكتبه في كراسه. وفي ١ شباط يبدأ بإقامة القداس وحدَه. وحاول استعادة العمــل، ولكنه اضطر إلى التخلّي عنــه. انما في منتصف شباط شرع يشتغل نصف الوقت، بعد الظهر مع " با - حــمو ". وفي مطلع آذار جاءُه جملان محملان بالمؤونة، أربعة أضعاف عما كان قد طلبه.

وفي كراسه، لم يبدأ بالتأشير إلى الزيارات إلا سنة ١٩١٣. الا ان مراسَلته تكشف عن ازديادها منذ شتاء ١٩٠٨.

" انا على مســافة ثلاثمئة او اربعمئة متر عن اكــواخ القرية. ليــس لي جيران قريبون وانا في عزلة كبيــرة بكفاية. ومع ذلك فاني ارى العديــد من

الناس الذين يأتون لزيارتي، اما انا فلا اذهب لرؤية أحد.

هذا ما كتبه إلى زوج اخته في ٢٦ آذار ١٩٠٨. وفي نهاية شهر حزيران، كتب لابرّين إلى المونسنيور غيران :

" انه بحالة حسنة جدًا يشعّ صحةً وبشاشة... وفي ٢٩ حزيران، أقبل إلى مخيّمي، وهو يركض مثل نائب ضابط على رأس فرقة من الفرسان الطوارق. انه شعبيٌّ عندهم اكثر من اي وقت آخر، وهو يقدّرهم اكثر فأكثر "[٧].

لقد أتاحت له هذه حالة الضعف والمرض ان يعيش علاقة جديدة مع هؤلاء الناس الذين سيصبحون اصدقاءه. انه اهتداء حقيقي، وتقدّم كبير في المقاسمة. وربما كان قد اعتقد ان في وسعه ان يستغني عن التبادل الذي يحدّد الصداقة، هذه الدرة النفيسة " والشيء النادر جدًا في هذا العالم " وهي التي ستساعده من الآن للحياة. كان قد فكر في ترك كل شيء، ويقبل بأن يتلقى الواحد بالمئة في هذا العالم. يُطلب منه ان يتجرد من نفسه، وعن بحثه الارادي المفرط عن الكمال الرهباني وعن مشاريعه المحسوبة إلى حد الافراط. وعليه أن يقبل نفسه، وان يكفّ عن ان يريد ان يكون انسانًا أسمى، وان يصبح انسانيًا اكثر اذ يبتدئ بأن ينام بكفاية وان يأكل بصورة صحيحة. لا شك انه قد نما في هذا التواضع الذي كان يؤثر في الذين التقوه.

ويبدأ ايضًا بقبول الآخرين كما هم عليه. فهو يقاسم هؤلاء الرجال والنساء الخبزَ والحليب، وكذلك كل ما يشكّل الحياة : اخبار جيدة وسيئة، مشاريع، أمنيات، مطالبات، ويجعل نفسه الناطق بلسان الجميع. فهو لا يكتفي من بعد بكتابة النصائح لموسى، ويسجّل النصائح التي يتلقاها من أكسيم او من غيرهم

---

(٧) بازان، ص٣٦٠.

والأخبار مـــن با – حمو. يدع المجال لكي يتعلق بأشخاص فتنشـــأ ارتباطات. هو الذي يترك المجال لأن " يُدَجَّن ". لا شـــك أنه يتقاســـم أفكارَ زمانه عن الاسلام، ويظن ان هذا الدين لا يقاوم التاريخ والفلسفة، كمـــا كتب ذلك فـــي ٩ حزيران إلى كاهن من فرساي. ولكنه يقـــول له ايضا " بمقـــدار ما أرى، بمقدار ذلك أعتقد ان لا مجال للبحث عن اجراء اهتداءات معزولة الآن ". وفي هذه السنة نفسها، سيسمعه الدكتور دوتفيل، من المذهب البروتستانتي، يقول :

" انا هنا ليـــس لاهدي الطـــوارق، بل لكي احـــاول ان افهمهم [...] أنت بروتستانتي، تيسير غيرَ مؤمن، والطوارق مسلمون. وأنا على يقين من ان الله سيقبلنا جميعنا اذا ما استحققنا ذلك "(٨).

مثـــلٌ للملكـــوت

لم يقس شارل دي فوكو أبعادَ هذا الحـــث ولا معناه. فهل يســـعنا ان نعمل ذلك عوضه، ونكتشف فيه مثلاً للملكوت، ونوراً يضيء حياته وحياتنا ؟ لم يكن الناس يتكلمـــون في ذلك الوقت عـــن " علامات الأزمنـــة "، ولا عن تمييـــز علامات الملكـــوت ليتعرفوا إلى الروح العامل في قلب كل انســـان. ومع ذلك، يبدو ان هذا الرجل أبدع في هذا التأويل وهذا التعرف. ويعبّر عن ذلك بلغـــة تختلف عن لغتنا. وهذا ليس انشـــغاله ولا لاهوته. وحينمـــا كتبَ المونســـنيور غيران إلى المونسنيور ليفينهاك في تشرين الثاني ١٩٠٤، كان يعترف ان الأخ شارل، مثل جميع الذين يقودهم روح الله، يعرف تقييم الظروف بنوع مدهش ". اليست محبة امرأة طوارقية هي التي كانت في الاصل من الدوافع التي اجتذبته إلى الهوجّار ؟

---

(٨) ليون لهورو، في الصحراء، مع الاب شارل دي فوكو، باريس ١٩٤٦، ص١١٥.

وإذا لم يعرف ان يقدّر أهمية ما كان يعيشه في ذلك الوقت، فذلك لأن لهذه حقائق الملكوت ميزة وهي انها لا تعطي مجالا لإدراكها بسهولة. انها مخفية. مثل الحنطة في الأرض، ومثل الخميرة في العجين. صعب ان نقول : انه ههنا او انه هناك، في حين انه في وسطنا او في داخلنا. وضآلة هذه العلامات وتفاهتها متميزة : قليل من حليب، وقليل من خبز. وينقلنا فكرنا إلى تلك الأرملة الفقيرة التي ألقت في صندوق الهيكل كل ما كان لها لمعيشتها. انه لشيء زهيد ! وإلى ذلك الشاب الذي اعطى بضعة أرغفة لتغذية جماعة جائعة. انها تافهة تجعل الاعجوبة ممكنة.

هذه العلامات لا تُدرَك لأنها اعتيادية جدًا : زيارة، حكمة، مبادرة، ابتسامة، دموع... اليس من طبعها ان تجري بنوع غير واعٍ ؟ " لتجهل يدك اليسرى ما تعمله يدُك اليمنى ! " " متى اعطيناك طعامًا ؟ " انها مثل البرق الذي يجتاز السماء، سريع مثل نظرات. ولكننا نعرف تلك النظرات التي تتلاقى وهي مثل الصواعق، انها لقاءات حقة، مثل تلك نظرات يسوع التي كانت تغيّر القلوب وتُضرمها.

كان شارل دي فوكو يعيش منشغلا " بإعطاء المثل الصالح ". ولا يبدو ان هذا الهم قد أحدث مفعوله. ولكن الجميع شهدوا للنتيجة التي أحدثها عليهم والتي لم يكن هو يفكر فيها : سعادة مشعّة، طيبةٌ قصوى، ووداعة متواضعة. وليس هذا ما يظهر دومًا في كتاباته. ومع ذلك فقد كان قد تعلم من الأب هوفلان ان المهم ليس ما نقوله او نفعله، بل ما نحن عليه.

وما الفائدة من القلق حينما نعتقد اننا نرى الشيطان يشوّش عمل الله ! قد نتلف بذلك النباتات الجيدة مع الرديئة. فاذا نمنا او سهرنا، واذا فكرنا في الأمر أم لا، فإن الملكوت ينمو دومًا. انما في يوم الحصاد يجري الاختيار.

ففي مشاريع موسى، لم تكن امور سيئة فقط. ولن يطول بهِ الامر لكي يتحقق من فشل مشاريعه ومن عدم نزاهة الذين خوّلهم بجمع الأموال اللازمة لها.

وفي الحدث الذي ذكرناه، علينا ان نتحقق من أن ابسط مبادرات الضيافة. اتّخذت بُعدًا غير متوقع. فحينما اضحى " المرابط " مريضًا فقيرًا، يتيح للذين يأتون لإنقاذه بأن يسمعوا هذا الكلام يومًا : " تعالوا، رثوا الملكوت، لاني كنتُ جائعًا فأطعمتموني، ومريضًا فزرتموني ". ان هذا لم يَعُدْ مثلا، بل حقيقة الملكوت، واذا فكر المريض في هذا، فربما تلقى الشجاعة التي كان يفتقر اليها، هو الذي كان يبحث بغصّة كيف يجلب لهم الخلاص.

واذا لم يستطع ان يدرك تمامًا ما عاشَه في ذلك الوقت، فقد أُعطي له ان يلاحظ الاساسي فيه. ففي الرسالة الاولى التي كتبها بعد مرضه إلى ابنة عمته في ٨ آذار ١٩٠٨، يعطي جوابًا على السؤال الذي تطرحه حياةُ الكثيرين التي تبدو بدون جدوى ظاهريًا، كما كانت حياة يسوع في الناصرة وفي الجلجلة :

" أي خير ما كان يسوع يفعله لو كان يبشر العالم طوال ايام حياته الخفية في الناصرة ؟ ومع ذلك فقد حكم انه يفعل خيرًا اكبر ببقائه في هذا الصمت... وابونا (الاب هوفلان) وصلبانه والخير الذي تمنعه امراضه من تحقيقه ! فذلك لان الله يعتبر انه يحقق خيرًا اكبر اذ يكون مع يسوع على الصليب... هناك سطران من القديس يوحنا الصليبي يسلّطان الضوء على هذا الأمر ".

ويستمر وهو يسرد القديس يوحنا الصليبي، كما سيفعل ذلك ايضًا في يوم موته عينه :

" انَّ تلاشينا لهو أقدر وسيلة لدينا لاتحادنا بيسوع ولتحقيق الخير للنفوس : وهذا ما يكرّره القديس يوحنا الصليبي في كل سطر تقريبًا. حينما نستطيع ان

نتألم ونحبّ، نستطيع الكثير، نستطيع اكثر ما يمكننا فعله في هذا العالم "[٩].

وهناك جملة اخرى، كتبها في وقت صعب من حياته، حينما استسلم كليًا إلى الطاعة، في كانون الأول ١٨٩٦، قبل شهر من مغادرته دير السكوتيين، تنقل لنا الرسالة نفسها :

" في الوقت الذي فيه كان يعقوب سائرًا في الطريق، فقيرًا ووحيدًا، واذ كان يرقد على الارض العارية في البرية لينال قسطًا من الراحة بعد طريق طويل سيرًا على الاقدام. وفي الوقت الذي فيه يعاني من هذه الحالة الاليمة كمسافر منعزل، في رحلة طويلة في بلاد غريبة وموحشة، دون مأوى. وفي الوقت الذي هو فيه في هذا الوضع الكسيف، غمره الله بإنعامات لا تُضاهَى "[١٠].

كثيرة هي في حياتنا هذه التغييرات في الحالة وهي تضطرنا إلى عبور خلال الموت. وحينما تضيق مسافة العيش، وحينما تبدو الحالة يائسة، وحينما تصبح كفاءتنا وتفانينا وغيرتنا عوائق، من الخير ان نتذكر تعليمًا قديمًا أوَّنه شارل دي فوكو وقد يصبح مصدر رجاء. فالأنبياء يعلّمون ان الله يتدخل حينما لا يستطيع الانسان شيئًا بعد. ويكرّر القديس بولس انه يضع فخرَه في ضعفه، لأنه علم من الربّ : " ان قوتي تكمل في الضعف (او المرض) ". ونسمع شارل دي فوكو وهو يُصدي لهذا التعليم اذ يقول : " ان ضعف الوسائل البشرية سبب للقوة " وهي تثبت الرجاء في صميم أوهاننا وضيقاتنا.

---

(٩) رسائل إلى ماري دي بوندي، الرسالة في ١٩١٦/١٢/١.

(١٠) من يستطيع، ص٧٦.

-٢٢-

راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة

اذا ارتقينا إلى أصل دعـوة شارل دي فوكـو، وهي الدعـوة نفسها مثـل اهتدائه، على حدّ قوله، ليس مـن شك ان حياة تأملية كلها هي وحدَها كانـت تتناسب مـع رغبته في الاقتداء باولئك الذين في السـابق كانـوا ينعزلون في المغاور او في البراري لكي لا يعيشوا الا لله وحدَه. ولا يجب البحث في ذلك عن ارادة ترمي إلى الاندماج في حياة العالم. بل كان الامر تمامًا على النقيض من ذلك. فان رجل العمل هـذا، رغبة منه في ان " يفوح لضياع ذاته "، هو المعمول للانتاج والفعّاليـة، اختـار ألا يحيا الا لله، دون أي غايـة اخـرى. وبالنظر إلى طبعه، فهـو لا يستطيع ان يعمل الأشياء مناصفةً، لذا فـان حياة معطاة كلها لله لا يمكن عيشها الا بعيدًا عن العالم، بعيدًا عن عالمه، في أكمل انفصال وأحسم ابتعاد، في الصمت والحصن. ولئلا يشذَّ كثيرًا، لا اختيار لـه سـوى الحياة الرهبانية كما هي في التقليد الكنسي في زمانه. ونفهم انه مـع الأب هوفلان قد استبعدَ كل صيغ الحياة الرهبانية الموجَّهة نحـو عمل مـا او نشاط رسولي.

واذ ترك كل ما كان يشكل سعادته، فهو ينفصل عن كل شيء، ويبتعد عن الجميع ويختار ان يحرم نفسه مـن جميع علاقات المـودّة والحب والصداقة. وذلك لكي يبدأ حياة مكوَّنة فقط من علاقة مع الله. ويجب الإلحاح على هـذه العلاقة الوحيدة، لأنه هكذا يرى في ذلك الوقت مكانه في رسـالة الكنيسة التي تعترف لمؤسسات الحياة التأملية بأهمية كبيرة جدًا، وهي تدعوها لتؤسس بيوتًا في بلدان الرسالة. واذ دخـل في هذا المنظور، عبَّر عن رغبته في الذهـاب والعيش في وسط غير مسيحي. وحينما يعيش هذا مطلق الافتراق والابتعـاد،

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

يفكر في انه يكمل وصية المحبة المزدوجة، محبة الله ومحبة القريب : العمل على خلاص البشر بعدم التفكير فيهم من بعد، وبعدم البحث الا عن مجد الله. وحينما دخل إلى دير السكوتيين، لم يعمل سوى تجسيد النداء الذي سمعه، والمثل الأعلى الذي لمحه في شوارع الناصرة، خلال حجّه سنة ١٨٨٩. فالله عاش طوال ثلاثين سنة في قرية الناصرة هذه، دون ان يتعرّف اليه أحد : يا لها من حياة خفية ! ويا للحياة الوضيعة ! ويا للتواضع ! فكانت طريقة العيش لدى السكوتيين تبدو اكثر تطابقا مع مثله الأعلى بسبب العمل اليدوي. وكان دير أقبس يستجيب تمامًا لرغبته في الفقر والابتعاد والحياة في بلاد مسلمة.

واذ اكتشف كيف كانت حياة يسوع، اكتشف بذلك كيف ستكون حياته، حياة مضادة للحياة التي عاشها إلى ذلك الوقت في الرخاء المادي والشهرة والمجد البشري والنجاح والموضع الذي فيه يُعرف المرءُ ويُعترف به. انها كانت حياة مليئة جدًا بنشاطات خلاقة ونافعة، بنشاطات تبتدئ وتتواصل حتى النهاية بأكمل طريقة، وبأقصى الدقة والروح العلمية. واذا اراد التغيير، فلن يكون لذلك الا بالعبور إلى الطرف الاقصى الآخر المضادّ. واذ أعطى لنفسه نموذجًا حياة يسوع في الناصرة، فلا يسعه ان يتخيَّل هذه الحياة الا بعكس ما هي عليه حياته.

ان هذا الادراك سيكون الأمر الجديد والخميرة التي تخمر عجينة حياته. ومثل الملح في الطعام ستعطي مذاقًا خاصًا لخبزه اليومي. وستكون القوة التي تدفعه في الحالات والمواضع الاكثر اختلافًا. وهذه الدفعة التي لا تُقاوَم، ستضطره إلى مغادرة دير السكوتيين " الذي كان يريد ان يرفع منزلته "، وحيث لم يكن فقيرًا بكفاية. وخلال سبع سنين من الأمانة في هذا النوع من الحياة حيث يفصل حصن الدير عن العالم، وحيث الصمت الدائم يعزل عن الرهبان الآخرين، وحيث القراءة والتأمل والصلاة الجماعية والفردية تجعل

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

الانسان يحيا في عالم آخر، وطريقة فيها العمل اليدوي هو انشغال تقوي وفي الوقت نفسه وسيلة للعيش. هذا كله خلق فيه ذهنية لن يتمكن من التخلي عنها. وستظل الحياة السكوتية المثل الاعلى لكل كمال، ومختلف عناصر الحياة الرهبانية ستكون له دومًا كمراجع. ولن يسعه ابدًا ان يتكلم عن حياته بعبارات اخرى، وستظل مفرداته ديرية دومًا للتعبير عن حياة ستصبح مع ذلك حياة رجل يعيش وحدَه، حتى حينما تُعاش هذه الحياة في وسط العالم، وفي شؤون العالم. هكذا سيصف حياته في تامنراست مثل حياة راهب يقوم في الوقت نفسه بمهام الرئيس والسكرستاني والمضيف والصيدلاني، ...الخ وهو في بني عباس يبني ديرًا. وكان بيت مريم ويوسف ويسوع، في تصوّره، ديرًا.

وهذه حياة الناصرة التي " بحث عنها في دير السكوتيين دون جدوى " ستبقى مثله الأعلى خلال السنوات التالية، بالقرب من الكلاريات، وفي الناصرة بالذات. فهناك ايضًا ينقل ويتصور ويخترع نموذجًا على مقياس ما يعيشه، ولا سيما على مقياس ما يودّ ان يعيشه مع آخرين. لذا فمن الصعب ان نجد في النصوص المكتوبة في ذلك الزمان أصالة الناصرة وما فيها من الخميرة الجديدة. والقانون الذي كتبه في الناصرة وظن انه يلغي عادات السكوتيين وتقاليدهم، سيكون في الواقع سلسلة من الفروض اكثر تفصيلاً مما لدى السكوتيين. وفي بني عباس، يقول انه راهب ويعتقد انه راهب لأن له حصنًا ديريًا. ونقرأ نصًا كتبه حينما كان على وشك مغادرة بني عباس :

" دعوتي هي الحصن : ولا ينبغي لي الخروج منه الا لسبب موجب. [...] لو تدرون كم اني مثل سمكة خارج الماء حالما اخرج من الحصن !... لستُ معمولاً لأخرج منه "[1].

---

(١) مراسلات صحراوية، ص٢٣٧.

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

وكذلك كتب في السنة اللاحقة : " اما تغيير المكان، والخروج من الحصن، لاسباب صحية، فهذا ما لم يفعله الرهبان الصالحون ولن يفعلوه ابدًا " [٢]. ولكن هذا لم يمنعه من الانجراف إلى الطريقة الارسالية الاكثر كلاسيكية، ومع اعمال لا تنتهي ومحاضرات تقوية، ومواعظ، وتوزيعات، وتحرير العبيد، ...الخ.

ولدى وصوله إلى تامنراست، يكشف له تغيير الحالة شيئا جديدًا في حياة يسوع، وبالنتيجة في طريقة تصوُّره الناصرة. فمن الآن لا يسعه ان يحلم بالعيش كراهب داخل حصن. فيرى يسوع دون زيّ رهباني، ودون حصن، وهو يشتغل ثماني ساعات في النهار، ولا يوزّع صدقات كبيرة، ويعطي مكانًا واسعًا جدًا للصلاة.

فهل ستكون حياته من الآن حياة مرسَل ؟ كلا، انه يرفض ذلك بوضوح : لا منعزل ولا مرسَل، وكان في سنة ١٩٠٦ يكتب إلى الأب كارون : " لستُ مرسلاً : لم يعطني الله ما يلزم لذلك. انما ابحث لكي اعيش حياة الناصرة ههنا ". وكتب في السنة التالية إلى المونسنيور غيران : " انا راهب ولستُ مرسَلاً، وانا معمول للصمت وليس للكلام "[٣]. وهو يرفض لقب المرسَل ويستمر في تسمية نفسه راهبًا، راهبًا بدون رِفاق، راهبًا في بلاد الرسالة، ولكن " ليس مرسَلاً ". المرسَلون في الصحراء هم الآباء البيض. وهو يريد ان يكون مختلفًا عن الآباء البيض، وفي سبيل التأشير إلى اختلافه والدفاع عن هويته الخاصة، فهو يقدّم ذاته دومًا كراهب. وقد رأيناه سنة ١٩٠٣، بعد زيارة مطرانه، وهو يقول انه لن يتبعه في ميله الخفي الذي يرمي إلى دفعه نحو الحياة الرسولية :

---

(٢) رسالة إلى ماري دي بوندي في ١١ نيسان ١٩٠٥.

(٣) مراسلات صحراوية، ص٥٢٨.

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

" ان هذا الميل الأخير لن أتبعه، اذ سأظن اني اكون غير أمين جدًا نحو الله، الذي منحني دعوة الحياة الخفية والصامتة، وليس حياة رجل الاقوال : الرهبان والمرسَلون هم جميعهم رسل ولكن بنوع مختلف. في هذا لن أتغير، وسأتبع طريقي "(٤).

قبل وصوله إلى تامنراست، في وسط المخيمات الطوارقية حيث كان منهمكا إلى الغاية بعلاقاته مع الناس وبالعمل الذي يريد تحقيقه، عبَّر للأب هوفلان عن قلقه وقال : " اذا كنتُ على خطأ بعملي هذا، واذا يترتب عليَّ ان اتخلى عن هذه الطريقة واتبع اخرى، تكلّمْ وسأطيعك "(٥). وحينما نعرف كيف عاش في تاغيت مدة شهر، في وسط الجرحى والجنود المرضى، نرى جيدًا الخلل الموجود بين فكرته عن دعوته والواقع الذي هو مدعو ليعيشه من خلال اللقاءات. وحينما نسمعه يتكلم عن اشمئزازه من الأسفار، نفكر في هذا الرجل الذي استعادَ معنى حياته في الثالثة والعشرين من سنه، بفضل حبه للأسفار وذوقه للمجازفة. اليس الآن في صدد التنكُّر لهويته الخاصة حينما يقول انه قلق من المجازفة والأسفار التي يشعر الآن تجاهها " باشمئزاز مفرط " ؟ لماذا ؟ " لأنها ليست جيدة للنفس، بسبب التشتّت ". فان العزلة وحياة الناصرة تناقضان هذه الأسفار في الصحراء التي يعتبرها حياة خدمة لا يريدها.

وحينما نقرأه، يظهر الأمر جليًا، ومع ذلك فمن الصعب ان يكون المرءُ اكثر تعقّدًا فيتوقف الأمر على اجراء خيار لمختلف دوافعه. وكما رأينا، فان هناك دوافع تأتي من الطبيعة، واخرى تأتي من القلب، وغيرها تأتي من العقل. ويبدو ان ليس له شبكة جيدة للقراءة لحياته الخاصة، ولكي يعرض

---

(٤) رسالة إلى الاب هوفلان في ١٩٠٣/٦/١.

(٥) رسالة إلى الاب هوفلان في ١٩٠٥/٧/١٣.

جميع مشاعره كتابة. وقد يكون هذا شرح التمزّق وسبب التناقضات الظاهرية. في الحقيقـــة، خياراته أبسط بكثيـــر، لأن الواجب الذي يفرض نفسه عليه ليس مضادا لرغبته الحقيقية، ولغريزته العميقـــة. وما يتدخـــل بين واجبه ورغبته، اليس شكلاً من ايديولوجيا يسميها دعوته ؟

وللتعبير عن هذه الدعـــوة، لا يتوصل إلى فصـــل حياة الناصرة، التي هي دعوته، عن المثل الأعلى الرهباني الذي فيه حبس فكرته عن الناصـــرة. وهذه المرجعية الخاطئة تحدّ من مسيرته وتعقّد لغته. ولكنها لـــن تمنعه من ان يحيا ويعمل ما يشعر بأنه مدعو للقيام بهِ. وهذا ما يعبّر عنه اذ يقول ويكرّر غالبًا في رسائله : " ان شعوري ورأيي الواضح جدًا هـــو ان عليَّ ... " ان اعمل هذا او ذاك. وبالنتيجة فان الحـــياة التي أمضاها في الصحـــراء طوال خمس عشرة سنة لا تتميز الا بصعوبة عن حياة أي مرسَـــل آخر. واذ يقارن الآباء البيض حياتهم بحياتـــه، استطاعوا ان يستخلصـــوا انهم كانوا يقومون بالعمـــل نفسه، مع هذا الفرق وهو انه لم يكن لديه مدرســـة ولم يكن يبني مستشفيات. في الحقيقة، كان الاختلاف يقع على صعيد آخر.

من الواضح انه يضادّ الآباء البيض اذ لا يريد ان يعظ. ولكن هؤلاء يكونون في الحالة نفســـها في الصحراء. وحتى اذا كان لهم اتجاهات واســـاليب مختلفة، فانهم ليسوا هناك للوعظ. اما لشـــارل دي فوكو، فكان دومًا من الواضـــح، ان تلك لم تكن دعوتـــه، أيا كان الوضـــع الذي فيه يوجد. وبهـــذا كان يتميـــز عن الفرنسيسكان وعن القديـــس فرنسيس الذي كان يحبـــه حبًا جمًا، " الوعظ ليـــس بالكلام على غرار القديس فرنسيس، بل بالصمت ".

اخيرًا، في محور الموهبة، مظهر اساســـي من دعوته الشـــخصية يعارضه بنوع واضـــح مع دعوات أخرى. انه المظهـــر الذي فيه تتجلى بوضوح اكبر

دعوته إلى الحياة الخفية. ولقد عبَّر عنه بلفظة " الظلمة " التي كثيرًا ما ترد في مفرداته ومفردات الأب هوفلان. واذا اختار الدخول إلى دير السكوتيين فإنما كان ذلك ليدخل إلى الظلمة وان يكون غير معروف، وان ينسى ماضيه، هذا الماضي الذي كان يظهر له مثل سعي وراء المجد البشري. ومن بين الاسباب التي دفعته إلى مغادرة الناصرة أنه كان معروفا. ولقد رأينا كيف انه في اورشليم، اختبر تجربة أن يكون منظورا. ولو انه لا يستخدم هذا الكلام، الا ان اقواله كانت تشير إلى ذلك ! " واذ عاد إلى ظلمة الناصرة، يشكر مرشدَه على انه انقذه : انتَ الذي دافعت عني ضد هذه التجارب [...] التي لكنتُ اسقط فيها بدونك "[٦]. لكنه في السنة التالية سقط بنوع آخر، اذ وقع في فخ جبل التطويبات. ولكن سيخرج من ذلك بعض الخير وقناعة قوية : ومع كونه كاهنا، فان الرب يدعوه ليحيا حياة خفية، في الظل وفي الظلمة، في حين ان كل شيء فيه كان من شأنه ان يحمله على البحث عن الانتاج والفعالية والمنفعة المباشرة وعن الظهور.

اليوم، تظهر حياته للجميع مثل مجازفة خارقة، سواء كان شبابه، او اهتداؤه، او حياته النسكية في الناصرة، او حياته غير الاعتيادية في تامنراست. انها الجهة الوسيلية التي تثير الحماس ولكنها تستطيع ان تُخفي حقيقة ما عاشه كل يوم، وتمنع من التعرّف إلى الرسالة المركزية لهذه الحياة. وقناعته بواجب البقاء في الخفاء تشرح رفضَه القاطع لظهور اسمه في نشر اعماله اللغوية. ومع ذلك لا تنقص الحجج المتينة الآتية سواء من جهة أصدقائه مثل لابرّين، او من رجال الفكر مثل السيد باسيت، او من ممثلي الكنيسة المخوَّلين. وقد يكون من المفيد ان نتوقف طويلا عند هذه الوجهة ذات

---

(٦) رسالة إلى الأب هوفلان في ١٩٠٠/٢/٨.

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

المعنى التي تشـــرح لنا ما يضعـــه من المعنى تحت لقب الراهب، اذ يحـــدّد طريقه الخاصة بهِ.

في ٣١ أيار ١٩٠٧، كتب إلى المونسنيور غيران :

" ناشدتُ لابرّين ان ينشر بواسطة اي كان، مثل شـــيء يعود اليه ويعود إلى القائد العسكري للواحات، القواعد الطوارقية والمعجم الفرنسي – الطوارقي اللذين انتهيا، وكذلك المعجم الطوارقي – الفرنســـي الذي اشتغل فيه، والأشـــعار التي جمعتُها، بشرط واحـــد هو الا يظهـــر اســـمي، وان ابقى مجهولاً تمامًا وغيـــر معروف ".

واذ قرأ المونسنيور غيران هذه الاسطـــر، استشار بالاب فوالارد. وسيتكلم عن ذلك في رسالة الأول من ايلول، ولكنه لن تصل إلى تامنراست الا ثمانية اشهـــر بعد ذلك. وسيكتب رسالة ثانية ثم رسالـــة ثالثة تصل في مطلع كانون الثاني قبل الرسالتيـــن السابقتيـــن، انها فترة العزلـــة الكبيرة، بدون بريد، وقد ابتدأت في تامنراست في شهر تموز سنة ١٩٠٧، وستنتهي بالإرهاق والمرض في مطلع سنة ١٩٠٨.

اخيرًا وصل تامنراست في ١٥ كانون الثاني بريد لا يحمـــل ســـوى بضع رسائل. ويتلقى الأخ شارل الرسالة المؤرخة في ١٨ تشرين الاول. وفيها كان المونسنيور غيران يكتب اليه :

" أتسمح لـــي بأن اقول لك كم انـــي متأســـف ان ارى ان الاعمـــال التي وضعتها في تامنراست والتي وجهتها إلى الســـيد باسيت او سترسلها اليه وهي تنشر تحت اســـم غريب... في الوقت الحاضـــر، كما كنتُ اقـــول لك، حيث يتهجم الناس على الدين كثيرًا، لا ينبغي لأبنائه، بتواضع مزيَّف، ان يخفوا ما يُنتجونه لاكرامه ".

ثم يضيف :

" مازال لك امكانيـــة وسهولة لأن تقول كلمة للكولونيـــل الذي هو ايضًا، مثلنا، يأسف لهذا التصرّف، وان توقع بكل بساطة بحوثك في المعجم والقواعد، ولن يستمد منها دي فوكو اي افتخار، والراهب يقدّم بذلك لأمه الكنيسة مشاعر الإكرام والمحبة ".

في ١٥ كانون الثاني، يوم الذكـــرى ويوم الميلاد، جدَّد فيه تقدمة التضحية. والجواب الذي كتبه الأخ شارل يتّسم بمزيد من القوة، بالنظر إلى حالة التعب عنده. انها رسالة طويلة، نقرأ بعض السطور من وسطها :

" يا حبيبي، يا ابـــي الحبيب، ابدًا، ابدًا، ابدًا لن اســـمح بأن يُنشر شـــيء باسمي طالما أنا حيّ، وسأمنع منعًا باتًا من عمل ذلك بعد موتي... ليست هذه هي الوســـائل التي منحـــها لنا يســـوع لكي نواصل عمل خلاص العالم... ان الوسائـــل التي استخدمها في المغارة، وفي الناصـــرة، وعلى الصليب، هي : الفقر، والهوان، والاتضاع، والاهمال، والاضطهاد، والالم، والصليب. هذه هي اسلحتنا، اسلحـــة عريسنا الإلهي الذي يطلب منا ان ندعـــه يواصل فينا حياته، وهو المحب الوحيـــد [...] والحقيقة الوحيدة، لـــن نجـــد أفضل منه، وهـــو لم يشخ... لنتبع هذا النموذج الاوحد، ونحن على يقين من اننا سنعمل الكثير من الخير، اذ منذئذ لن نكون نحـــن الذين نحيا، بل هـــو الذي يحيا فينا، وافعالنا ليست من بعد افعالنا الخاصة بنا، بشرية وبائسة، بل افعاله الفعّالة إلهيًا ".

وفي ملحق هذه الرسالة، يعود إلى الأساسي :

" غني عن القول، يا ابتِ الحبيب، اني أصر اصرارا مطلقا على ان يجهل الناس الحصة التي اتخذتها في المعاجم الصغيرة، ...الخ التي تظهر في اعمال موتيلنسكي. وسأعتبر شرًا جسيمًا، اذ تظهر هذه الاشياء باسمه فقط، ان يقـــال

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

اني قد أسهمتُ فيها [...] سامحني، يا ابتِ الغالي والجليل والحبيب جدًا، بـأن أعود إلى ذكر هذه الامور : انا راهب قد متُّ عـن العالم، وأُصِـرُّ على ان اكون كذلك تمامًا ".

هذا ما يعنيه بكلمـة " راهب ". ولا يتوقف الامر من بعـد على الحصن فقط[٧]. كان هذا الحصـن في الأصل يهدف، مع الابتعاد، إلى وضعه في هذه حالة الظلمة والخفاء وإلى عدم ظهوره بأي نوع كان.

ان هذا الخفاء، وهذه الارادة المطلقـة في ان يكون مجهولاً، هي الحـصن الجديد للراهب العالم.

ان الرسالـة التي أجاب عليها في ١٥ كانون الثاني، هي الرسالـة الاخيرة التي كتبها المونسنيور غيران. اما الرسائل السابقة فلم تصل إلى تامنراست الا بعد شهر ونصـف، في ٢٩ شباط، مع كل البريـد المتأخر اكثر من ستة إلى ثمانية اشهر. ويقرأ في رسالة كتبها المونسنيور غيران في ١ ايلول :

" اعود إلى اعمالك اللغوية لكي أبلغك من قبـل الأب فوالارد تعبير توبيخ محترم، او في الاقل التعبير عـن أسف - وحتى يتجرأ ويوبّخك عليه - انه يأسف ان يراك تنشـر جميـع اعمالك اذ تتوارى كليا. يبدو لـه فـي الوقت الحاضر - نتيجة لجميع التهجمات على الكنيسة - انه كان على تواضعك ان يتنازل امام محبة الكنيسة وكرامتها. وما كان عليك ان تخاف التوقيـع بصفتك كاهنا وراهبا، على جميع الأعمال التي قمتَ بها. اراك من هنا، ايها الصديق الحبيب، تبعد هذه الاعتبارات وكأنهـا بشريـة جدا. ولكني لا اعلـم هل انها ليست، أحكمَ الاعتبارات وأجدرها بالدفع على تكريم الله. فَكّرْ في الامر، وربما

---

(٧) يكتب في ٢٦ آذار ١٩٠٨ إلى زوج اخته : " يأتي الناس لرؤيتي وانا لا اذهب لأرى أحدًا. اني متشبّث بحصني ".

اضغط على نفسك لكي تسحب من الكولونيل لابرّين والسيد باسيت المنع الذي وجهته اليهما بعد إظهار اسمك. كن على يقين انك في هذه الحال لست المعني الوحيد. بل يتوقف الأمر على الحفظ وعلى نشر شرف الله والكنيسة التي عليك ان تحبها ".

في هذا البريد نفسه، تلقى ايضًا رسالة اخرى من المونسنيور غيران مؤرخة في ٢١ أيلول. وجاء فيها :

" من المؤكد في جميع أوجه النظر ان اعمالك بلغة " تماشك " مهمة جدا. فلا يسعني اذا الا ان أشجعّك في كل ما يتعلق بإنمائها. وهذه فرصة لي لكي اكرّر لك كم يبدو لي من الأفضل لو أنك أسكت قليلا تواضعَك، لكي تسمح بنشر الوثائق التي ترسلها إلى الجزائر باسمك اي باسم الأب دي فوكو وليس دي فوكو وحدها بل الأب دي فوكو، الا اذا فضلت توقيعها باسمك الرهباني، " الأخ شارل يسوع ". وسيكون بهذا النشر باسمك فرصة توفّر فيها في هذا الوقت شرفًا للكنيسة لا يجب الاستهانة بهِ. اقول لك هذه الأمور بأشد التأكيد بقدر ما أعرف اني بذلك انما اعرب لك عن شعور أناس مخوّلين اكثر مني ".

هاتان الرسالتان دفعتا إلى جواب جديد على الحجج التي قدَّمها المونسنيور غيران والأب فوالارد. وكتب هذا الجواب في ٦ آذار :

" في ما يخص بالتوقيع باسمي على الأعمال اللغوية، بالرغم من سلطة الاب فوالارد، الذي احمل تجاهه الثقة والاحترام، وبالرغم من سلطتك، فاني لا أغيّر شعوري... وما تقوله انت من المحتمل ان يكون صحيحًا لأحد من الآباء البيض، ولكنه ليس لي أنا الذي خصصتُ ذاتي لحياة يسوع الخفية في الناصرة، ولخفائه وصمته ".

ونرى اختلافًا طفيفًا بين هذه الرسالة والرسالة الأولى التي كتبها في

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

١٥ كانون الثاني. فهـو الآن لا يعمّم. فقـد جاء في الرسـالة الاولى : " ان هذه ليسـت وسائلنا وليسـت اسلحتنا " وكان الأمر للجميـع. اما الآن فيكتفي بالاشارة إلى اختلافـه إزاء الحجج : " من المحتمل ان يكـون صحيحًا لأحد من الآباء البيض، ولكنه ليس لي ". فان هذه احدى مميزات موهبتـه. ويمكننا ان نلاحظ ان تأكيد الراهب يُعادل تأكيد اسقفه. فلا اثر لأي تردد في التأكيـد على ما يعتبره اساسيًا. فهو لا يعمّم بعد الآن، ولكنه يؤشر إلى اختلافه، وهو يعلم ما عليه ان يفعله. وحينمـا يقاوم بمثل هذه القوة نصائح مخوَّلة، يظهـر بذلك الوعي الذي لديه بموضعه في رسالة الكنيسة.

اليست هذه اصالة دعوته الشخصية ؟ وماذا تراه يُخفي تحت لقب الراهب ؟ فهو ليس مرسَلاً حسب طريقة الآخرين. ووسائله في تمجيد الله ليست نفسـها. وما هو صحيـح للآخرين ليس صحيحًا له، لأنه مدعو إلى حياة خفيـة مثل يسوع في الناصـرة. وللجواب على هذا النداء كان قد انعزل في دير، وحاول العيش في الناصرة. والآن في غمرة نشاطات حياة شبيهة بحياة المرسَلين، في تكوين عمل علمي كما في العلاقات العديدة مع الجيران والأصدقاء، يريد ايضًا ان يجيب على هـذا النداء. كيف يسعنا الا نبحث الا عن مجد الله ما لم يكن يرفض كل ما من شأنه ارضاء المجد الشخصي ؟ حتى لشرف الكنيسة. لربما نقول انه يبالغ، ولكنه تجاوز المقياس دومًا، ذاهبًا من أقصى إلى آخر. ان ما يميّز طبعه هو أنه لا يرضى بالحل الوسط. عليه ان يهدف إلى الأكمل، اذ لا يسعه ان يعمل أقل مما فعله في شـبابه في سبيل ملذاته ومجده الخاص. لـذا فانه لا يريـد ان يُصطاد بكبرياء المؤلف، بكبرياء شـبابه الذي كان صديقـه البروفسور غوتييه يعتبره " سامًّا اكثر من الكل ".

واذا قبل القيام بهذا العمـل ومواصلته حتى النهاية بكمـال، ذلك لأنه كان متأكدًا من ان الكتاب سيظهر باسم شخص آخر. وهذا العمل، مهما كان رائعًا،

لم يكن يسعه ان يولي حياته معنى. فهو لا يرفض القيام بالعمل، ولكنه يرفض ان يضع نفسه في المقدمة، حتى اذا كان ذلك للشرف الذي تجنيه منه الكنيسة. وليست هذه في نظره الوسيلة لاكرام الله. وهكذا فهو ينضمُّ إلى محور الرسالة الانجيلية " لا تعلم شمالك ما تعمله يمينك ". ونحن هنا في صميم ندائه الشخصي. وبأمانته لهذا النداء سيكمل رسالته وسيُجيز في الكنيسة رسالة جديدة، هذه الرسالة المحتواة في ما يدعوه " حياة يسوع الخفية في الناصرة ". ان الكنيسة، مثل مدينة مبنية على جبل، لا يمكن الا تكون منظورة. الا ان تجربة المشهد، وتجربة اجتذاب الانظار والعمل بحيث يراها الناس، هذه التجربة تبقى دائما حقيقية[٨].

وفي حياة يسوع العلنية ايضًا هذا مظهر السر والخفاء وعدم المنظورية واستبعاد المشاهد، ولا يمكن القضاء على هذا المظهر، يبقى يسوع في الناصرة في حياته كلها حتى موته. وقد قيَّمَ الأخ شارل هذا المظهر اذ ألحَّ على الخفاء، خفاء الكلمة المتجسد الذي، خلال السنوات الثلاثين التي امضاها في الناصرة، كان في نظر الجميع رجلاً مثل سائر الناس. وما كان مخفيًا في حياته كانت علاقته الوحيدة بالآب، وكيانه الإلهي، اي ما هو المهم. وبالرغم من المظاهر، ظل شارل دي فوكو أمينًا لهذا المفهوم الأصلي حتى موته، أيًا كانت الاماكن والنشاطات، في الابتعاد عن الناس او الاقتراب منهم.

ان التخلي عن اتّباع هذا النداء للدخول في منظور الآخرين، حتى اذا كانوا اشخاصًا ذوي السلطة، الا يكون ذلك انه يضع تحت المكيال النورَ الذي سُلِّمَ اليه ؟ ان هذا النور، وهذه الرسالة الخاصة، وهذه الدعوة، لا يحق له ان يضعها تحت المكيال. وهذا ما يحدوه إلى مقاومة كل الاغراءات. فهو لم يفكر

---

(٨) راجع متى ٦/١-٥.

كثيرًا في مؤدّى رفضه القاطـــع. انما يتصرف ببســاطة بحسب كيانه العميق، وينقاد إلى الغريزة، وإلى هذه القــوة التي تدفعه، مثل النبع الذي يجري والذي لا يمكن إيقافه.

قد يحتج البعض ويقولون انه بعــد ذلك، في ظروف اخرى، لا يرفض ان يُسمى مرسلاً، ولكن لا يمكن فهمه بدون ان نأخذ بعين الاعتبار كل ما قيــل الآن. فهل وجدَ عبارة جديدة حينما سمى نفسه " راهبًا - مرسَلاً " ؟

ان هذه التسميــة وردت في رسالة وجهها فــي ١٣ أيار ١٩١١ إلى الأب أنطونان جويّيه[٩]. لقد اعطوا أهمية كبــيرة لهذا النص الذي يختلف كثيرًا عن قانون سنة ١٨٩٩. وكُتب لدى عودته من سفــره الثاني إلى فرنسا. في حين يسعى شارل دي فوكو في طــرح تنظيم على غرار نظام رهباني " مثل نوع من الرهبنة الثالثة " كما يقول (لنظام رهباني غير موجود بعد). وفي حين ان المؤسس، الذي يبدأ بتوقيــع الاخ شارل دي فوكــو، وليس الاخ شارل يسوع، يزداد وعيًا بعدم وجود مؤسسته الرهبانية خارج كتابات وُلدت من حلمــه ومن مخيلته الخلاّقة.

ان الأهمية التي تُعطى لهذا النص نجد تبــريرها من انه حقــق له نســخة يمكن ان يستخدمها آخرون بالإضافة إلى المرسَل اليه. اما هذا الأخير فراهب سكوتي من دير سيدة الثلوج الذي أطلعه على رغبة العديد من الرهبان في ان يعيشوا حياة رســولية اكثر مما هي عليه في دير السكوتيين. والرســالة التي كتبها شارل دي فوكــو هي من الواضح إظهار لاجتذاب رفاق اذ يبرهن لهم عن ان الحياة التي باستطاعتهم ان يعيشوها في تامنراست او في موضع آخر

---

(٩) وكنا نجدها في الرسالة التي سردناها ســابقًا والمؤرخة في ٢٨ آذار سنة ١٩٠٨ إلى زوج اختــه في صدد الحصن والزيارات : " ابقى راهبًا، راهبًا في بلاد الرسالة، راهبًا - مرسلاً وليس مرسَلاً ".

هي بالضبط الحياة التي يتوقون اليها. ان وصف نوعية الحياة لا يرجع إلى ماهية الحياة التي يعيشها في تامنراست، بل إلى ما يمكن عيشه بصورة مثلى لو كانوا اثنين او ثلاثة او اكثر.

وفي سنة ١٩٠٥، اذ وجّه كلامه إلى كاهنٍ من مدينة نيم يسمى الاب فيراس، يدعوه للمجيء بدون شروط :

" ان ما اتوخاه في هذا الوقت ليس خلية من نفوس تدخل ضمن اطار حياة ثابتة لكي تعيش نوعا من الحياة المرسومة جيدا... كلا فان ما اتوخاه الآن هي نفس ذات ارادة صالحة، تقبل بأن تشاطرني حياتي، في الفقر والخفاء، بدون اي قانون معيَّن، وهي تتبع ميلها، كما أنا اتبع ميلي "(١٠).

واذ يوجّه الآن الكلام إلى رهبان وبصورة غير مباشرة إلى كهنة أبرشيين، يعرض لهم حياة رهبانية. ولكن اذ يريدون ان يكونوا مرسَلين، فيصيرون رهباناً – مرسَلين. وماذا يعني هذا ؟ في الواقع، سيتخلّون عن العمل اليدوي لكي يعكفوا على عمل رسولي اكثر يستوعب نصف وقتهم او حتى وقتهم كله اذا ما رغبوا في ذلك. وما يصبح الأهم، هو ان يعملوا كل ما في وسعهم عمله في سبيل اهتداء غير المؤمنين. وتجتاز الحياة الرهبانية إلى الصعيد الثاني، وينتهي الأمر إلى فرق صغيرة، كما جاء في أحد مشاريع شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٨ (ثلاثة او اربعة، او حتى واحد او اثنين : تفرُّقٌ يعتبره اكثر فاعلية) في حين انه، منذ سنة ١٨٩٩، كان قد فضّل ديورةً اكثر عدداً، ليتسنى لهم عرض القربان المقدس على الدوام. ولاجتذاب المرشحين، يرى نفسه مضطرًا إلى عرض قانون يختلف عن قانون السكوتيين. فهو يريده اكثر مرونة وأقل تدقيقاً من عاداتهم وتقاليدهم. ان الحياة العائلية البسيطة جدًا التي

---

(١٠) رسالة إلى الأب فيراس في ١٩٠٥/١٢/٣.

يقترحها، حيث كل شيء يتم " في ساعته وحسب طاعة تامة " هي حياة القانون الذي يتضمن توصيات خارجية أدقّ مما هي عليه في دير السكوتيين. وهذا هو ثمن طبع استكمالي لا يستطيع التحرّر منه. فهو لا يبحث عن محاربة هذه الرذيلة، اذ هو غير واعٍ بها. في الحياة الاعتيادية، تجعله الاحداث والناس يعيش في حرية الروح، ولكنه ما ان يضع مشاريعه قيد الكتابة، حتى يسقط سريعًا في النزعة الاستكمالية، واذا يكتب للآخرين، فيكون ذلك بانشاء تعليمي : يجب الا يُترك شيء للارتجالية والشك.

ولنلاحظ ايضًا انه لم يكن يريد " سوى كهنة، وكهنة ممتازين وناضجين ". وهذا التحديد في الاختيار يتجاوب مع ضرورة مباشرة، الا ان هذه الصيغة المحدّدة التي تحتفظ بندائها لأناس فضلاء إلى حد كبير. ان لم يكونوا كهنة، او " مثاليين " ان كانوا كهنة، لا يسعها ان تشجّع المرشحين. فمن ذا الذي يمكنه ان يرى ذاته في النموذج الذي يقتضيه ؟

ويكون من الخطأ ان نصدّق ان هذه الرسالة تصف حياة شارل دي فوكو في تامنراست، خطأ في القراءة لا يقيم وزنًا للنوع الأدبي. ويكفي ان نقابل هذه الرسالة بجدول توقيته اليومي الذي كتبه في السنة نفسها لكي نتحقق ان التوقيت الديري الذي يبرمج النهار إلى ٣ × ٨ في هذه الرسالة لا يتناسب ابدًا مع توقيته حيث العمل، الذي ليس يدويًا، يشغل ١٠,٤٥ ساعة. ونعرف أيضًا انه لا يقسم وقته من بعد، كما يدعونا إلى التصديق، بين " منشآته الأربع "، ولو أنه عرّج على بني عباس في طريق عودته من فرنسا. فانه لم يُمضِ فيها سوى ثلاثة أيام، ولن يعود اليها ابدًا. ولا نلقى من جديد تعبير " الراهب – المرسَل " سوى في رسالة اخرى كتبها إلى الأب كروزييه في التاريخ نفسه.

فهل في رسالة معزولة أرسلها إلى اشخاص عديدين، يمكننا ان نجد المرحلة

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

الاخيرة من تطوّر شارل دي فوكو في صياغة مفهوم مثله الأعلى ؟ لقد ظن الأب بيريغير ذلك و" انقضَّ " على هذا النص لكي يناقضه مع قانون سنة ١٨٩٩. ونشره الأب غوري للمرة الاولى اذ قدَّم نفسه مثل اول عضو من جمعية " الرهبان - المرسلين للأب دي فوكو "[١١]، بعد ان ترك أخوّة يسوع الصغار سنة ١٩٣٤ وابتعد عن الأب بيريغير في السنة التالية. كان يرى في تسمية " راهب - مرسل " تعبيرا ناجحا جدا عن " المهمة المزدوجة التي كان [الأب دي فوكو] ينوي إناطتها بهم ". فهل كان شارل دي فوكو سينتظر سنة ١٩١١ لكي يفكر في هذه حياة رجل صلاة ورسول " يدخل في احتكاك مباشر مع سكان البلاد عن طريق خدمة المحبة ؟ "[١٢]. ومن جهة اخرى، يمكننا ان نتساءَل هل توقفت التعابير عند هذا التاريخ، في حين انه لم يكفَّ حتى موته عن صوغ واعادة صوغ نصوص كان يريدها أساسية.

ويمكننا ان نطرح على نفسنا سؤالاً آخر. هل كان سيقبل بأن يوقّع على عمله اللغوي لو عاش بضع سنوات اخرى ؟ يبدو انه اعطى جوابًا اخيرًا قبل موته ببضعة ايام. فهو قد أنهى نسخة " الاشعار الطوارقية " وأعدّها للطبع. والمقدمة التي كتبها في الأخير، خلال سنة ١٩١٦ مؤرخة في سنة ١٩٠٦، لكي يحمل على الاعتقاد بأن واضعها هو موتيلنسكي الذي توفي سنة ١٩٠٧. فهل هذا دليل على ان ارادته في التستر في الخفاء لم تتغير ؟ ان هذا العمل قد شغل وقته كله، وقد انجزه إلى حد الكمال. ولكنه لم يكن يشاء ان يُنسيه هذا العمل العظيم العملَ الوحيد والحقيقي لحياته كلها، وهذا العمل يبقى خفيًا عن انظار العالم. اما عمل حياته، فانه كان يوجزه في الملاحظات التى كتبها

---

(١١) جورج غوري، على آثار شارل دي فوكو، ص٣٢١-٣٢٨.

(١٢) المرجع نفسه، ص١١٩.

٢٢- راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة .....

في ١٨ و١٩ حزيران سنة ١٩١٦ : " ان نحب القريب، أعني جميع البشـــر، مثل نفسنا ". وهو يتكلم ايضا عن " الشيء الوحيد لنا ههنا، والشـــغل الوحيد [...] مجد الله [...] وخلاص النفوس "[١٣].

(١٣) مسافر، ص٢٠٧-٢٠٨.

-٢٣-

سحرُ حياة استثنائية

إنه لمن المفيـد لكي نحدّد موقع هذا النوع الجديد من راهب، ان ندنو من الشخص من زاوية اخرى، من خلال نظرة معاصـر له ما كان ينقصه النور ولا الفكاهة.

ان البروفسور غوتييه (١٨٦٤-١٩٤٠) الذي كان يقول عن نفسه انه فاقـد الايمان، هو افضل من ادرك شخصيـة شارل دي فوكو. كان هذا الجغرافـي استاذا في جامعة الجزائـر، وقام برحلات عديدة إلى الصحـراء، ونشر كتبا عديدة عن افريقيا الشـمالية. وقد عرف شـارل دي فوكـو في بني عبـاس، ولا سيما طوال السفـر الذي امتد من ٨ حزيـران حتى ٤ ايلول سنة ١٩٠٥ : " خلال شهرين، ومرتين في النهار، كنتُ اتناول الطعام معه. وجميع ذكرياتي تكاد ان تأتي من هنـاك ". وفي تامنراست، يكون قد سـاعد " المرابط " في بناء بيته. وكان شارل يقدّمه بهـذه الكلمات : قلب ممتاز وروح فتّـان، واني أحبّه حبًا جمًا "[1]. واليكم مقتطفات من كتاب[2] وُضع سنة ١٩٢٠ :

" ضابط في زي مدني يُعرف بسهولة. اما عند الاب دي فوكو فكان الأمر قد ضاعَ تمامًا. فلا شيء في مشيته كان يشير إلى كونه عسـكريًا. كان راهبًا بكامله، من اخمص قدميه حتى قمة رأسه، كله اختفاء وتواضع ".

---

(١) رسالة إلى لويس ماسينيون في ١٩١٥/٥/٥ في جـان فرانسوا سيكس، مجازفـة محبة الله، باريـس ١٩٩٣، ص١٨٤.

(٢) ي. ف. غوتييه، الجزائر والحاضرة، باريس ١٩٢٠.

وفي موضع أبعد :

" كان وقت لم يكن فيــه مؤلف هذا الكتاب (استطــلاع في مراكش) يريد البتة ان يتذكر أنه كان قد كتبه. لقد تعرفتُ إلى الأب دي فوكو سنة ١٩٠٣، في بني عباس. وكــان ارتباك الاحتكاك الأول، ومراسيــم التقديم. وعمَّا كنت اقدر ان اتكلم الا عــن الكتاب الذي كنتُ قد قرأته وراجعته، وهو لأناس من مهنتي اداة للعمل. ولكني عوض المستكشــف كنتُ أجد الراهب. وسرعان ما أبعد الموضوع بعبارات قطعت الجسور حالاً. وقال شيئًا مثل هذا : " حينمــا نؤخذ بكليتنا بفكرة المطلق، لا يُعد النســبي من بعد ". ووجهــة النظر هــذه تلازمه طوال سنوات، ولكن ليس إلى نهاية حياته... ".

ويستمرّ :

" في سنة ١٩٠٦، عُيّن السيد موتيلنسكي، استاذ اللغتين العربية والبربرية، لمهمة في الهوجّار [...] ولقــد حظيتُ بجــزء من ملاحظاته وبدت لي غيــر صالحة للاســتخدام. الا ان رأي الاب دي فوكو لم يكن هكذا. فقــد أخذ على عاتقه ان ينشر نتائج سفر موتيلنسكي. ولكن الأمر ليس صحيحًا جدًا. فقد ظهر عمل موتيلنسكي، بعد موته، تحت رقابة رسمية لرئيس كلية الآداب في جامعة الجزائر، ومع مقدمة وضعها هذا. وهذا الرئيس، في مقدمته، يقبل الشكر يميناً وشمالاً، طبقًا للعادات. فهو يشكر السيد فلان والسيد فلان... واللائحــة طويلة بكفاية، ويرافقها جزء غامض من جملة : اشكر يقــول الرئيس، الســيد فلان وفلان وفلان...، بين الذين يُسمح لي بتسميتهم[٣]. فثمة اذا شخص لا يُســمح

---

(٣) يتعلق الأمر برينيه باسيت الذي يوقع على مقدمة هذا الكتاب الاول (قواعد ومعجم فرنسي – طوارقي) في ١٥ كانون الاول ١٩٠٧، ناسـبًا اياه إلى موتيلنسكي، حسـب التعليمات التي تلقاها، في حيــن ان موتيلنسكي لم يشترك في هذا العمــل. وهو يسرد اسماء كثيرة، ويوضح " بين اولئك الذين يســمح لي بتسميتهم. وبجانب بن مسي، يسمي با – حمو [...] الذي لم يعمل شيئا سوى توفير حروف الابجديــة التي تستخدم لكتابة العربية ولم يرَ موتيلنسكي لا هذا ولا ذاك، ولكن لا يهم، بما انهم في الوهم !

بذكر اسمه. والكل يعلمون في الصحراء ان هذا الشخص إنما هو الاب دي فوكو [٤]، ونعلم ايضًا انه في الحقيقة مؤلف المنشورات التي ظهرت بعد موت موتيلنسكي. انها خدعة صغيرة ما كان في وسع المتوفى ان يحتجَّ ضدَّها، ولم يكن في وسع رفاقه واصدقائه الا ان يتواطأوا معها، بما انها كانت الشرط الذي لا بدَّ منه الذي فرضه الاب دي فوكو ".

إنه يعدّد ما ظهر من كتبه ويوضح، مقلِّلاً من قيمته كثيرًا، ان " الامر يتعلق بلهجة بربرية يتكلمها بضع مئات من الناس "، ثم يضيف قائلا :

" لقد وُجد انسان عاش عشر سنوات في الهوجّار، وحصر همه تقريبًا في الاصغاء إلى هذه اللغة، وفي تسجيل كلماتها وصيغها، وفي كتابة فولكلورها عن طريقة الإملاء. لا يمكن ان يكون الأمر الا مهمًا جدًا. وكل هذا هو شرعًا عمل موتيلنسكي. ان الأمر لغريب ! انه عمل فخم، وهو يفترض لدى مؤلِّفه، واقصد المؤلف الحقيقي، النار المقدسة التي بدونها لا ينجح شيء، النار المقدسة العلمانية والعلمية، وحدس الادراك. وما شأن هذه المشاعر عند الراهب ؟ صحيح ان هذا الراهب، عند دنوّ المرء منه، كان يلقاه نبيهًا جدًا ومثقفا جدًا، وفضوليًا جدًا. وكان المرء يميز بجلاء ان المفكر لم يمت، ومن الطبيعي ان الامر انتهى بهِ إلى التغلب. ان دفعة الغرائز القديمة هذه أفزعت المسيحي بالتأكيد. انه خوف من مكائد الشرير، إن شئت، وخوف من كبرياء

---

(٤) يكتب الاستاذ غوتييه بعد وفاة الأب دي فوكو. الا ان هذا المعجم، بعد وقت قصير لظهوره، يثير بعض ردود الفعل ونخص بالذكر منها ردّ فعل السيد سيد كاوي، مؤلف المعجم الاول فرنسي – طوارقي [...]. سيد كاوي يعلم من هو المؤلف الحقيقي وهو يتهكم على هذه التحفة التي يقدمونها لنا اليوم مثل عمل جديد، لمؤلف جديد... الشخص المتواضع الذي يقول رينيه باسيت " انه لا يُسمح له بتسميته " و" الذي لن اسميه انا ايضًا ". يدعوه السيد (فلان) ويبدي خواطر فكاهية في شأن بعض كلمات حيث يبدو تأثير الترجمات الكتابية : " وما شأن لفظة " رسول " في هذا المعجم ؟ ".

المؤلِف وهي الاشـــد سمًا من كل شـــيء. وكان بالتأكيد ايضًا يشـــعر بسخافة الأمر، وعدم الاشياء كان ينفذ اليه. وكانت له الابتســـامة والارتياح بســـخرية صغيرة ناجحة، بقدر ما يمكن لهذه المشـــاعر، العلمانية قـــليلاً، ان تتخذ هيئة دينية. وأتصـــوَّر انه كان شـــاكرًا شكرًا عميقًا لهذا المقابي الاكاديمـــي، الذي استطاع ان يفكر تحت اسمه دون خطأ، او في الأقل ان يشـــكر الله على انه كان قد وضعه على طريقه في موعد معيَّن ".

" هل سيكون هذا الاسم المزيَّف دائمًا ؟ لقد كان الأمر قد نُظِّمَ جيدًا. ولعلَّ الامر يكون غير متزعزع "(٥).

" من المؤكد ان هذا هو ما أراده دي فوكو نفسه – ولا أهمية لهذا الأمر. فلأن تحمل كتبه الأخيرة يومًا اسمه، او ان تستمر على حمل اســـم موتيلنسكي فقط، فانها له وهي تشكّل قرطًا جميلاً لعمله إبان شبابه. وهذا كله قـــوي جدًا. وسيكون له هذا النوع من الخلود الذي توليه البيبليوغرافيات التقنية. ولن يكون من الممكن الاهتمام بأفريقيا الشمالية علميًا بدون قراءة دي فوكـــو. وهذا من البديهي ما سيُقام او سيُكتَب على قبره، وهذا ما ســـيكون له جمهورنا العلماني حساسًا بصورة خاصـــة. وهو نفسه لم يكن بالتأكيـــد ينسب أهمية إلى عملـــه المطبوع. وأُقرّ بأني انا ايضًا، بالرغم من نقيصتي المهنية، اصبحت أقل تأثرًا بالمستكشف واللغوي مني بالراهب ".

" ان المستكشف واللغـــوي اناس احترمهـــم كثيرًا، دون شك، ولكنـــي لقيتُ الكثير منهم. فلو لم يكـــن دي فوكـــو سوى هذا، لما كنا نشعر عند الدنو منه بسحر شخصية استثنائية. بجميع غرائزه العميقة كان راهبًا، او بالأحرى ناسكًا. هكذا وُلد. انما وضع بعض الوقت ليجد طريقه الصحيح. وتظهر غرائز الناسك

---

(٥) ما يزال الكثيرون يعتقدون ان موتيلنسكي هو المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب.

العميقة منذ ان كان مستكشفًا. فقد جابَ دي فوكو مراكش مجهولاً بزي يهودي. ونعرف ما كان عليه اليهودي المراكشـــي من المذلّة، وكان ما يـــزال خاضعًا لنظام الاختفاء. فوضـــع دي فوكو نفسه تحت حمايـــة الاحتقار العام. انه لأمر ماهر، ويُحدث نتائج ملحوظة. الا ان هذا التنكر لم يستهو احدًا، دي فوكو هو الوحيد الذي حمله في مراكش، وربما في العالم الاسلامـــي برمَّته. ولاختياره، كان عليه ان يكـــون له، منذ ذلك الوقت، عنـــد الخروج من المراهقـــة، الذوق للتواضـــع، ونوع من الاحساس كان يتنبـــأ بالراهب - رضوخ للفقـــر المدقـــع والقذارة، وبحث عن العزلة تحت ستار قناع. ومضت شهور طويلة وهو يعيش حياة يهودية ومسلمة. وهو في احتكاك حميم بهـــذه ديانات الشرق التي تستهوي النفسَ كلهـــا، والتي احتفظـــت بكل جدّتها. وخرج منها دي فوكـــو وهو مشبَعٌ بالمشاعر الاسلامية. قيل انه ذهب إلى حد بعيد جدًا حتى انه جابَه بعض الوقت اهتداء إلى الاسلام. وتجـــدر الاشارة إلى ان الحالة ليست وحيـــدة [...] وحينما يعيش الانســـان بين المسلمين، يعلم ما للاسلام من الجاذبيـــة. [...]، في حياتنا المضطربة، المتحضرة حضارة راقية، حينما نلقي نظرة عابـــرة على الطمأنينة الكبيرة التي يوليها الاسلام، اتخيل اننا جميعًا يصيبنا نوع من الحنين ".

" ولقد اوشك هذا الاحساس ان يقود المستكشـــف الشاب إلى العمامة. وهذا ما قيل لي وما صدَّقتُه. واضافوا اسم الكاهن الذي حفـــظ دي فوكو في الديانة المسيحية. وهـــذا ليس شخصًا مجهـــولا، وان اعتراه شيء من النسيان. وهل نتذكر " ليتري " وكيف ان دفنته الدينية أحدثت عثرة ؟ فان جثمان هذا المفكر الحر الشهير حُمل إلى الكنيسة بضمان كاهن يُدعى هوفلان. وكان هذا الكاهن من خريجي المدرسة العليا، من وجبة ســـنة ١٨٥٨، ونوعًا من المتخصصين بالتاريخ. ولقد تدخل في قضية " ليتري " ليس بصفته معـــرّفًا بالمعنى الخاص للكلمة، بل بصفة صديق شخصي وقديم، لم يرض بفكرة ان يكون ليتري قـــد

هلكَ، واعتبرها فكرة سخيفــة. وهذا الكاهن هوفلان هو الذي غيَّر دي فوكو، ومن الموعوظ المسلم جعله راهبًا " في خمس لحظات ". والصديق الذي روى لي هذا الحادث، كان يعتبر ان الاب هوفلان كان بالنتيجة رجــلاً رهيبًا، وقد يكون له شخصية قوية. وكان الاب دي فوكو، من عمق منسكه، يعتبره صديقًا حبيبًا جدًا. وباســمه ذهبتُ لأرى الاب هوفــلان في شــارع " نوللي " فــي الباتينيــول. ولم أَحظَ من فم الواحد، ولا من فم الآخــر، بتأكيد واضــح عن ترددات الموعوظ بين الديانتين. الا ان الأمر قد أكد لي من مصدرٍ موثوق به، وهو من المحتمل الكبير [...]. ولدى رؤيتــه، لم يكن يظهر بوضوح هل هو كاهــن ام بالاحــرى هــو " مرابــط ". وثوبه القطني كان يمكــن ان يُعتَبَر " غندورة " وكان على رأسه نوع من الطربوش. وقد توهم السكان في شأنه. ويُعزى هذا التعجب إلى موسى أغ أمستان، رئيس طوارق الهوجّار : " كيف، ايها " المرابط "، انت مسيحي ! ففي هذه الحالة لن تجديك تقشــفاتك نفعًا في العالم الآخر ". ولم يحاول دي فوكو قط ان يزيل هذا الابهام. فطــوال خمس عشرة سنة امضاها في الصحراء، لم يُجر اهتداءً واحدًا ".

" لقد اختبرنا نحن ايضًا رقة الاب دي فوكو، نحن رفاقه المساكين. وخلال اسابيع طويلة، في السفر المشترك الذي قمنا بهِ، ضمــن ثلة عسكرية صغيرة، من المؤكد ان الاب دي فوكــو اقام قداسه كل يوم، ودائمًا وحدَه، بدون شاهــد آخر سوى بول [...] وخلال اســابيع كثيرة فيها تناولنا الطعام معًا، لم يتّســم الحديث ابدًا بطابع كنســي، ولم يجتز قط إلى محاولة ترمي إلى الاهتداء. وهذا كله يوافق جيدًا مع طابع ناسك. فلا ينعزل المرءُ في الصحراء للوعظ فيها ".

ويعمــل غوتييه موجزًا لحياة شارل دي فوكو مع تفاصيل لا يمكــن انه قد حصل عليها الا بصورة مباشرة، في محادثات خاصة. ولم يتخلف عن الاشارة إلى شذوذ الوضع الكنسي لهذا الراهب من طراز جديد ".

" خلال اشهر عديدة، ظل راهبًا مساعدًا في هذا الدير (أقبس)، مجهولا تمامًا ولا يفتح فمه قط. كان يقطع الحطب ويحمل الماء. وبعد سنوات، حينما كان يتذكر هذه الفترة، كان يقول انها كانت عذبة. ولا تكمن المسألة في ان نعرف هل نحن عاثرون ام مستأنسون. ان ما يؤثر فيَّ هو ان هذا الاخ المساعد الذي يشق الحطب نلقى فيه المستكشف المتنكر بزي يهودي، والراهب الصحراوي. من البديهي ان دي فوكو قد بحث طوال حياته كلها عن إرضاء غرائزه العميقة الكامنة في عمق النفس ".

" كان يطالب لنفسه باسم الراهب، وكان يحمل زيَّه، ولكن بنوع من التطاول. كان مجرد كاهن : فقد رُسم كاهنًا في وقت متأخر على يد اسقف فيفييه. ولم يكن له قط حالة كنسية نظامية الا حياة كاهن حر لهذه الابرشية. انه لأمر سخيف وليس له أي علاقة بالصحراء، ولكن هكذا هو الأمر [...] ولكنه لم يكن سكوتيًا. واذا صار راهبًا، فكان عليه ان يصير راهبًا في جمعيته هو، جمعية كان يؤسسها، نوع من دير السكوتيين من الدرجة الثانية يكون هو مخترعه. وهذا ليس مجرد مزحة. فكان يحمل فوق ثوبه علامة من قماش احمر، وكان خاصًا بهِ، وكان يظهر ارادته في الانتماء إلى رهبانية جديدة ومتميزة. الا ان هذه الرهبانية، مع انه كان له اربعة ادیار [٦]، لم تحتوِ البتة

---

(٦) يتكلم غوتييه عن الامكنة التي تحتفظ بذكرى شارل دي فوكو : ١ - بيت بني عباس الذي كان يدعوه أخوّة. ٢- في عين صلاح، لا يبقى اي أثر لاجتيازه. والبيت الذي كان قد اشتراه سنة ١٩٠٧ في " قصار العرب " قد غطته تمامًا كثبان رملية. ٣- تامنراست البيت الصغير المبني سنة ١٩٠٥، والذي تم توسيعه سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٠ والذي يُدعى " الفرقاطة " وهو الموضع المؤثر اكثر من أي موضع آخر وفيه عاش شارل دي فوكو. وليس موضع آخر في العالم يمكنه المطالبة بامتياز انه الموضع الذي سكن فيه هذا الراهب مدة طويلة : ١١ سنة. أما " البرج " الحصن الذي شيده لحماية سكان القرية المهددين بعصابات من السالبين، وحيث نقل هو نفسه مسكنه طوال الاشهر الخمسة الأخيرة من حياته، هو الآن في وسط المدينة. ويُحفظ بصفة أثر تاريخي. ٤- الأسكرم اضحى أشهر من جميع المواضع التي عاش فيها شارل دي فوكو (ولم يُمض فيه سوى خمسة أشهر) وذلك بسبب موقعه البديع والرؤية التي يحظى بها المرء من قمة هذه الهضبة البركانية.

سوى على راهب واحد، وحيد جدًا، وهو الأب دي فوكو. لنتصور قراراً يصدر ويقضي بحلّ هذه الرهبانية. فيا له من اسلوب قضائي معقّد ! ".

لقد بقيت حية فيَّ ذكرى المحادثة الاولى الحـــرة التي صار لي الشرف بأن تكون لي معه. وكان ذلك خلال مسيرة في الليل، وكنت أنعس قليلاً على ظهر دابتي. وكان الاب دي فوكو، جاري، يمشـــي سيرًا على الاقدام بجانبي، وذلك بروح التقشف كما اظن. واستفقتُ على صوتـــه الذي كان يقول : " ما أجمـــل هذا ! " وكان الأمر كذلك تحت ضوء قمر مشعّ، كنا نجتاز البركان القديم لعين زيزا الممزّقة بصورة سخيفة ".

من المهم ان نؤشر إلى هذه الجملة التعجبية التي تظهـــر انه كان يعرف ان ينعم بجمال الطبيعة، لأنه، ما عدا الاسكرم، وبني عبـــاس بصـــورة استثنائية، لا يمكننا ان نقول انه تكلم كثيرًا عن ذلك.

وإلحاقًا بهذه المحادثات، توصـــل غوتييه إلى نتيجة توجـــز حياة شارل دي فوكو في تأكيد مدهش :

" كان سعيدًا جدًا بهذا الاسلوب. وهذا أمـــر لا يُنكر، وكان منظوراً. فكان قد وصل إلى آخر حد من ذاته، وحقّق ذاته كلها. فكـــان انموذجًا بشريًا كاملاً حتى الســـخافة. وقد يكون هذا ســـر الســـعادة. وكانت عينـــاه تشعّان هـــدوءاً وفرحا صامتًا ".

" افترضُ انهم سيقيمون قبرًا لدي فوكـــو، على الطريقـــة المحلية، اي قبة. وهذا القبر سيواصل عمل هذا الرجل. وستبدأ الاعاجيب. أوَ ندري ما سيتبلور حول هذه القبة ؟ ان القديسين خطِرون بصورة خاصة بعد موتهم. ثم، لا مقياس قوة دقيق للقوى الأدبية. ففي حياة دي فوكو، لم يكن حوله سوى احترام. وقد حدث انهم قالوا : " انه مجنون ! " وقد سمعوا هذا الكلام من فم ضابط شاب

وذكي [...]. وكان هذا الضابط قد جابه في خدمته الكثير من الشدائد، وتعرض للأخطار وقام بمبادرات، واتخذ مواقف، وبذل جملة من جهود مستميتة، شبيهة بما بذله دي فوكو. ولكنه كان له هدف واضح، واسهل للشرح في جملة واحدة. كان يريد مهما كلف الامر ان يشد ريشة بيضاء إلى خوذته، وبهذا كان يعتبر نفسه معقولا جدًا، وكان مقتنعًا بأن دي فوكو ليس كذلك. ربما كان على صواب. وهذا ممكن على أي حال. ولكننا منذ ٢ آب ١٩١٤ قمنا باختبارات قللت ايماننا بالعقلانية المحضة. فالاستسلام الأعمى، والتضحية بالذات فرديًا دون معنى، فلقد تعلمنا قيمة هذه الأمور في حياة الشعوب، وتعلمنا ان نحيّيها تحية عابرة، حتى حينما لا نفهم ذلك على ما يُرام ".

ولكي نختم هذا التقديم ونجيب على اسئلة غوتييه، يكفينا ان نسرد شارل دي فوكو نفسه. فان النار المضطرمة في قلب الراهب ليست من هذا العالم. وهذه النار بدأت تضطرم يوم انفتحت عيناه لنور جديد " يختلف عن نور الحواس ". وكان يكتب هذا في الناصرة في ٩ تشرين الثاني ١٨٩٧، في حين ان اسلوب حياته كان يبدو اكثر غموضًا :

" ان من يحيا بالايمان تكون نفسه مليئة بأفكار جديدة، واذواق جديدة، واحكام جديدة. وتنفتح امامه آفاق جديدة [...] وهو يبدأ حتمًا حياة جديدة، تمامًا مضادة للعالم الذي تبدو لها افعاله جنونًا [...] والطريق النيّر الذي يسير فيه لا يظهر لأعين الناس، بل يبدو لهم وكأنه يريد السير في الفراغ مثل مجنون "[٧].

وهناك كناية اخرى في وسعها ان تشرح لنا كيف ان من يريد ان يكون راهبًا يستطيع ان ينقاد بأعمق غرائزه لمرحلة من التطهير الداخلي. وعلى الورقة التي فيها كتب توقيته اليومي انطلاقا من سنة ١٩١١ نقرأ على الوجه

---

(٧) الموضع الاخير، ص١٢٠.

الأول : " ان نحمل النار على الارض " وفي الوجه الثاني " لأن كل شـــيء يحيا بحسب نوعية كيانه ". مع الشـــرح التالي الذي استقاه من القديس يوحنـــا الصليبي :

" ان الانسان الذي بلغ إلى تغيير طبيعته الحيوانيـــة إلى طبيعة روحية فيها تكون جميع العواطف، والميول، والأفعال، ملهمة من الروح نفســـه، يذهب نحو الله بدون مقاومة. فكل شـــيء لديه يتوشح بطابع خاص من الوداعـــة والقدرة والنقاوة والعفة والفرح والمحبة ".

ويستطيع ان يتصرف " غريزيًا " وان يتبع " حركته الداخلية "، كما كـــان الاب هوفلان يكتب اليه[٨] ويضيف : " اذهب حيثمـــا يدفعك الروح "، ويطلعنا هكذا على الروح الذي يحرق هذا القلـــب وعلى القوة التي تدفعه والتي تضحي قوة لا تقاوم، وتجعله يملأ صفحات[٩] وتفرض نفسها عليه مثل حركة لا تُقهر. انها لا تمنعه من ان يميّز ما هو تجربـــة، وهذا ايضًا عمل الروح، كما كـــان يعترف بذلك المونسنيـــور غيران منذ ١٩٠٤ : " ان الأخ شارل الحبيب، شأن جميع الذين يقودهم روح الله، يعرف بنوع مدهش ان يقيّم الظروف "[١٠]. انها مثل كرة قُذفت فلا يستطيـــع شيء او أحد ان يوقفها. جميـــع هذه الكلمات هي للأب هوفلان، وعلينا ان نعترف معه بأن ايمان تلميـــذه غيَّرَ الديانة إلى محبة. وهذه المحبة المندفعة وحدها تستطيع ان تشرح كل لحظة من حياته، وان تحقق الوحدة في أعمق غرائزه.

---

(٨) رسالة إلى الاب هوفلان في ١٩٠٢/٩/٢ وفي ١٩٠٣/٧/٥.

(٩) ورد في رسالة الأب هوفلان المؤرخة في ١٩٠٤/١٢/٢٨ هذه العبارة : " اكثر مما استطيع ان اقـــول لك هو ان رسالتك تبدو لي مكتوبة بالهام من الروح القدس ".

(١٠) رسالة إلى الاب فوالارد، شارل دي فوكو، مراسلات صحراوية، ص١٠١٥.

— ٢٤ —

رسالة للجميع

انطلاقًا من حياة شـــارل دي فوكو وكتاباتـــه، ذهب البعض إلى تاويـــلات عديدة. وقد فهمـــت رسالته غالبًا مثل نداء الصمت، وروحانية البرية او صيغة من الحياة النسكية. وآخرون رأوا فيه المهتدي الذي اجتاز من حيـــاة اللهو إلى النسك الاكثر بطولة. ولم يترددوا ايضًا في استخدامه للدفاع عن القيم التقليديـــة والمُثل القومية، وللحفاظ على نوع من الحنين إلى ماضٍ جميل. وعلى النقيض من ذلك لم يرَ آخرون فيه سوى الهامشـــي المحتج على المؤسسات، او المجدّد السابق لزمانه، الرجل العبقري الذي يكـــون قد ادرك كلّ شيء قبـــل الآخرين، رجل في الطليعة من الكنيسة. والتزامه بالسياق الاستعماري اثار عجبَ البعض واستياء الآخرين. وقد جعلوه مثالا لخطة ارســـالية تعمل في الخفاء، او نصيرًا لكرازة ضرورية. لا شـــك ان ثمة جملاً كثيرة وردت في كتاباته تســـتطيع ان تبرّر كلاً من هذه المفاهيم المتناقضـــة. وقليلون هم الذين عرفوا ان يعيدوه إلى الســـياق الدقيق لذلك العصـــر، دون استعادته او شـــرحه بالنظـــر إلى حالات تاريخية أحدث.

ما تزال امور كثيرة يجب اكتشافهـــا في تفاصيل حياتـــه وفي قراءة رسائله لكي يُعاد إلى الحقيقة الواقعية لعلاقاته مع الرجال والنساء الذين اراد ان يكون قريبًا منهم. وكذا الشأن مع علاقته بالله. في معظم الوقت، اكتفى البعض بقراءة حياته باستخدامهـــم كلايش او صورًا مجهَّـــزة تتحدث عن الفقر، والصداقـــة، والرسالة، والتأمل (المشاهدة)، دون ان يحلّلوا تصرّفاته الحقيقية وظروف حياته الواقعية مع الطوارق.

ماذا بقي لنا من ذاك الذي، حتى نهاية حياته، اراد ان يقتدي بيسوع في الناصرة ؟ واذا كانت ثمة كلمة تستطيع التعبير عن هذه الرسالة، انما هو اسم الناصرة، مع كل ما يحتويه من الواقعية التاريخية، ومن التعليم اللاهوتي، والمثل الأعلى التصوفي. انه نداء يدعو إلى عيش محبة مغرمة لشخص يسوع، في اكثر الحالات اعتيادية في حياة البشر، كما في اكثرها غرابة، على مثال يسوع نفسه. فيسوع الذي لم ينجُ من استعباد العلاقات البشرية، وأخذ هو نفسُه حالة العبد. لكي يحيا ملء علاقته الفريدة والحميمة مع أبيه في عائلة بشرية، ومهنة، وقرية، او على دروب فلسطين. وهذا واقع التجسد، عاشه شارل دي فوكو ايضا بنوع استثنائي، في علاقات شخصية جدا مع الرجال والنساء، في قرب منهم أكبر أكثر فأكثر، وذلك بعدما اعتقد ان عليه ان يعيشه بعيدًا عن الجميع، في صمت دير اولاً، ثم في عزلة منسك.

ألم تكن رسالته ان يُظهر ان " روحانية الناصرة هذه " يمكن ان تُعاش في جميع الحالات، في العزوبة والزواج، في الحياة الرهبانية او في الحياة العائلية، في الكهنوت أو في الحياة العلمانية، في الوحدة كما في الحياة المشتركة. وهي تعبّر عن ذاتها في لغة حضور لله وحضور للآخرين، ومقاسمة الحياة، والصداقة والتضامن. ليست روحانية الصحراء ولا الحياة النسكية. انها بالعكس روحانية العلاقة في بُعدَيها : الانساني والإلهي : علاقة المحبة مع الله، الذي صار واحدًا منا في يسوع - الذي يُتوخّى حضوره خاصةً في الافخارستيا - وعلاقة المحبة مع الرجال والنساء، الذين نريد ان نتقاسم حياتهم كلها، في موضع " الخادم "، لكي نحب مثل يسوع، بدون ان نستبعد احدًا، وبالتضامن مع الأفقرين. ان هذا حقًا اقتداء بحياة يسوع، يسوع الناصرة، يسوع في الناصرة وهو يحيا في العلاقات البشرية الاكثر اعتيادية علاقة فريدة مع ابيه.

هناك نصان لجاك ماريتان يستطيعان ان يُفهمانا ما هي هذه الصيغة الجديدة

للحياة التأملية التي استلهمها كثيرون وهم يعيشـــون حياتهم في العالم وفي وسط شؤون العالم. ويرقى النص الاول إلى سنة ١٩٢٨

" ان حيـــاة بكاملها تأملية في العالم، اني بالحقيقة لا أراها ممكنة. وحيـــاة تأملية فـــي جوهرهـــا، نعم، ولا تهتـــم مباشرة بالرسالة، كما هـــو الشأن عند الدومنيكيين او حتى عند الكرمليـــن. الا انها لا تجـــد لها تبريرًا في العالم الا برغبة خدمة النفـــوس، واذا تكـــون بنوع أو بآخـــر مسلمة للنفوس، وتحتمـــل بشجاعة، لأجلها، جميـــع المشـــاكل والمرائر والتحركـــات غيـــر المجدية وهي لا تنفصل عن التعاطي مع البشر، والعشرة مع الناس، وان لم يكـــن ذلك سوى لاداء الشـــهادة فيما بينهم عن التأمل ذاته وعن المحبة الافخارســـتية لربنا. اذا اضطُررت إلى البقاء في العالـــم، اظن ان ذلك يكـــون بارادة ان تدع الآخرين يفترسونك، دون ان تحتفظ بالعزلة الا الجـــزء الضروري لكي يعمل الله منـــك شيئًا نافعًا للافتراس. وماذا يبقى بعد هذا ؟ هذا الانطبـــاع، وهذه الفكرة، وهذا الأمل بأن الروح القدس يهيئ شـــيئًا في العالم، عملاً للمحبـــة والتأمـــل يتطلب نفوسًا مستسلمة كلها ومضحّاة في وسط العالم ".

اما النص الثاني، فقـــد كتبه ماريتـــان سنة ١٩٥٠، وهو مجرد ملاحظـــات للتدريس، في شرح يوحنا (١/٤، ٧-٨) :

" ان المحبـــة للقريب هي المحبة نفسها لله. ومن ثمة فان المحبـــة الأخوية توحدنا مع الله، اذ تجعلنا اكثر شبيهين بهِ. وحينمـــا نحاول ان نحب الآخرين كما أحبهم يسوع، اذ ننظر اليهم بعيني يسوع، تصبح المحبة الأخوية، اكثر من أي فكرة، طريقًا إلى الاتحاد بالله بنوع مظلم واختباري، في السعة التي لا حدَّ لها، هي سعة هـــذه المحبة. وهـــذا يفترض قربًا انجيليًا من الآخرين. وموقفًا للمجانية الحقيقيـــة، التي لا تنتظـــر شـــيئا بالمقابل. فنصغـــي اليهم، ونحـــن مستعدون لنخدمهم، ونكون قبل كل شيء منتبهين إلى ما هم عليه، وإلى قيمتهم

اللامتناهية لكونهم محبوبين من الله. هذا هو الموقف التأملي نحو القريب، وهذا يتطلب تخليًا عن الذات وتجردًا حقيقيًا اذ لسنا من بعدُ ملكًا لذاتنا. واذ ذاك تكون المحبة الأخوية مقتضية وقاسية مثل محبة الله. وهذا يتطلب بأن نوجد مع الآخرين. ان نوجد مع. انه تأمل حقيقي، ولكنه من نوع خاص. انه التأمل على الطرق التي يقودنا فيها يسوع الناصرة، في إثره، إلى الصغار، لكي نكتشف معهم وجهَ الله المحِبّ ".

ونحن الذين نعيش في ازمنة وامكنة اخرى، فمن ذا الذي يستطيع الإدّعاء بأنه يسير على خطى شارل دي فوكو ؟ كثيرون سيستطيعون الاكتفاء بالتعجب منه وبأن يحبوه مثل الاب هوفلان. وهناك آخرون، بغير ان يقيموا وزنًا لاختلاف الأحوال والمسافة، يستمرون في الحكم عليه، بل حتى في شجبه. والآن وقد أعلن " مبجّلا "، كثيرون سيظنونه أيضا قابلاً للإقتداء. فهل الصفحات السابقة ستقضي فيهم على هذه الرغبة ؟

يبقى ان كل واحد سيسعه التعرّف إلى القوة التي دفعته وقادته إلى الصحراء، ليس للتهرب من العالم، بل لكي يجعل نفسه قريبا من الذين تعزلهم الصحراء عن العالم. وكان هذا هو الطريق الذي كان عليه ان يتقدّم فيه، دون ان يعرف إلى اين سيقوده. واذ توقفنا عند بعض منعطفات هذه المسيرة، لقد تبعناه على هذا الطريق الذي قاده إلى تامنراست، بالرغم من التجارب والترددات.

فعسى هذه القراءة ان تساعدنا لنتبع طريقنا الخاص بنا، المختلف عن طريقه، وان ندع المجال لهذه القوة ان تجرّنا، هي التي تدفع كلاً منا إلى ان يجد موضع اكتماله في صحاري هذا العالم.

المحيط الأطلسي

البحر الأبيض المتوسط

الاماكن التي عاش فيها شارل دي فوكو

من كتاب : شارل دي فوكو
رسول الاخوة الشاملة
للاب جرجيس لقس موسى.

محتوى الكتاب

مقدمة المترجم	٧
مقدمة المؤلف	٩
١ـ زمن الطفولة المبارك	١٧
٢ـ شباب طائش	٢٣
٣ـ لذة العمل	٢٩
٤ـ زمن الاهتداء	٣٩
٥ـ ساعة الدعوة	٤٧
٦ـ يوم التضحية الكبرى	٥٣
٧ـ سبع سنوات في دير السكوتيين	٦٥
٨ـ فعل الاستسلام	٧٧
٩ـ الإقتداء بيسوع الناصرة	٨٣
١٠ـ تجارب الناصرة	٩١
١١ـ تغييرات في التوجّه	١١٩
١٢ـ من التباعد إلى التقارب	١٣٧

١٣ـ بني عباس وزمان الأخوّة ١٤٥
١٤ـ النداء الأول من الهوجّار ١٦١
١٥ـ طاعة ومبادرة ١٧٩
١٦ـ النداء الثاني من الهوجّار ١٨٧
١٧ـ النداء الثالث من الهوجّار ٢٠٧
١٨ـ على الدرب شطرَ الهوجّار ٢١٩
١٩ـ السكنى في تامنراست ٢٢٩
٢٠ـ زمان تامنراست ٢٣٣
٢١ـ القوّة في الضعف ٢٤٥
٢٢ـ راهبٌ من طراز جديد وفي رسالة خاصة ٢٦١
٢٣ـ سحرُ حياة استثنائية ٢٧٩
٢٤ـ رسالة للجميع ٢٨٩

انطوان شاتلار

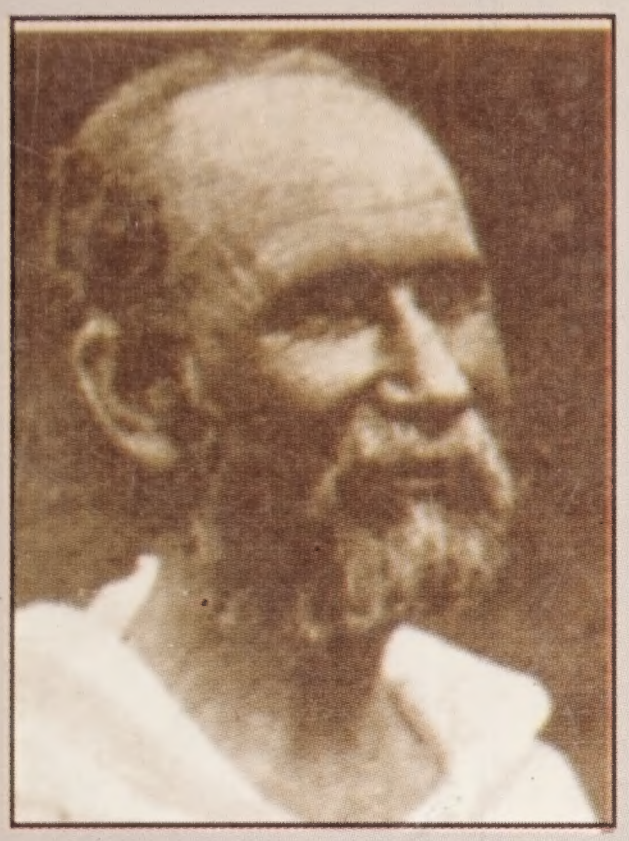

شارل دي فوكو
الطريق إلى تامنراست

3000

ترجمة

الأب ألبير أبونا

بغداد - ٢٠٠٥